

موقع فلسطيني:

كتاب

النفس المغلولة

سيكولوجية السياسة (الإسرائيلية)

د. محمد أحمد النابلسي

* * * * *

الفهرس:

مقدمة الطبعة الأولى.

مقدمة الطبعة الثانية.

1 - الفصل الأول: التحليل النفسي للشخصية اليهودية.

2 - الفصل الثاني: سيكولوجية الخداع الإسرائيلي - التطبيع نموذجاً.

3 - الفصل الثالث: سيكولوجية الاحتلال - المفاوض الإسرائيلي نموذجاً.

4 - الفصل الرابع: سيكولوجية السفاح - شارون نموذجاً.

5 - الفصل الخامس: الصهيونية والحرب النفسية.

6 - الفصل السادس: عقدة فيتنام الإسرائيلية.

7 - الفصل السابع: القدس والنفط والمستقبل.

8 - الفصل الثامن: خدعة التدوين المتشابك للتاريخ.

9 - الفصل التاسع: من ملفات الإرهاب الصهيوني.

10 - الفصل العاشر: معاداة السامية والدلالات المستعارة.

11 - الفصل الحادي عشر: نهاية (إسرائيل).

* * *

www.alkottob.com

مقدمة الطبعة الأولى

د. محمد أحمد النابلسي

إن مراجعة سريعة لمبادئ الأنثروبولوجيا النفسية قد تكون مفيدة للتذكير بسمات الشخصية القومية الناتجة عن تأثر هذه الشخصية بالثقافة وبمحدداتها.

ونبدأ بعرض رأي "شبنغلر" في مسألة استعارة العناصر الثقافية. إذ يرى أن هذه الاستعارة تكون انتقائية. مع تعرض العناصر المستعارة إلى تعديلات كي تلائم الثقافة المستعيرة. وهو يعطي مثلاً على ذلك انتقال البوذية من الهند إلى الصين وما صاحب هذا الانتقال من تغييرات أدخلها الصينيون على البوذية. وهذا الرأي يدفعنا إلى مراقبة التغييرات التي أدخلتها (إسرائيل) على العناصر الثقافية التي استعارتها من الشخصية الغربية ومن نمط الحياة الأمريكي. وهنا لا بد من رصد مصير عناصر، يعتبرها الغرب مقدسة مثل الديمقراطية والليبرالية على يد (إسرائيل).

ولقد سبقنا إلى هذا الرصد بعض المفكرين اليهود المتحمسين لهذه العناصر وفي طليعتهم المفكر "إسرائيل شاحك" الذي تؤكد كتاباته فقدان هذه العناصر لدلالاتها ولماهيتها في (إسرائيل).

وكانت دراسة الشخصية القومية قد بدأت عملياً في أواخر عشرينيات القرن العشرين والتي توجهت الباحثة "بينديكت" بإصدار كتابها "نماذج من الثقافة" العام 1934. حيث تؤكد الباحثة بأن الثقافات التي درستها قد دمغت شخصيات الأفراد المنتمين إليها. في المقابل لا أستطيع، بصفتي طبيباً نفسياً، تجاهل خصوصية الشخصية الفردية وتمايزها. وهو موضوع نقاش اختصاصي حامي الوطيس، وإن كانت العولمة تتجاهله.

بل هي تتجاهل الشخصية نفسها (قومية أو فردية) لتحل مكانها مبدأ "النمط السلوكي". وهو قالب سلوكي (مكون من سلسلة من التصرفات والأفعال وردود الفعل)، يمكن لأي شخصية اعتماده بغض النظر عن تكوينها ونمطها. ومثل هذا الاختزال قد يكون صالحاً لتجاوز بعض معوقات العلاقات البينية (بين الأشخاص أو بين الجماعات) إلا أنه يفقد صلاحيته عندما يتعلق الأمر بالنظرة للحياة (ومعها مسألة الموت). فهذه من اختصاص العقل الجمعي. وهي تعيدنا إلى ضرورة دراسة الشخصية القومية. ففي موضوع الموت تحديداً لا تنطلي حيلة البراغماتية الداعية إلى "تركيب مكيفات في الجحيم"!

خلاصة القول أن الاختصاص يصر على ذاتية الشخصية وتفردتها ولكن دون أن ينفي تسرب عناصر الثقافة إلى هيكليتها ودور هذه العناصر في تحديد اتجاه نموها. وعلى هذا الأساس فإننا مقصرون في دراسة "الشخصية الإسرائيلية" وها نحن نستشعر هذا التقصير بعد اضطرارنا للتعاطي مع هذه الشخصية عبر المفاوضات. وأحياناً عبر التعاطي المباشر (الإعلامي خصوصاً).

وهنا لا بد من رد الفضل إلى أهله حيث كان للبروفسور المصري "قديري حفني" السبق في التأسيس لدراسة الشخصية (الإسرائيلية). حيث كان هذا البحث موضوعاً لرسائله الجامعية ولعدد من الدراسات اللاحقة. إلا أن دراسة الشخصية (الإسرائيلية) تصطدم بعوائق وتناقضات ناجمة عن تعدد مصادر استيراد "العناصر الثقافية". حتى يمكن القول إن لكل جماعة (إسرائيلية) مصدرها الخاص لاستيراد هذه العناصر (أميركا وأوروبا وروسيا وأثيوبيا والدول العربية والشرقية). وهذا التنوع في المصادر هو المسؤول عن طرح أزمة الهوية في (إسرائيل). ومرة أخرى نرد الفضل إلى أهله بالإشارة إلى كتاب الدكتور رشاد عبد الله الشامي المعنون "إشكالية الهوية في إسرائيل".

بعد هذا العرض الموجز ماذا ترانا نقدم في هذا الكتاب؟ إننا نقدم بعضاً من هذا كله دون أن نجرؤ على الادعاء بأننا نقدم دراسة متماسكة لا عن الشخصية اليهودية ولا عن هويتها. فما نعرضه في هذا الكتاب لا يتعدى كونه تحليلاً نفسياً لبعض المواقف (الإسرائيلية) التي تضعنا في موقف الحرج والتردد إذا ما نحن فشلنا في استبطان اللا شعور اليهودي المنتج لهذه المواقف والمحدد لاتجاهاتها علناً. بهذا الاستبطان نقدم مساهمة بسيطة بتوظيف الانثروبولوجيا النفسية والسيكولوجيا معاً لتوضيح المواقف (الإسرائيلية) المسبقة والنوايا الناجمة عنها. وهي عدوانية تجاهنا نحن العرب بكل تأكيد. وعليه فقد رأينا توزيع محتويات هذا الكتاب على الفصول التالية:

- 1 - التحليل النفسي للشخصية اليهودية.
- 2 - سيكولوجية الخداع الإسرائيلي - التطبيق نموذجاً.
- 3 - سيكولوجية الاحتلال - المفاوض الإسرائيلي نموذجاً.
- 4 - سيكولوجية السفاح - شارون نموذجاً.
- 5 - الصهيونية والحرب النفسية.
- 6 - عقدة فيتنام الإسرائيلية.
- 7 - القدس والنفط والمستقبل.
- 8 - خدعة التدوين المتشابك للتاريخ.
- 9 - من ملفات الإرهاب الصهيوني.
- 10 - معاداة السامية والدلالات المستعارة.
- 11 - نهاية (إسرائيل).
- 12 - لنا المستقبل.

وهذا الكتاب على ضيقه يجسد مجموعة من الأهداف كانت حاضرة في ذهني لدى كتابتي لكل فصل من هذه الفصول. حيث كتب كل فصل استجابة لمناسبة معينة، يأتي ذكرها في الهوامش، هي حلقة من حلقات العدوان الإسرائيلي على أمتنا. وبذلك فإن هذا الكتاب ليس سوى مجموعة حلقات من إسهامنا المتواضع في محاولة تطويع العلوم النفسية لخدمة مجتمعنا وخصوصاً لجهة صراعه مع الدولة المارقة على القوانين الدولية

والإنسانية. راجياً أن تكون هذه المحاولة، بحلقاتها المتعددة، على مستوى إضاءة جانب من جوانب الصراع مع (إسرائيل). وقصدنا من هذه المحاولة إثارة الانتباه العربي إلى جملة إشكاليات لم يعد من الواقعية تجاهلها، وفي طليعتها:

1- التعرف إلى عمق الذات (الإسرائيلية) التي تستجلب مشاعر الأمان والتوازن عبر فعل الاعتداء والتي تخشى التفكك والشيزوفرانيا بسبب السلام لأنه يخرجها من لعبة السيد والعبد ويجعلها تتساوى مع من تعتبره عبداً.
2- إن الخداع (الإسرائيلي) يلجأ وبصورة تكرارية إلى استخدام مصطلحات ذات دلالة ظاهرية ايجابية. لكنه يعتمد دائماً الدلالة الباطنية للمصطلح. فالسلام هو مجرد تسوية مؤقتة بانتظار التطورات الإستراتيجية العالمية. والتطبيع هو الدخول بعلاقة مصلحة مع الأطراف الأخرى مع استمرار اعتبارها (عبيداً).
وهذه الازدواجية الدلالية لا بد لها من اعتماد أساليب خداع متطورة. نعطي عليها بعض الأمثلة بعد شرحنا لسيكولوجية الخداع (الإسرائيلي).

3- يقترب مفهوم الحقوق لدى اليهود من قواعد القانون الروماني فالمحرمات واجبة العقاب تتحول إلى مباحة إذا كان ضحيتها الغير (غير اليهودي). وهذا التمييز في "الحقوق" يستتبع ضرورة الكذب والاحتيال في التعاطي مع الأغيار.

من هنا كانت ضرورة عرض "سيكولوجية الاحتيال" مع اعتماد أساليب احتيال المفاوض (الإسرائيلي) كنموذج تطبيقي للاحتيال.

4- استباحة الآخر هي الشرط الرئيسي لتبرير العدوان. فإذا ما وصلت هذه الاستباحة إلى حدود العبودية فإنه يصبح من حق السيد أن يعتدي حتى على مقدسات الآخر. والمناسبة (مجزرة الأقصى) وحدها هي التي دعتنا لاتخاذ شارون نموذجاً للسفاح. (إسرائيل) فأنفة الغنى بالسفاحين. بدءاً من قتلة الأنبياء مروراً بموشيه دايان ورايين وبيغين وبيريز وباراك وتطول القائمة.

5- إن خوض (إسرائيل) للحرب النفسية يعتبر من التجارب الفريدة في هذا الميدان فهي تخوض هذه الحرب في اتجاهين. الأول تلميع صورة اليهودي، والثاني تشويه صورة العربي. فأما الهدف الثاني فهي تحققه بسهولة تدعمه الأفكار الغربية المسبقة والمتعالية على العرب. أما الهدف الأول فهو لا يزال صعب التحقيق. لأن كراهية الغرب لليهود لا تتركز إلى مجرد أفكار مسبقة بل إلى تعامل مباشر مع الجماعات اليهودية. لذلك لجأت (إسرائيل) إلى تسليط سيف التهديد على كل من يجرؤ على إعلان حقيقتها. وذلك تحت طائل تهمة "معاداة السامية". وبسبب هذا التهديد باتت الصحافة العالمية بعيدة عن الموضوعية، مما اضطر الباحثين مراراً للعودة إلى الصحافة (الإسرائيلية) التي تكتب أفساماً من الحقيقة لا تجرؤ الصحافة العالمية عليها!

6- لعدم استعداد (الإسرائيليين) تقديم ضحايا بشرية أسباب متشابهة. وعندما تمكنت المقاومة اللبنانية من إيقاع خسائر في الأرواح (الإسرائيلية) سارع اليهود إلى المطالبة بالانسحاب من الشريط الحدودي. الذي فجر لديهم عقدة مطابقة لعقدة فيتنام الأميركية. هذه العقدة التي ستجعل (إسرائيل) تتجنب أي احتلال أو التحام قتالي

مستقبلي. مع تعويض هذه العقدة باستخدام تفوقها العسكري. بحيث يمكن الجزم بأن طائرات "الأباتشي" ستكون ذراع الاعتداءات (الإسرائيلية) القادمة على لبنان والعرب.

7- يبدو لنا أن تدنيس شارون للحرم القدسي خطة مدبرة ومدروسة. فبتحري المستفيدين من هذه الجريمة نجد أنهم يملكون من الدوافع ما يكفي لارتكابها. بل ويبدو لنا أيضاً أن زيارة شارون ذات علاقة مباشرة بالمصالح النفطية الأميركية في المنطقة. وذلك بحيث يصعب الفصل بين أزمة النفط وأزمة القدس، فماذا عن المستقبل؟!

8- خدعة التدوين المتشابك للتاريخ هي خدعة تقتضي مراجعة الفصل الثاني (سيكولوجية الخداع الإسرائيلي). قوام هذه الخدعة أن حركة المؤرخين الجدد في (إسرائيل) لعبت دور الناشر لمجموعة الأسرار المخبرانية التي تنشر تلقائياً بعد ثلاثين سنة. وتريد هذه الحركة أن تستثمر هذه المعلومات، التي أصبحت مباحة، لاستخراج معلومات عربية لا تزال مصنفة "سرية". وذلك تحت ستار التدوين المشترك للتاريخ! هنا نشير إلى أن كتاب "بول قندلي" المعنون: "إحباطات مؤجلة" يحتوي على معلومات ووثائق تفوق في قيمتها اعترافات المؤرخين (الإسرائيليين) الجدد مجتمعة.

فهل تجد هذه الدعوة الخادعة من يتجاوب معها؟

9- في سياق الحديث عن الإرهاب الصهيوني وسيكولوجيته لا بد من التذكير ببعض فصول هذا الإرهاب ومجازره. حيث نقدم عروضاً مختصرة جداً لمجازر دير ياسين وقبية وكفر قاسم وبحر البقر والأقصى والحرم الإبراهيمي وصبرا وشاتيلا وقانا.

10- نشأة مصطلح "معاداة السامية". حيث كان للهولوكوست دور رئيس في جلب التعاطف مع هذا المصطلح مما ساهم في نشره. حتى بات تهمة وسيفاً مسلطاً على رقاب من يجرؤ على الكلام.

11- نهاية (إسرائيل). حيث يبدو أن النهاية لا تتم على أيدي الأعداء التقليديين. فالنهاية المتصورة والمطروحة بجدية (إسرائيل) تتضمن عدة سيناريوهات ليس بينها سيناريو نهايتها على يد العرب؟ وهذا ما يبعد الطرح (زوال إسرائيل) عن تهمة "أحلام اليقظة" و "الرومانسية القومية" وغيرها من التهم. فالقائلون بزوال (إسرائيل) يستندون على قراءات مستقبلية للراهن (الإسرائيلي). وإن نخشى أن يكون هذا الإعلان المبكر سبباً في اعتماد خطوات وقائية تؤخر هذا الزوال؟!

نأمل أن يتمكن هذا الكتاب من إيصال الدوافع لكتابة كل فصل من فصوله والأفكار التي يريد تعميمها على أمل أن تثير هذه المعلومات النقاش. فقارئ هذا الكتاب قد يوافقنا الرأي حول عجز (إسرائيل) عن إقامة علاقة طبيعية مع الآخر وحول الرهاب والهلع اللذين يثيرهما السلام لديها. بحيث تسخر قوتها وقدراتها على الاحتيال والخداع لتجنب السلام والهروب من كأسه. فالنفس (الإسرائيلية) هي نفس يستعبد بها المال وتكبلها الشائعات وتخفقها الأساطير.

إنها النفس المغلولة!

مقدمة الطبعة الثانية

تدرك الولايات المتحدة ومعها الغرب عبثية الاستمرار في سياسة احتواء النفوذ. فهذا الاستمرار مخالف لمنطق الأمور والتطور الطبيعي حيث يتسع نطاق نادي الدول النووية ومالكة أسلحة الدمار الشامل المختلفة وبعضها متاح للدول الفقيرة. ومن هنا تسميتها بأسلحة الفقراء. حيث من الممكن للثورة البيولوجية الراهنة أن تعطي الأفضلية والفعالية لهذه الأسلحة التي تصنع استناداً "إلى المايكروبيولوجيا والكيمياء العضوية"، وهي ميادين نبغ فيها بعض علماء العالم الثالث وخصوصاً في الدول المارقة.

بالانتقال إلى الصراع العربي (الإسرائيلي) نجد أن أمتنا قد أدمنت الإبحار في المياه الضحلة. فبات مواطننا يعيش بمتوسط دخل فردي متدن مع قناعة عميقة بالاستمرار في المطالبة بحقوقه. ومع استعداد، يرعب الآخرين، للموت في سبيل هذه الحقوق. ولكن ماذا عن الآخر (الإسرائيلي)؟ وماذا عن دوره الوظيفي الذي يجسد اختبار القوة الأميركية فيحول المنطقة إلى مختبر لامتحان هذه القوة؟ وهذه الأسئلة تطرح نفسها بقوة بعد أن وصل الصراع إلى الترميط الذي يعكس احتمالات التصرف الأميركي أمام العدو البديل المنتظر. فقد تحول المفهوم العالمي للصراع من العسكري إلى الاقتصادي ومنه إلى الافتراضي. حيث يتكلم الإستراتيجيون الأميركيون اليوم عن الحرب الافتراضية أو حرب المعرفة (روزنفلت واركيل). وهذه التحولات تجبرنا على إدخال تعديلات على أساليب تعاطينا مع العدو الفعلي (إسرائيل) والرمزي (الولايات المتحدة ومعسكرها). وهو تعديل يجب أن يركز على المواضيع المفصلية التالية:

تخطي مبدأ التجاهل:

بقينا لفترة طويلة ولظروف معلومة نعلم سياسة تجنب الخوض في التفاصيل مع التعجل في استخلاص النتائج النهائية في صراعنا مع (إسرائيل). وهذا التجنب كان يقتضي تجاهلنا للقدرات (الإسرائيلية) الإعلامية ولتفوقها في اعتماد دبلوماسية الأبواب الخلفية. لكن ثورة المعلومات أصبحت تضع جمهورنا في مواجهة مباشرة مع المعلومات التي تعمدنا تجاهلها طيلة عقود. فهل نترك جمهورنا ليتلقى هذه المعلومات من مصادر مشبوهة ومضللة؟ أم أن من واجبنا أن نعرضها عليه وأن نضعها بمتناوله وفق سياقاتها التاريخية الموضوعية؟ وهل نترك لدبلوماسية الأبواب الخلفية أن تحول جماعاتنا العشوائية إلى الفعالية والتأثير؟ عبر دعمها إعلامياً "ومالياً" (وهذا ما أشار له بوضوح الفين توفلر في كتابه "تحول السلطة"). بحيث تتخطى هذه الجماعات الهامشية الكتل الوطنية والغالبية المعبرة بصدق عن الجمهور.

الوقاية من فيضانات المعلومات:

يمكن اختصار إستراتيجية مواجهة تسرب المعلومات مع عصر الاتصالات بأنها قائمة على مبدأ الإغراق المعلوماتي. بحيث يجري ضخ المعلومات بكثافة مربكة للمتلقي. وهي كثافة تجعله عاجزاً عن اختيار المعلومات

المناسبة وعن تصنيفها في جداول أولويات واضحة. والوقاية في هذه الحالة تكمن في تأمين المرجعيات التي تقي جمهورنا من الدخول في متاهة ما يعرف الآخر أني أعرف أنه يعرفه... إلخ. وفي مقدمة الخطوات الوقائية التعرف الموضوعي إلى التاريخ اليهودي بقطيعته وأساطيره. وهي معرفة تقي جمهورنا من إحياء الأساطير والشائعات اليهودية. التي تحكمت لفترة بالرأي العام العالمي. لغاية بداية مراجعاتها على يد الأركيولوجيين والإنثروبولوجيين وشهود العيان والمؤرخين وغيرهم من المراجعين. من هنا فإن الضرورة تقتضي أن نترجم وبأقصى سرعة ممكنة كتابات المراجعة الموضوعية. مع الانتباه الشديد لكتابات المؤرخين (الإسرائيليين) الجدد. خصوصاً "بعد أن نجد لهم أثراً" في مراحل مختلفة من التاريخ اليهودي. إذ كلما عجزت الأفكار اليهودية عن الاستمرار قامت حركة مراجعة موازية لما يسمى بالمؤرخين الجدد اليوم. حتى أن فرويد يتحدث في كتاباته عن حركة مؤرخين يهود جدد تعود إلى القرن التاسع عشر. ويسرد بعضاً من أسمائهم.

الاحتكام للإنثروبولوجيا:

يقول هنري فوسيون إن التاريخ هو تأليه معكوس. وعملية التأليه هذه لا بد لها من الانتباه إلى الثغرات الضاحقة لهذا التأليه. وعليه فإنه لم يعد كافياً أن نقول إن اليهود الأشكيناز هم يهود الخزر. وإنهم بالتالي غير عبرانيين. بل بات علينا أن نتلقى الجواب اليهودي الداعم للتأليه. وهو القائل إن قبائل الخزر هم من القبائل اليهودية العشر الضائعة. وبمعنى آخر فإن علينا أن ندرك أننا نقارع أساطير. وأن الخطوة الأهم في هذه المقارعة هو إجبار اليهود على العودة للاحتماء بالأساطير لكشف زيف الموضوعية التي يدعونها. وعليه فإن الإنثروبولوجيا هي الحكم في هذه المقارعة. وهي لا شك تتدعم مع الوقت بالبحوث الأركيولوجية الحديثة. ولعل هذه الكشوفات مجتمعة واحتمالاتها المستقبلية هي التي دعت فريق من (الإسرائيليين) للنكوص إلى حيلة التأريخ الجديد. ومن هنا تحفظنا على هذه الكتابات.

النفس المغلولة:

لقد كانت هذه النقاط الثلاث هي محرنا ودافعنا لصياغة أفكار هذا الكتاب الذي عنوانه بـ "النفس المغلولة - سيكولوجية السياسة الإسرائيلية". ذلك أن تحول الصراع من العسكري إلى الاقتصادي يتضمن الدعوة إلى أمم كانت مستبعدة من النادي العسكري الدولي للانخراط في النادي الجديد (هنا نذكر بتجربة النمر الآسيوية بغض النظر عن أزمتها الاقتصادية اللاحقة والتي تجب الاستفادة منها). وهي فرصة لتثبيت عضويتنا في هذا النادي. أما ملامح تحول الصراع إلى افتراضي- معلوماتي فهي تفتح الأبواب أمام الأفراد (الأدمغة) للدخول كأعضاء مؤثرين في القرار. بما يقتضيه ذلك من الوعي بضرورة تأهيل الأفراد وتجديد التواصل مع مهاجرين وتصدير أفراد جدد مؤهلين للتأثير. وربما احتجنا هنا إلى مثال عملي لهذه التحولات. وهنا نلجأ إلى مثال ذلك الشاب الفيليبيني مخترع فيروس "أحبك" الذي تمكن من إلحاق خسائر مهددة بمستثمري المعلومات. وكان ضرر الفيروس المالي والمعنوي أضعاف ما يسمى أميركياً بالإرهاب العنفي. ويبين هذا المثال أن استحالة احتواء النفوذ (ملكية القوة المدمرة) باتت واقعاً.

نعود إلى النفس اليهودية لنقول إن ثورة الاتصالات باتت تضع جمهورنا أمام المعلومات (الإسرائيلية) وبالتالي أمام اتصال عن بعد أو بالواسطة، أو نادراً مباشراً، مع (الإسرائيليين). مما يستدعي التدعيم المعلوماتي الوقائي لهذا الجمهور بما يجنبه صدمة الإحساس بأنه كان مخدوعاً. وهي صدمة أكيدة الحدوث لو نحن تركنا جمهورنا يستقي معلوماته من مصادر القراءات (الإسرائيلية) للوقائع. خصوصاً عندما تتبنى جماعات هامشية هذه القراءات متسترة بالليبيرالية ومدعومة بدبلوماسية الأبواب الخلفية. وهذا يقتضي قيامنا بانتاج قراءتنا الخاصة لهذه الوقائع. بما يعادل بشكل أو بآخر إعادة كتابة تاريخنا العربي منذ مطلع القرن العشرين ولغاية اليوم. وهنا سنواجه صعوبة لا يمكن تخطيها إلا بالتخلي عن بعض ثوابت المنظومة العلائقية السائدة في الخطاب ما بين العربي. إذ إن الاحتفاظ بهذه الثوابت سيغرق جمهورنا في بحر من المعلومات المربكة التي ستزيد إرباكه لتجعله عاجزاً عن انتقاء المعلومات الراهنة والمستقبلية المؤثرة في مستقبله. دون أن يعني ذلك تجاهل هذه المعلومات. بل هو يعني اختصارها مع وضعها في إطارها الزمني. وإخراجها من الراهنية المربكة. ومن الثوابت البائدة نذكر:

- 1. التخوين:** الذي لم يعد له مكان بعد أن تأمرك العالم وبات تحت سيادة القرار الأميركي. وهذا واقع علينا التعامل معه بالموضوعية اللازمة. وهو يضع أصدقاء أميركا العرب أمام مسؤولية حماية الدول العربية الأخرى في وجه التحريض (الإسرائيلي) ضدها. مع العمل على إيجاد السبل إلى إرساء صيغة مصالح عربية صالحة للانخراط في لعبة المصالح العالمية. كي تكون مقدمة لمواجهة الدور الوظيفي (الإسرائيلي) في هذه اللعبة.
- 2. إرساء مفهوم الآخر العربي:** حيث نرى اتجاهات متعددة تدعو للانفتاح على الآخر (الإسرائيلي) وتتجاهل قبول الرأي الآخر العربي. حتى أن بعض هذه الجماعات تتوزع على التيارات السياسية (الإسرائيلية) مع إعلانها العداء للسافر للعرب الآخرين. وأحياناً لمواطنيهم. فهل يعني قبول الآخر أن نرفض ذاتنا؟
- 3. الخلافات العربية المزمنة:** وفي طبيعتها خلافات الحدود التي تكاد تعم بين الدول العربية كما بينها وبين جيرانها. وهذه الخلافات هي التهديد المباشر والأقرب للأمن القومي العربي. الأمر الذي يجعل حل خلافات الحدود بين العرب شرطاً أساسياً لهذا الأمن. وهي خلافات لم يعد حلها قابلاً للتأجيل. إذا أردنا تجنب استخدامها كأدوات تفجير اصطناعية مستقبلية للصراعات بين الدول العربية. وتأتي بعدها ضرورة لا تقل عنها أهمية وهي ضرورة حل نزاعات الحدود والمياه مع دول الجوار الجغرافي. واستناداً إلى نبذ التخوين فإن بعض العرب يريدون حل هذه المشاكل حتى مع (إسرائيل). ونحن لا نخونهم بل ندعوهم فقط إلى عدم تجاهل الآراء الأخرى. سواء داخل بلدانهم أم في دول عربية أخرى.
- 4. مقارعة الأساطير (الإسرائيلية):** بعد تحول المفهوم العالمي للصراع علينا أن نستعد لمواجهة (إسرائيل) على الصعيد الحضاري. بما يحول معركتنا معها إلى صراع مع الأساطير المؤسسة لها كدولة. بما يقتضي منا

عضوية كاملة في البحوث الأركيولوجية والإنثروبولوجية ومعهما مكاناً في الإعلام العالمي الجديد الذي لم تعد (إسرائيل) بقادرة على احتوائه وتقنيته.

انطلاقاً من هذه المعطيات كانت مساهمتنا في كتاب النفس المغلولة خطوة على طريق تعريف القارئ العربي بأساليب تسخير الإنثروبولوجيا الثقافية لفضح الادعاءات (الإسرائيلية) المتركمة منذ قيام الحركة الصهيونية. وكذلك للاحتياط لمحاولات الإغراق والاختراق (الإسرائيلية) التي لا تكل. حيث ظننا أن التكرار القهري للألأعيب اليهودية القديمة كفيل بفضح كافة المحاولات (الإسرائيلية). وهي المحاولات التي يجعلها خوف (إسرائيل) من السلام أكثر خطورة وعدوانية. فإذا ما اتفقنا على احترام الرأي العربي الآخر فإن قارئ كتابي يدرك انتمائي للفئة التي تعارض التسوية مع (إسرائيل). أقله لأنها عاجزة عن أدنى درجات الاعتراف بالآخر. ولنتفق مع إدوار سعيد القائل: "إما المساواة وإما لا". مع التنويه بتعجبنا أن يفترض سعيد قدرة (إسرائيل) على الاستجابة لمبدئه في المساواة!

المؤلف: د. محمد أحمد النابلسي

* * *

الفصل الأول

التحليل النفسي للشخصية اليهودية

ازدهرت دراسة الجماعات لدوافع مختلفة. ففي البداية اقتصر الأمر على الرغبة بالاطلاع على التنوع الإنساني. وكان ذلك في فترة مبكرة من تاريخ الاجتماع الإنساني. تلت ذلك فترة سيطرت فيها رغبة البحث عن عيوب ونقائص المجموعات. هذه السيطرة التي عكست تنامي حدة الصراع بين المجموعات. ولعل في سخرية الجاحظ من أهل "مرو" وبخلهم دليلاً على ذلك كما تدل على قدم الاهتمام بدراسة الجماعات وخصائصها المشتركة المميزة.

مهما يكن فإن البداية العلمية للبحث في هذا الموضوع يؤرخ لها بصدور كتاب "نماذج من الثقافة" الذي أصدرته الباحثة بينيديكت عام 1943 وفيه خلصت إلى التأكيد على أن الثقافات التي درستها دمغت شخصيات الأفراد المنتمين إليها. وهذا التأريخ يصح في حال الحديث عن الأنثروبولوجيا الثقافية. إلا أن التطورات اللاحقة حولت دراسة الجماعات والشعوب إلى موضوع توظيف سياسي. وكان ذلك بمناسبة الحرب العالمية الثانية. وهي كانت عالمية بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة. سواء بالمشاركة كطرف أو كمسرح للمعارك أو بالتأييد العلني أو الضمني. وبما أن هذا الفرع قد شهد بدايته في الولايات المتحدة التي لم تنخرط في الحرب إلا عام 1941 فقد كان من الطبيعي أن تحتضن هذه الدراسات. يضاف إلى ذلك هجرة علماء النفس الأوروبيين إليها هرباً من الحرب وأيضاً الطابع الانفتاحي الأميركي الباحث عن الدراية لا عن الجزء المسمى بالمعرفة منها. وهذا سبب السباقات التي تمكن هذا البلد من تحقيقها.

مما تقدم نلاحظ تشعب الموضوع واختلاف منطلقاته البحثية بما يضيق المجال بنا لعرضه. لذا فضل الدخول إلى موضوعنا وهو التحليل النفسي للشخصية اليهودية.

1 - بين اليهودية والإسرائيلية:

إن الحديث عن شخصية إسرائيلية يصطدم بجملة مخالقات للمنطق العلمي. ذلك أن المجتمع الإسرائيلي هو خليط من مجموعة متنوعة من الثقافات. وهو مجتمع مهاجرين بمعنى أنه ممكن التقسيم بحسب تاريخ الهجرة إليه. حيث نبدأ من طائفة السابرا وهم المولدون في فلسطين ومنتهي بطائفة اليهود الروس وبعضهم لم يمض عام واحد بعد على قدومهم إلى (إسرائيل). ومع أننا لا نريد الخوض في مسألة صراع الهوية الإسرائيلية إلا أننا مضطرون للإشارة إلى انعدام وجود هوية جامعة لهذا المجتمع. أو أقله عدم توصل (الإسرائيليين) للاتفاق على هوية موحدة لمجتمعهم. وهذا ما يدعوننا إلى تسمية (إسرائيل) بـ: اتحاد الحارات اليهودية. فقد ترك اليهود حاراتهم في بلدانهم وجاؤوا كي يعيدوا إقامتها في (إسرائيل). حيث نجد أن لكل حارة لغتها الخاصة - والحارة القوية تصدر صحفها بهذه اللغة وليس بالعبرية - ونجد أن لها أيضاً أحزابها ومؤسساتها الاجتماعية الخاصة. ولو

أخذنا المهاجرين الروس مثلاً لوجدنا أن تلميهم مشكوك بيهوديتهم. ولوجدنا أن صراعهم مع المتشددين قد بلغ حدود استعمال قنابل المولوتوف. ولوجدنا في المقابل أن لديهم حزبين ممثلين في الكنيست وأن حجم هذا التمثيل في تزايد مستمر منذ بداية هجرتهم وحتى اليوم. فإذا ما نظرنا إلى خصائصهم الجمعية وجدنا أنهم يشكلون نماذج صادقة للشخصية الروسية.

أما عن اليهود العرب فإن النكتة (الإسرائيلية) تقول إن أجنبياً سأل أشكيناياً: ما هو سر كراهيتكم العميقة للعرب؟ أجاب الأشكيناوي: لأنهم يشبهون اليهود العرب!

فإذا ما نحينا جانباً البعد الأيديولوجي الرافض مبدئياً لفكرة التسليم بوجود قومية إسرائيلية (تدعمه في ذلك الأسباب المبينة أعلاه) فإن محاولة التورط في دراسة شخصية (إسرائيلية) تأتي مخالفة لكل قواعد البحث العلمي. حيث تقوم الدراسة على البحث في الخصائص العامة المشتركة لدى الجماعة ومن ثم يتم البحث في العناصر الثقافية التي استعارتها هذه الجماعة. وهذا غير ممكن التطبيق في الحالة (الإسرائيلية) حيث العنصر الثقافي الوحيد الجامع هو اليهودية. بل إن هذا العنصر نفسه هو موضوع جدل مستمر. فالشكوك تطال يهودية 90% من يهود العالم. حتى أن علمانيي (إسرائيل) يحاولون علمنة الديانة كي تتسع لعضوية أعضاء جدد يدعمون المشروع الصهيوني العلماني.

لهذه الأسباب مجتمعة نجد من المستحيل رصد ما يمكن تسميته بالشخصية (الإسرائيلية) مما يجبرنا على العودة إلى دراسة الشخصية اليهودية حيث سمات هذه الشخصية قد تكون القاسم المشترك الوحيد بين يهود (إسرائيل). وحتى في حال ورود مصطلح الشخصية (الإسرائيلية) فإننا ننصح القارئ وبناء على ما تقدم بترجمة المصطلح إلى يهودية بدلاً من (إسرائيلية).

2 - الدراسات السابقة:

افتتح فرويد هذه الدراسات في كتابه المعنون "الطوطم والمحرم" (1)، الذي استند فيه إلى الإنثروبولوجي فريزر. إلا أن تطرقه لتحليل الشخصية اليهودية تأخر لغاية (1914) عندما نشر مقالته "موسى ومايكل أنجلو" التي نشرها دون توقيع. ثم نشر بعدها الجزأين الأول والثاني من كتابه "موسى والتوحيد" عام 1937، أما القسم الثالث والأخير فنشره عام 1939، حيث قدّم في هذا الكتاب تحليلات عميقة للشخصية اليهودية (2). وإن كان بعضهم يرد دافع تأليفه لهذا الكتاب إلى محاولته التوحد بشخصية موسى.

اللافت في هذا الكتاب هو إصرار فرويد على انتزاع موسى من اليهود في الوقت الذي يتعرضون فيه لملاحقة النازي؟ وهم قد أعطوا جملة إجابات لا يمكن اعتبار أحداها مقنعاً! فإذا ما نظرنا إلى هذا الانتزاع على ضوء المعارف السيكاثرية الراهنة وجدنا أن هذا النكران هو مظهر تفككي (Dissociativ). فإذا ما راعينا رغبة التوحد لدى فرويد أمكننا الاستنتاج بأن فرويد كان يعاني في هذه الفترة من هذا التفكك. وهذا تحديداً ما يجعله أقدر على تبيان عيوب الشخصية اليهودية المرفوضة من قبله. وهو رفض يمكن رده إلى الجرح النرجسي الذي أصابه لاضطراره، بسبب يهوديته، للهرب من فيينا إلى لندن.

ونؤجل عرض آراء فرويد في الشخصية اليهودية لنذكر أن بعض أتباعه من المحللين حذا حذوه لجهة توظيف التحليل في الدراسات الأنثروبولوجية. ومن هؤلاء نذكر يونغ الذي عني بدراسة الأساطير ونشر كتاب "الإله اليهودي" وإبراهام وريخلن وروهايم. ونسجل لهذا الأخير ملاحظة قيمة إذ يقول: "... ينبغي أن يكون للطابع القومي كينونة ثابتة عبر الأجيال. تركز على تكرار نفس الموقف الطفولي" (3).

وإذا كنا في مجال استعراض الكتابات السابقة حول الموضوع فلا بد لنا من التوقف عند محطتين هامتين. الأولى مقالة للمرحوم مصطفى زيور بعنوان: "أضواء على المجتمع الإسرائيلي - دراسة في التحليل النفسي". (منشورة في الأهرام بتاريخ 1968/8/8) كما نتوقف عند مجموعة دراسات البروفسور قدرى حنفي. التي بدأها برسالة جامعية بعنوان "الشخصية الإسرائيلية - الأشكنازيم". ولنا عودة إلى هذه الدراسات.

3 - فرويد يحلل الشخصية اليهودية:

توخياً للاختصار سنحاول إيجاز التحليل الفرويدي للشخصية اليهودية بنقاط محددة نختصرها كما يلي:
أ - إن الرواية اليهودية لقصة موسى لا تنسجم ومنطق الأمور. فالأصح هو أن يكون الفرعون قد حلم أن ابن ابنته سيكون خطراً عليه لذلك أمر بإلقائه في النيل فوجده اليهود وتعهدوا تربيته. وليس العكس كما تقول الرواية اليهودية. بذلك يكون فرويد من أوائل المشككين بالروايات التوراتية. وهو يدعم آراءه ببحوث مؤرخين جدد (لاحظ أن هذا المصطلح ليس جديداً كما يدعي المؤرخون الإسرائيليون الجدد) من أمثال ج. ه. بريستد وماير وغيرهم.

ب - الرواية السابقة تؤكد مصرية موسى لا عبرانيته. ويقول فرويد إن ذلك يجب ألا يكون مدعاة للاستغراب فنابليون مثلاً لم يكن فرنسياً! إلا أن نفي فرويد ليهودية موسى يعني نفي أسطورة الشعب المختار ليهوديته.

ج - يتهم فرويد اليهود بقتل موسى/ المصري/ لأن العبرانيين لم يستطيعوا الارتقاء إلى مستوى الروحانية التي يتضمنها دين موسى. وهو يدعم هذا الرأي بالاستشهاد بكتابات المؤرخ اليهودي أ. سيلن.

ح - إن فرويد لا يشكك فقط بالتراث اليهودي بل هو يشكك أيضاً بالتوراة نفسها إذ يقول: "... إن النص التوراتي الذي بين أيدينا يحتوي على معلومات تاريخية مفيدة بل لا تقدر بثمن. لكن هذه المعطيات تم تحريفها بفعل مؤثرات مغرضة قوية. كما تم تجميلها شعرياً". وبهذا يؤسس فرويد لمعارضة قراءة التاريخ انطلاقاً من المرويات التوراتية. وهو يدعم رأيه هذا بتباعد الفترات الزمنية لتدوين أجزاء التوراة الذي لم يكتمل إلا بعد ظهور موسى بتسعة قرون!

4 - زيور يحلل الشخصية اليهودية:

ركز زيور في تحليله لهذه الشخصية على انقلابها من الاستكانة والذل والاختناق في الغيتوات (حارات اليهود) وبين تحولها إلى الشراسة والإرهاب عبر عصابات شتى وأرغون والهاغاناه وغيرها. ومن ثم عبر اتحاد هذه العصابات لتأليف جيش الدفاع (الإسرائيلي). وهكذا تمحور بحثه حول إيجاد التعليل لهذا التحول. لذلك رأى زيور في تجربة الأسر النازي صدمة نفسية شجعت آلية توحد اليهودي بالجلاد النازي. وأورد دراسات تناولت الناجين

من الأسر تبين معاناتهم من مظاهر مرضية مثل: النقص في الحس الاجتماعي والأخلاقي الذي يعبر عنه بنوع من الحذر التوجسي (الشك) وثيق الصلة بتوجس مرضى البارانويا. وكان هؤلاء الناجون، إذا ما أتحت لهم حرية التعبير عن عدوانيتهم، يصلون إلى درجة الاندفاعات العدوانية المتوحشة. ويؤكد مينكوفيسكي هذه الوقائع لكنه يتبعها بالقول: "... قد يكون الأمر انخفاضاً في المستوى الأخلاقي. لكن يجب الحذر في استخدام الألفاظ... وعلى أية حال فإن المستقبل لا يبدو بالضرورة ميئوساً منه فقد استطاع الكثير من أطفال بوخفالد أن يستعيدوا بعض الاتزان وخاصة في إسرائيل".

ويعترض زيور على هذا التفسير الاعتباري لمينكوفيسكي فيرى أن هذا الاتزان الظاهر إن هو إلا تنظيم جديد للتوحد بالمعتدي (أي مجرد تغيير في اتجاه العدوانية). فقد استنسخ اليهود سلوك النازي في مذبح دير ياسين وغيرها. ويعطي زيور مثال مناحيم بيغن الذي اكتملت فيه معالم شخصية السفاح ليكون أبرز أمثلة التوحد بالمعتدي النازي، أما موشيه دايان فهو خير متقمص للعسكرية النازية. ولا يقصر زيور آلية التوحد بالمعتدي على خريجي المعتقلات النازية. بل هو يرى أن هذه الآلية قد انتشرت كالوباء بين اليهود عبر التعاطف مع الضحايا اليهود.

وينهي زيور تحليله بالتقرير بأن ما يجمع بين التجمعات اليهودية الإسرائيلية بالرغم من اختلافها في كل شيء إنما يتلخص بهذا التوحد بالمعتدي الذي أتاح لليهود التحول من المذلة إلى الطغيان ومن الخنوع إلى السفاحية. لذلك يستنتج المحلل الحاجة الإسرائيلية - النفسية لممارسة العدوان. فشخصية المتوحد بالمعتدي تفقد تماسكها إن هي توقفت عن العدوان. لأنه يطمئنها مانعاً تفجر موجات القلق والرعب فيها. وكأن لسان حالها يقول ما دمت أنا المعتدي فلا خوف علي من الارتداد إلى ما كنت عليه: يهودياً تائهاً رعيدياً يفتك به الناس في كل مكان. من هنا يمكن استنتاج هشاشة الشخصية الإسرائيلية. وعدم قدرتها على تحمل أي إحباط. كون الإحباط يصيب هذه الشخصية بالتهوي والتفكك مهدداً بزوال الهوية الزائفة. لذلك فإن القادة (الإسرائيليين) مجبرون على تأمين أفضل مستويات الروح المعنوية ليهودهم (4).

4 - حفي يدرس شخصية الأشكينازي:

تناول حفي موضوعه من منطلق سيكولوجي معتمداً على الدراسات النفسية المنشورة حول التجمع الإسرائيلي/ الأشكينازي. ومعتمداً المحاور البحثية التالية: 1- الاضطرابات الطفلية، 2- القدرات العقلية، 3- الاضطرابات السلوكية، 4- العدوانية، 5- الانطوائية والتمركز حول الذات، 6- التشاؤم والتشكك، 7- انعدام الانفعال.

هذا وتكاد البحوث تتفق على عدم وجود فوارق ذات دلالة لدى أفراد هذا التجمع في معظم هذه المحاور. إذ يتركز الاختلاف حول المحاور السلبية وحدها وهي: العدوان والانطواء والشك والتمركز حول الذات والتشاؤم والتشكك والانفعال. وهذه الصفات السلبية يمكنها أن تفسر اضطراب الشخصية الأشكينازية وفشلها في الانفتاح حتى على

بقية اليهود (الإسرائيليين). إن الجهد الذي بذله البروفسور حفني في هذه الدراسة ساهم في إثارة الإشكالية وأدكى شجاعة مواجهة حقيقة الجماعات التي تعادينا. وهو أسس بذلك لقائمة من الدراسات الهامة في المجال.

5 - تحليل الشخصية اليهودية:

لو راجعنا توضيحات فرويد وإشارات الصريحة للبارانويا اليهودية منذ ادعاء كون اليهود الشعب المختار للإله لوجدنا أن اليهود لم يكونوا بحاجة إلى النازي كي يتحولوا إلى البارانويا (جنون العظمة). وعليه فإن الأسر النازي لم يفعل سوى إيقاظ البارانويا اليهودية الكامنة والمكبوتة في ذل الشتات اليهودي والمقنعة بمظاهر الخنوع. ومع أننا لا ننكر آلية التوحد بالمعتدي التي ركز عليها أستاذ الأساتذة العرب (مصطفى زيور) إلا أننا نريد التذكير بأن تكرار المذابح اليهودية عبر التاريخ لم يكن من قبيل الصدفة. وهذا يردنا إلى مقولة روهايم: ينبغي أن يكون للطابع القومي كينونة ثابتة عبر الأجيال تركز على تكرار نفس الموقف الطفلي. حيث يمكننا اعتبار تكرار المذابح اليهودية مرتبطاً بهذا الموقف الطفلي. وهو الموقف المعتاد لمريض البارانويا حيث يجيد البدء من موقف الخنوع ثم يعمد إلى تعزيز موقعه تدريجياً حتى يصل إلى الموقع الذي يتلاءم مع تصور المرضي. واجتياز هذه المراحل لا يمكنه أن يتم بدون تسخير كل أساليب الخداع الممكنة. لكن اليهودي يصر على الاستمرار في هذا الموقع المغتصب وهو يملك إيمان مرضى البارانويا بأن هذا الموقع هو حق من حقوقه فلا يتراجع عنه. لأن البارانويا تمنعه من مراجعة أساليبه الخاطئة بصورة موضوعية. ومن هنا إصراره على الموقع وعدم ملكيته لمرونة التراجع عند الحاجة فينتهي الأمر بذبحه. وسنعرض بالتفصيل للنمط السلوكي اليهودي، المفسر لتكرار المذابح اليهودية عبر التاريخ، في الفصول اللاحقة (5).

غاية القول أن التوحد بالنازي ليس سوى حلقة من حلقات البارانويا اليهودية. وبذلك يشهد التاريخ اليهودي. وعليه فإني أسمح لنفسي بمعارضة زيور في نقطة ثانية من تحليله فهو يقول ما نصه: "... لست أزع أن الإسرائيليين هم طغمة من مرضى النفس، إن مثل هذا القول تنبؤ عنه الأمانة العلمية، ويعتبر انزلاقاً وراء التحقيق الوهمي للرجبات...".

من جهتنا فإننا نتبنى هذا الزعم لأنه حقيقة نربأ بها عن أن تكون تحقيقاً وهمياً للرجبات. ولهذه الحقيقة أسانيدنا التي لا تقبل الدحض. لذلك آثرنا عرض بعضها قبل أن نعرض لتحليلنا الشخصي للذات اليهودية. ومن هذه الأسانيد نذكر التالية:

أ - تشير دراسة الباحث اليهودي (هالفي) التي يذكرها زيور إلى ارتفاع نسب الإصابة بالشيذوفرنانيا (الفصام) بين اليهود وسكان الكيبوتزات منهم بشكل خاص. وإن كنا لا نؤمن بأن لمكان السكن علاقة بهذا المرض.

ب - تشير دراسة الباحث "كينيون" (6) إلى أن اليهود هم الأكثر عرضة للإصابة بهجاس المرض (الهيبوكونديريا الذي يستند إلى اضطراب شخصية من نوع البارانويا).

ج - إن المراجعة التاريخية للمذابح اليهودية تبين أن الجمهور المتأذي من اليهود هو الذي يشجع على المذبحة. بل أنه غالباً ما ينفذها بيده على غرار ما سمي بـ"ليلة الكريستال".

د - إن انغلاق اليهود في حاراتهم على مدى العصور هو عنصر تشخيصي من الدرجة الأولى لتصنيفهم في خانة البارانونيا (7).

هـ - إن قدرة اليهودي على خيانة البلد الذي يحتضنه ويعطيه جنسيته ومواطنيته لصالح (إسرائيل) لهي دليل على فقدان اليهودي للحس الاجتماعي والأخلاقي (8).

و - إن رغبة اليهودي في الخلاص من الحماية الخائفة للغيتو هو الذي دفع، ويدفع، بعشرات الملايين من اليهود للذوبان في المجتمعات الأخرى. فبدون هذه الرغبة بالخلاص لكان عدد اليهود المعاصرين عشرات أضعاف عددهم الراهن (9).

ز - إن احتقار الأغيار (الشعوب غير اليهودية) هو من التعاليم التلمودية الأساسية غير القابلة للنكران أو التمويه (10).

ح - إن المبدأ الأساسي للعلاج السلوكي - المعرفي، يركز على الأزمات التي يتعرض لها الشخص تكراراً لاعتباره أن لهذا التكرار سبباً ما كامن في الشخص نفسه وليس في الآخرين. فهل نطبق هذا المبدأ على الشخصية اليهودية؟ (11).

ونكتفي بهذا القدر من الأسانيد لننتقل إلى عرض تحليلنا لنمط التربية اليهودية من وجهة تحليلية.

6 - نمط التربية اليهودية وتحليله (12):

يعيش الطفل اليهودي أجواء أسرية مليئة بالأساطير والبطولات والتراث المتعالي على الآخر. لكنه وعندما يخرج من الأجواء السامية يجد نفسه محتقراً على عكس إحياءات التفوق التي أمده بها الغيتو. وهذا التناقض يولد نوعاً من التمرد النرجسي الذي يدفع الطفل، لاحقاً البالغ، اليهودي إلى خوض المنافسات العنيفة إثباتاً لذاته وانتصاراً لإحياءات تربيته. في هذه المنافسات (الصراعات) ينظر اليهودي إلى اليهود الآخرين بوصفهم شركاء في المعاناة. وتمكن ملاحظة هذه القدرة التنافسية لدى أطفال اليهود من خلال المنافسة الدراسية. التي تتحول إلى ميدان للصراع وإثبات الذات لدى الأطفال اليهود. وذلك بحيث تحولت المدارس اليهودية - الإليانس مثلاً، والجامعات مثلاً هارفرد - إلى رمز للتفوق الدراسي.

ولو نحن قرأنا هذه المنافسة على ضوء التحليل النفسي لتبين لنا أن الطفل اليهودي الذليل في المجتمع يحاول الدفاع عن "هوية الأنا" لديه. وهو لا يجد، ولا يقبل وفق تربيته، دفاعاً محايداً عن هذه الهوية. لذلك فهو ينخرط في هجوم عدواني مقنع (مستتر) على المجتمع الذي يحتقره. واستناداً إلى التراث اليهودي (الذي ربي الطفل على أساسه) فإن أقصر السبل وأهونها هو جمع قدر أكبر من المال. إذ أن للمال سلطة موازية تمكن صاحبه من اختراق سلطة المجتمع. أما بالنسبة للطفل فإن العلامات الدراسية هي بديل المال وهي المساعدة له للحصول على الاعتراف وبالتالي للتمرد على الاحتقار. وسواء تعلق الأمر بالمال أو ببداثة الرمزية فإن اليهود يسلكون سلوك جمع المال بغض النظر عن أسلوب هذا الجمع وعن أخلاقية هذا الأسلوب. تدعمهم في ذلك أسطورة دينية تقول إن كل أموال الأرض هي ملك لليهود. فإذا ما خرج بعض اليهود على قاعدة تجميع الأموال فهم يفعلون ذلك

لتحقيق سيطرة وسلطة بديلة عن سلطة المال. على هذا الأساس يمكننا الاستنتاج بأن محركات الطموح اليهودي هي محركات عصابية واضحة. وهذا ما تمكن ملاحظته عند فرويد ذاته.

7 - الأساطير المحددة لشخصية اليهودي:

يمثل الإيمان اليهودي عنصر الارتباط الوحيد بين اليهود المعاصرين. وذلك بغض النظر عما إذا كان هذا الإيمان يقتصر على التبرع لـ(إسرائيل) (بوصفها تجمع شعب الله المختار) أم كان يصل إلى حدود التمسك المتشدد بتعاليم التلمود. فإذا كان البعض لا يستسيغ مصطلح الإيمان بحجة وجود ملحدين يهود فلا بأس من استخدام مصطلح التراث اليهودي كبديل. حيث نجد غلاة المتشددين يعترفون بفضل اليهود العلمانيين والملحدون في دعم (إسرائيل) خلال أزمتها في حرب يوم الغفران. وأقله نجد قبولهم تهويد كل من ولد لأم يهودية مهما يكن ماضيه وممارساته السابقة. وإذا كنا نتناول الموضوع من وجهة تحليلية فإن علينا ألا نهمل مسألة الموت وهو منبع القلق الأساسي للإنسانية. ولا شك بأن الاعتقاد بالانتماء إلى الشعب المختار من قبل الرب يعطي شعوراً بالأمان تجاه قلق الموت. وذلك بغض النظر عن مستوى وعي الشخص لمثل هذا الشعور. وعليه فإن التعاليم اليهودية هي المحدد الرئيسي للأطر العامة للشخصية اليهودية. خصوصاً وأن اليهودية هي ديانة تحدد بدقة أطر الحياة اليومية لمعتنقيها وتضع القواعد الصارمة للسلوك اليومي للمؤمن.

ولنبداً بمقطع من سفر الخروج (التوراة) وفيه: "وعندما ترحل لن تكون فارغ اليدين، بل إن كل امرأة سوف تقترض من جارتها، ومن تلك التي تقيم في بيتها جواهر من الفضة وجواهر من الذهب وأثواباً، وسوف تضعها على أجساد أبنائك وبناتك، ولسوف تسلب المصريين" (سفر الخروج 22:403).

وهذا المقطع يعكس سمة من السمات الرئيسية للشخصية اليهودية حيث تبرز نزعة التخصيص بحيث يكون اليهودي مسؤولاً أمام الإله عن الأذى الذي يلحقه باليهود الآخرين. لكن بإمكانه أن يغش أو يسرق أو حتى يقتل غير اليهود دون أن يكون مسؤولاً أمام الرب ودون أن يعتبر ذلك انتهاكاً لتعاليم الدين. وتترجم (إسرائيل) ذلك عملياً بتأمينها للجوء والحماية لليهود الفارين من وجه العدالة في الدول الأخرى بما فيها الولايات المتحدة نفسها. لكن النزعة اليهودية التخصيصية تتبدى بوضوح أكبر في التلمود الذي كتبه أحبار اليهود ليجعلوه دستور الحياة اليومية لليهود. ففي التلمود نجد النزعة المادية - النفعية أكثر بروزاً ووضوحاً ومنه نقطف مثلاً: يكرم الفقير لمهارته والغني لثروته... الذهب والفضة يمكنان القدم من الثبات... الثروة والقوة يفرحان القلب... الموت أفضل من التسول... سبع صفات تلائم الأخيار ومنها الثروة... حين يقوم الإنسان بالصلاة عليه أن يتوجه في صلاته لصاحب الثروة والممتلكات لأنهما لا يتأنيان من العمل وإنما من الفضيلة... إن الخيرين يحبون أموالهم أكثر من أجسادهم... في وقت الشدة يتعلم الإنسان قيمة الثروة...

واستناداً إلى التوراة يقول نوبسندر (أستاذ اللاهوت اليهودي في جامعة بارد الأميركية): إن المملكة التي تهم اليهودي ليست قائمة في السماء ولكنها تلك التي نتواجد فيها الآن. والتي تتطلب حفظ الحياة وتقديسها وتقديس

حياة البيت والعائلة. إنها الحياة القائمة في الحاضر. إنها هنا والآن في حياة الجماعة والمجتمع... لذلك فإن اليهود لم يكونوا يوماً قديسين جائعين أو متقشفين لا يغتسلون، إنهم يقبلون على طيبات الحياة بحماس... من جهته يعتبر ماكس فيبر أن موقف اليهود من فكرة العالم الآخر هو الذي حولهم للإقبال على عالم المال والأعمال وصرفهم عن ركوب موجات الزهد. مما حولهم إلى أقلية متخصصة في التجارة والربا والصيرفة (ثم لاحقاً في البورصات).

وهذا النمط الفكري - الحياتي أعطى اليهود خصوصية تأسست عليها طبقة اجتماعية - وظيفية منسجمة مع وعي اليهودي لخصوصيته الدينية. وهذا ما جعل اليهود المعاصرين غير قابلين للذوبان في المجتمعات التي عاشوا فيها. ويرى العديد من الباحثين أن التعاليم اليهودية التي تمنع امتلاك الأرض والعمل في الزراعة قد لعبت دورها في منع الانصهار اليهودي.

ونعود إلى نوبسنر الذي يقدم تفسيراً لسؤال محير يتعلق بالموقف اليهودي من مفهوم الدين إذ يقول: ... إننا نعلم من التاريخ اليهودي بأنه عندما يتضارب الدين مع المصالح الاقتصادية فإن الغلبة تكون للمصالح وليس للدين. وهذا يقودنا لاكتشاف الدور الوظيفي للغيتو إذ إنه كان ضرورة للمحافظة على هذه الطبقة التي شكلها اليهود بتقديمهم المادي على الحسي وبعدم استعدادهم للمخاطرة بمصالحهم أيًا كانت الأسباب والظروف. حتى يمكن التأكيد على استحالة استمرارية اللاوعي اليهودي الجمعي بدون الغيتو. فإليه يرجع الفضل في حماية اليهود من تأثير العناصر الثقافية الخاصة بمجتمعات الشتاتهم. وهذا ما يفسر إصرار (إسرائيل) على الاعتزال وإصرار مجموعاتها على حاراتها الخاصة. كما أنه يفسر خوف اليهودي العادي من السلام ومن الذوبان في المحيط. نهاية هل يمكن للتحليل النفسي أن يقدم لنا تفسيراً موجزاً لشخصية هذه ملامحها؟ وهل تبقى مقولة روهام حول تكرار الموقف الطفولي ذات قيمة ودلالة؟ جوابنا هو نعم وباختصار فإن اليهودي يجد "هوية الأنا" داخل الغيتو ويفقدها خارجه. فيلجأ للتمرد النرجسي - العدوانية لمغالبة قلقه من تفكك "هوية الأنا". وذلك بحيث يصبح كل ما هو خارج الغيتو (وبالتالي كل ما هو غير يهودي) موضوعاً سيئاً ومهدداً. ومحاربة اليهودي للمواضيع السيئة غير محدودة بأية حدود. فمسؤوليته أمام الإله تقتصر على الأذى الذي يلحقه باليهود وبالتالي فإن هذه المسؤولية لا تمتد إلى المواضيع السيئة كونها غير يهودية.

كما أن جواز تقديم المصلحة على الدين يجعلنا نفهم استمرار قبول الملحدين، والمتحولين إلى أديان أخرى، من اليهود. وهذا ما يبرز من جديد "نعمة الولادة اليهودية" ويجعلها القدسية شبه الوحيدة في الديانة اليهودية. أما عن السلوك السياسي للشخصية اليهودية وانعكاس هذه السمات على السياسة الإسرائيلية فنؤجله إلى الفصول التالية.

هوامش ومراجع الفصل الأول

- 1 - سيغموند فرويد: "الطوغم والمحرم" صدر بالألمانية عام 1913 وترجمته منشورات بايو الى الفرنسية عام 1965 وله عدة ترجمات عربية منها دار الطليعة العام 1983
- 2 - سيغموند فرويد: "موسى والتوحيد" تم نشره بالألمانية عام 1939 ثم ترجم إلى عدة لغات ومنها العربية بطبعات مختلفة. ومنها طبعة دار الطليعة.
- 3 - 'N Y' International University press'oheim G: Psychoanalysis and Anthropology - 3 1950
- 4 - بناء على هذه الهشاشة وعدم القدرة على تحمل الإحباطات تقوم (إسرائيل) باعتداءات دورية غير ذات هدف محدد سوى دعم مشاعر القدرة على العدوان وإثباتها.
- 5 - انظر فصل سيكولوجية الخداع اليهودي على سبيل المثال.
- 6 - مجموعة من الباحثين: "سيكولوجية الهيستيريا والوساوس المرضية"، دار النهضة العربية - بيروت 1990.
- 7 - سيغموند فرويد: حالة الرئيس شريبر.
- 8 - تتدرج في هذا الإطار سلسلة طويلة من العمليات التجسسية التي قام بها يهود أميركيون لصالح (إسرائيل). وبعضها كان شديد الوطأة على الولايات المتحدة.
- 9 - عبد الوهاب المسيري: "موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية"، دار الشروق، القاهرة، 1999.
- 10 - سنورد لاحقاً في هذا الفصل والفصول التالية بعضاً من المقاطع التلمودية التي تشير إلى هذا الاحتقار.
- 11 - يعتمد هذا المبدأ في كافة مذاهب العلاج المعرفي.
- 12 - تمكن مراجعة مبادئ التربية في الغيتو اليهودي (بغض النظر عن البلد) والمنطلقات التلمودية المحددة لهذه التربية الهادفة إلى ترسيخ بارانويا الاضطهاد ومشاعر العظمة المرضية.

* * *

الفصل الثاني

سيكولوجية الخداع اليهودي (1)

شائعة التطبيع نموذجاً

بعض العرب يقيمون علاقات من نوع ما مع (إسرائيل) وبعضهم مدعو لإقامة مثل هذه العلاقات، أما البقية من العرب فهي مدعوة لتسوية مشروطة لإقامة مثل هذه العلاقات.

على المستوى الأكاديمي لا توجد خانات خاصة بتسجيل المواقف السياسية الشخصية. فهذا التسجيل ينتمي إلى المستوى السياسي. لذلك فإن تناول الأكاديمي لهذه العلاقات يقتصر على مجالات تحليلها ومحاولة استقرارها على ضوء التجارب التاريخية وأيضاً التبصر بدينامية هذه العلاقات ومحاولة استنباط مستقبلها.

انطلاقاً من هذا الالتزام نجد أن بداية التحليل يجب أن تستند إلى نظرية الاستقراء التاريخي لعلاقة اليهود بالآخر وتبين السمات السلوكية والشخصية الجمعية - اليهودية. التي قادت هذه العلاقة وتحكمت فيها عبر التاريخ وعبر الأمكنة. حيث نجد أن الذل والخنوع هما الطابع الأساسي المميز للشخصية اليهودية عبر قرون، ثم جاءت المذابح النازية لتعلن أن الأرض لا تتسع لليهود حتى ولو قبلوا عيشة الخنوع والذل. وذلك بسبب ميلهم الفطري للتآمر والخيانة والاحتلال. حتى أنك لتتساءل كيف أتيح لهذا (الشعب) الدليل أن يتحول من وضعية الضحية إلى وضعية الجلاد. وممارسته لوظيفة الجلاد دون أدنى رحمة؟ (2)

البعض يعتبر ذلك نوعاً من قيام الضحية بتقليد جلادها، والبعض يعتقد أنها محاولة انتقام تعويضية تجعل الضحية عاجزة عن امتلاك مشاعر الأمان ما لم تمارس العدوان. ومهما يكن فإننا وباختصار شديد يمكننا تحديد النمط السلوكي اليهودي ومتغيراته عبر مراحل محددة نشرحها في الفقرة التالية:

1 - النمط السلوكي اليهودي:

إن المتابعة التاريخية لعلاقة اليهود مع الأمم الأخرى تقودنا إلى تقسيم هذه العلاقات إلى مراحل زمنية لها طابع التكرار القهري (compulsive) وهذه المراحل هي:

أ - المرحلة الأولى: وخلالها يحسن اليهود عرض خدماتهم وإبراز المكاسب التي تمكنهم مساعدة الآخر على تحقيقها، مع التلميح لاحتكارهم للفرص ولملكيتهم لأفضلها. وفي هذا التصرف سلوك غواية وإغراء ملحوظ بوضوح حتى في إطار العلاقات الشخصية لليهودي، وبطبيعة الحال فإن الآخر إذا قبل الإغراء فإنه سيقبل معه تسديد بدل هذا الإغراء والخدمات المرافقة له (3).

وأسلوب الصد والرفض غالباً ما يفشل لأن اليهودي لا ييأس من تكرار المحاولة ولا يعتمد سلوك الحرد (الاحتجاجي) لأنه يدرك أن هذه هي وسيلته الوحيدة لإقامة علاقة مع الآخر. فإقامة علاقة طبيعية، وغير إغوائية

وتأمريّة مع الآخر يعني الاعتراف به أي بالأغيار (الغوييم)، وهذا يخالف النواميس اليهودية. كما أن التجربة اليهودية تشير إلى أن إقامة علاقة طبيعية مع الآخر تفقد اليهودي مناعته العنصرية وتدفعه للذوبان بالآخر. وبناء عليه فإن العلاقة الطبيعية مع الآخر مرفوضة بصورة مبدئية ومستبدلة حكماً بعلاقة تواطؤ - تأمر (4).

والموضوعية التاريخية هنا تفرض علينا تبيان واقعية ذوبان معظم اليهود في علاقات طبيعية مما يعني خروج معظم اليهود من اليهودية إلى أديان ومعتقدات أخرى. ولهذا السبب فإن الأعداد الباقية من يهود العالم هي أعداد ضئيلة بالمقارنة مع الأعداد المفترضة لولا الذوبان اليهودي، (راجع موسوعة عبد الوهاب المسيري بهذا الشأن).

ب - المرحلة الثانية: وهي مرحلة الالتفاف حيث يدخل اليهود في مساومة مستمرة مع الآخرين بهدف زيادة حصتهم وتحسين مكاسبهم. وتحول هذه المساومة بصورة تدريجية إلى الابتزاز. ويكشف اليهود قناعهم ليبدأوا بممارسة لعبة السيد والعبد (انطلاقاً من قناعتهم بكونهم شعب الله المختار) وتتكشف للآخر الحقيقة غير الطبيعية للعلاقة. في حين يمنع التورط من وضع الحدود لها. لكن ذلك لا يمنع انتظاره للحظة المناسبة للخلاص من هذه العلاقة - الورطة.

ج - المرحلة الثالثة: وهي مرحلة انتهاء العلاقة، ونهايات علاقات اليهود مع الآخر، على اختلاف سيناريوهاتها، هي نهايات غير طبيعية تثبت عدم طبيعية العلاقة بمختلف مراحلها.

وهذا النمط السلوكي لا ينطبق فقط على الجماعات اليهودية بل هو ينطبق على الأفراد (بما يدعم هذا التشخيص ويجعله غير قابل للنقاش) وحسبنا التذكير في هذا المجال بصورة المرابي وهي صورة شديدة الواقعية للشخصية اليهودية عبر تاريخها.

وعليه يمكننا أن نقترح هذا النمط السلوكي كهيكلية للعصاب اليهودي الجماعي وهو عصاب يقدم التفسير المنطقي (يعقل) للمذابح اليهودية المتتالية عبر التاريخ اليهودي.

2 - شائعة اسمها "التطبيع":

تعتمد نظرية الاستقراء التاريخي، لدى تطبيقها في مجال المستقبلات. على مبدأ الراهنية، الذي يقتضي أخذ متغيرات الراهن في الحسبان للوصول إلى توقع أكثر دقة حول الطريقة أو النمط الذي سيتكرر الحدث عبره. ولعل أبرز المتغيرات الراهنة هي أن اليهود لم يعودوا أقليات تحتجز نفسها في حارة اليهود (الغيتو) بحيث تتوزع مصالحتها بحسب أجواء وظروف المجتمعات التي تقع فيها الحارة. فقد تجمعت هذه الأقليات في دولة دعيت (إسرائيل). وبالتالي فإن الراهن مختلف عن الماضي في نواح عديدة، أهمها أن يهود (إسرائيل) باتوا يملكون قوة عملية لمواجهة عقدة المذبحة. فتطور هذه العقدة وأمراضيتها الخطرة جعلتنا اليهود لا يكتفون بملكية القوة، والمبالغة في أدواتها، بل تخطوا ذلك إلى سلوك عدواني قهري يجعلهم عاجزين عن الشعور بالأمان ما لم يؤكدوا قدرتهم على الاعتداء على الآخر.

من هنا كانت القيادة الإسرائيلية مجبرة على ارتكاب أخطاء إستراتيجية عديدة تحت ضغط الجمهور المدعور الذي لا يمكن

طمأنته إلا عبر إثبات القدرة (الإسرائيلية) على العدوان. حتى بات بالإمكان الحديث عن تطور عقدة المذابح إلى جنون الاضطهاد. ونتوقف هنا للاستشهاد بأقوال مؤسس التحليل النفسي (وهو فرويد اليهودي) الداعمة لتشخيص جنون الاضطهاد والمؤكدة بأن هذا الجنون، مع ما يصاحبه من هذاء العظمة المرضي، موجود في صلب الشخصية اليهودية. بما يجعل من المذابح اليهودية والاعتداءات (الإسرائيلية) نتيجة لهذا الجنون وليس سبباً له. إذ يقول فرويد في كتابه "موسى والتوحيد" والنص الحرفي ما يلي:

... إنه لما يبعث على دهشة أكبر أيضاً أن نرى الإله اليهودي (يختار) لنفسه على حين بغتة شعباً من الشعوب ليحمله "شعبه المختار" ويعلن أنه إلهه، وهذه واقعة غريبة في تاريخ الأديان الإنسانية... (ص 61).

... لقد كانت الشروط السياسية تتنافى مع تحول الإله القومي (اليهودي) إلى إله كوني (لكل البشر)، فمن أين تأتي لهذا الشعب الصغير البائس والعاجز صلف الإدعاء بأنه الابن الحبيب للرب...؟ (ص 92).

... لقد كان لنسبة دين يهوه الجديد إلى الآباء الأوائل هدف انتحال هؤلاء الآباء الذين عاشوا في كنعان وارتبطت ذكراهم ببعض الأمكنة في البلاد. ولعلمهم كانوا أبطالاً كنعانيين أو آلهة محليين انتحلهم اليهود المهاجرون ليدمجهم بتاريخهم القديم، بما يعادل إشهار ارتباط اليهود بالأرض (زوراً) واتقاء للكراهية التي تلاحق المستعمرين. وبفضل هذه المناورة البارعة (أي الاحتيال التاريخي) ساد الادعاء القائل بأن كل ما فعله يهوه هو أنه أعاد إلى اليهود ما كان ذات يوم ملكاً لأسلافهم! (ص 63).

وهكذا فإننا إذ نقبل ربط جنون الاضطهاد (البارانويا) اليهودي بالمذابح اليهودية فإننا نقدم تنازلاً لا يقبل به فرويد اليهودي، ومع ذلك نقبل هذا الربط حتى نتجنب ثقل الراهن الذي يجعل تهمة "معاداة اليهود" جاهزة لكل من يحاول رد الحوار مع اليهود إلى العقلانية (5). وبطبيعة الحال فإننا لا نخشى هذه التهمة إلا أننا نريد تجنب الجدل الجاهز الذي يحيد بأية مناقشة من هذا النوع عن العقلانية. مهما يكن فإن تكرار دورة التاريخ اليهودي رهنماً لا بد لها من أن تأخذ في حساباتها أن اليهودي لم يعد يقيم علاقته مع الآخر انطلاقاً من الغيتو ومن موقع الانتماء لأقلية، (وهو يفرض عليه التنازلات ويجعله أقل تهوراً وأكثر تحسباً للمستقبل. وهي أمور تجعله أقل عدوانية ظاهرية وبالتالي فإنها تجعله أكثر ميلاً لاعتماد السلوك الاحتيالي). فاليهودي المعاصر يتعامل مع الآخر انطلاقاً من انتمائه لدولة تحظى باعتراف المجتمع الدولي. وهذه الدولة جاهزة لاحتضانه متى يشاء لمجرد كونه يهودياً. بل إن هذه الدولة جاهزة لحمايته، حتى ولو لم يكن حاملاً لجنسيتها، في حال تعرض للملاحقة القانونية في أي بلد من بلدان العالم. حتى لو كان هذا البلد هو الولايات المتحدة نفسها. وهكذا فإن تحول اليهودي إلى "إسرائيلي" (سواء أحمل الهوية الإسرائيلية أم لا) جعله يطلق العنان لعدوانيته المكبوتة وأصبح أقل ميلاً لاعتماد السلوك الاحتيالي واستعاض عنه بالسلوك العدواني سواء على الصعيد الفردي أو الجماعي. وهذه الجرعة الإضافية من العدوانية تجعل اليهودي عازفاً ومتمنعاً عن التنازل أمام الأغيار (الغوييم) لدرجة معاملتهم بصورة طبيعية (أي

كأنداد). وهذا يعني أن ما اصطلح على تسميته بالتطبيع هو مجرد شائعة كاذبة لا سند لها سوى أحابيل الاحتيال (الإسرائيلي). لكن ماذا عن النمط السلوكي (الإسرائيلي)؟

3 - النمط السلوكي (الإسرائيلي):

وفي عودة إلى "التطبيع" نجد أنه يمثل النمط السلوكي "الإسرائيلي" (بديل النمط اليهودي). وبمطابقته مع الراهن السياسي (تحول اليهود من مجموعة أقليات إلى دولة) نجد تبديلاً في بعض تفاصيل مراحلها، بحيث تصبح هذه المراحل كالتالي:

أ - المرحلة الأولى: تركز (إسرائيل) محاولاتها لإغواء العرب بالدعوة إلى الجمع بين التكنولوجيا والعصرنة (الإسرائيلية) وبين رؤوس أموال العرب الأغنياء وبين الأيدي العاملة الرخيصة للعرب الفقراء.

وفق هذه الصيغة تطرح (إسرائيل) اتحاد شرق أوسطياً (تختلف التسميات باختلاف السيناريوهات) بينها وبين العرب. وتؤكد بالإيحاء وبالطرق المباشرة على المكاسب التي سيجنيها العرب من مثل هذا الاتحاد. الذي يؤمن استثمارات مربحة للعرب الأغنياء وحياء أكثر رفاهية للعرب الفقراء. أما حصة (إسرائيل) فإنها ستكون (بحسب هذا الطرح الإغوائي) أقل بما لا يقاس مع ما يدفعه العرب حالياً كثمن لاستيراد الخبرات التكنولوجية والتكنولوجيا من مصادر أخرى! بعض العرب وقع في هذا الإغراء لدرجة اقتنع معها بأن (إسرائيل) تقدم للعرب فرصة النهوض وهي فرصة غير قابلة للتعبؤ! بل ربما كانت الصيغة الاتحادية (الإسرائيلية) هي الصيغة المنطقية الوحيدة لتحقيق تعاون عربي فعلي يتخطى التناقضات العربية الراهنة! ولا داعي للتذكير بأن إمبراطورية الإعلام الأميركي (واليهودي منه خاصة) تدعم هذه الإيحاءات وتغذيها.

ولكننا نقف لنسأل: هل تعني هذه الصيغة اعترافاً بالعرب كآخر؟ وبمعنى أدق هل (إسرائيل) ويهودها مستعدون للتعامل مع العرب كبشر متساوين معهم في الحقوق والواجبات؟ فهذا الاستعداد شرط لا يمكن تجاوزه لاعتبار العلاقة طبيعية. و(إسرائيل) عاجزة عن تحقيق هذا الشرط لأنه يتناقض مع مبادئ الديانة اليهودية، فتطبيقه يعني التخلي عن أسطورة "شعب الله المختار". ومن حقنا التأكيد على عجز أي زعيم أو حزب أو جماعة (إسرائيلية) عن تنفيذ هذا الشرط. وذلك بشهادة التاريخ اليهودي وبديل اغتيال رابين وهو على بعد عقود زمنية من الخضوع لمثل هذا الشرط.

وبهذا يتأكد لنا أن مصطلح "التطبيع" هو مجرد شائعة (إسرائيلية) الصنع وأميركية التسويق. والواقع أن لهذا المصطلح مفهوماً ما خلف لغوي (Meta Linguistique) وهو إقامة شراكة مصالح بين (الإسرائيليين) والعرب، وهي شراكة لا يمكنها أن تختلف عن مبادئ الشراكة في النمط السلوكي اليهودي المشروح أعلاه. ولكن ماذا عن المرحلة التالية؟ أو بمعنى آخر ما هي التصورات (الإسرائيلية) للمرحلة التالية لما تسميه بالتطبيع؟

ب - المرحلة الثانية: وتمثل دينامية التطور المستقبلية للشراكة العربية (الإسرائيلية). وفيها أن تفوق العرب من حيث الثروة والعدد يجعل (إسرائيل) في وضعية الشريك الأضعف الذي يطالب بضمان حقوقه، حيث بدأت

ملاح هذه المرحلة بإعلان (إسرائيل) الرسمي (عمته وسائل الإعلام العالمية) عن خوفها من التحول إلى مجرد سوبر ماركت عربي!

وعلى هذا الأساس فإنها تتطلب بجملة ضمانات إضافية أهمها الإصرار للحفاظ على التفوق العسكري (الإسرائيلي) والاستمرار في رفضها التوقيع على معاهدة الأسلحة النووية ونكرانها ملكية أسلحة الدمار الشامل. كما أن ادعاء الخوف هذا يتيح لـ(إسرائيل) أن تظهر مرونة (كاذبة) أثناء المفاوضات ثم تتراجع عنها تحت ضغط الرأي العام (الإسرائيلي) المذعور! وهكذا تتمكن (إسرائيل) من تحويل أية مفاوضات تخوضها إلى مجرد عملية احتيال قوامها إطلاق وعود خلبية لا تلتزم بتنفيذها ولكنها تلتزم بالاستفادة من التنازلات العربية التي تقدم مقابل تلك الوعود!

مع ذلك نجد أن الولايات المتحدة تضغط على كافة الأطراف العربية، وتضعها تحت وطأة الحصار الاقتصادي متعدد الدرجات، للموافقة على الشروط (الإسرائيلية) اللامعقولة، وبعض العرب استجاب لهذه الضغوطات، فماذا كانت النتيجة؟

النتيجة كانت متابعة (إسرائيل) لمراحل النمط السلوكي اليهودي. وهي متابعة سجلت في نطاقها الخطوات التالية:
1- مطالبة (إسرائيل) بحقوق اليهود في الدول العربية مع تجاهل كلي للعوانية المجرمة التي مارسها هؤلاء اليهود بحق مجتمعاتهم ولصالح الدولة اليهودية، وذلك بحجة أن الصراع العربي - (الإسرائيلي) يبرر هذه العدوانية! (6)

2- إعادة إحياء حارات اليهود في الدول العربية لإعادة تصدير بعضهم لخلق مواقع نفوذ (إسرائيلي) متقدمة داخل هذه الدول، وأيضاً للخلاص من بعض اليهود الشرقيين المطالبين بحقوقهم.

3- محاولة (إسرائيل) لعب دور الوسيط - الحكم في التناقضات والخلافات العربية - العربية وهذا ما أعلنه رابين صراحة عندما دعا إلى استبدال تسمية الجامعة العربية بالشرق أوسطية وإلى قبول (إسرائيل) عضواً فيها. ومن مراحل هذا الدور:

أ - الوساطة بين العرب الأغنياء وأولئك الفقراء (7). عن طريق إغراء الأغنياء بتمهيد الطريق لهم لدخول نادي الدول الرأسمالية (يقوم اليمين الإسرائيلي بهذا الدور)، وذلك مقابل احتضان وتحريض العرب الفقراء (يقوم بها اليسار الإسرائيلي). وتوزيع الأدوار هذا يقدم الإجابة على الفرضية الساذجة القائلة بأن السلام مع العرب يؤدي بـ(إسرائيل) إلى فقدان العدو بما يفتح أبواب الصراع اليهودي - اليهودي ويفجر تناقضات الداخل (الإسرائيلي).

ب - إقامة علاقات منفردة مع كل قطر عربي على حدة، وتقديم خدمات تواطوية - تأمرية خاصة لكل قطر من هذه الأقطار وابتزازها كل على حدة. حيث لم تنتظر (إسرائيل) نهاية المفاوضات لممارسة هذه السياسة الاستفراكية، بل هي أصرت على استفراد العرب أثناء المفاوضات. إذ رفضت الاستمرار فيها إلا بعد تحقيق هذا الاستفراء الذي تدفع ثمنه حالياً الجهات العربية التي تسابقت للحصول على جنة الشراكة مع (إسرائيل) فحصلت الأوهام والابتزاز (8).

ج - تفجير مشاكل الأقليات العربية وإدخالها في متاهات التجاذب مع الأقطار التي تنتمي إليها. بحيث تتحول هذه الأقليات إلى أوراق ضغط (إسرائيلية). وذلك بحيث تمنع (إسرائيل) هذه الأقليات من التكامل في مجتمعاتها (بتغذية نعراتها) وكذلك بعدم تقديم الدعم الكافي لها كي تصل لأهدافها أو لحلول مقبولة مع سلطات بلادها. ولعل مراجعة بسيطة للمسألة الكردية من شأنها أن تفضح أماننا إمكانيات استغلال الأقليات والتضحية بها عند الضرورة بحيث تصبح عاجزة عن اعتناق المواطنة الكاملة وعن التمسك بخصوصيتها، وهذا ما يحول شعوب هذه الأقليات إلى لاجئين ومهاجرين عاجزين عن العيش في ظروف طبيعية في أرضهم.

وقد يتساءل سائل ماذا عن المرحلة الثالثة (أي نهاية العلاقات العربية - الإسرائيلية)؟

في رأينا الشخصي أننا لن نصل إلى هذه المرحلة لأن شعوباً أخرى سوف تبلغ هذه المرحلة قبل العرب. وهذه الشعوب هي التي سنتولى حل المعضلة (الإسرائيلية). وحسبنا هنا التذكير بمثال الميليشيات الأميركية البيضاء، المسؤولة عن انفجار أو كلاهما، التي فضحت وسائل الاستغلال اليهودي - (الإسرائيلي) للولايات المتحدة. وتدعو هذه الميليشيات للخلاص من اليهود وتنظيف البلاد منهم، بل إنها ترى في تساهل الحكومة الفيدرالية مع اليهود نوعاً من الخيانة الذي يدفع بهذه الميليشيات إلى معارضة الحكومة بالقوة المسلحة (9).

وهذا السياق قد يتعارض مع تحليلات ومواقف عديدة. وهو قد لا يلقى الشعبية من قبل فئات عديدة، إلا أن قناعتنا الراسخة هي أن نهاية (إسرائيل) لن تكون على أيدي العرب. ولكنها ستكون على أيدي جهات أخرى تحرم (إسرائيل) من توازنها الاقتصادي وتدفع بها نحو الفقر. وهذا الأخير كفيل بدفع اليهود للهجرة إلى بلدان أخرى أكثر ربحاً، حيث من المرجح أن تكون هذه البلدان غير مالكة لتجارب سابقة مع اليهود بما يجعلهم طامعين بمعاودة تكرار نمطهم السلوكي القهري منذ بداية مرحلته الأولى. ويرجح أن تكون أستراليا في طليعة هذه البلدان نظراً للشبه الشديد بينها حالياً وبين الولايات المتحدة في بداية القرن العشرين (10).

4- التطبيع والمطبعين:

إن حلم الزواج بين القدرات العربية والتكنولوجيا (الإسرائيلية) هو حلم الزواج بدراكون أو بالساحرة العجوز الشريرة (بعد أن سحرت نفسها فتنكرت بشكل فتاة جميلة). إلا أن من يستوعب النمط السلوكي اليهودي (ومن يملك القدرة على طرح السؤال عن سبب ذبح اليهود عبر التاريخ وأيضاً من تعامل مع تجمعات يهودية) يمكنه أن يكتشف خداع هذا الحلم وعدم مصداقيته.

أما الذين ينساقون وراء حلم التطبيع (ويقعون ضحية السيناريوهات المصنعة له)، ويحتاجون إلى الوقت الكافي لاكتشاف كونه كابوساً مزعجاً. إلى هؤلاء نجد من الضروري أن نوجه لهم هذه التحذيرات:

1 - لقد نجحنا في تعطيل مشروع (إسرائيل) الحلم بالتحول إلى دولة اقتصادية كبرى ومؤثرة، وبالرغم من هزائمنا المتكررة فقد كسبنا معركة إبقاء (إسرائيل) دولة تعتمد على المساعدات. فهل يمكننا من تحقيق حلمها عن طريق التطبيع بحيث تحصل عبره على ما لم تستطع الحصول عليه عبر عدوانيتها وحروبها؟

2 - إن الاتحاد الشرق أوسطي المطروح (كتكتل اقتصادي) يتخذ من الاتحاد الأوروبي نموذجاً له. فهلا لاحظ المطبوعون أن هذه الاتحاد قد دفن في حلف الناتو (تعد تغييرات إستراتيجية الحلف متناقضة تماماً مع مبادئ الاتحاد، وكانت حرب كوسوفو المثال العملي - التجريبي السابق لإقرار هذه التغييرات). لذلك على المطبوعين أن يدركوا أن تكتلهم الموعود هو بدوره وهم من الأوهام.

3 - تمتد "إسرائيل الكبرى" من النيل إلى الفرات، أي في منطقة فقراء العرب. وهي منطقة الشام التاريخية التي تم إفقارها بصورة اصطناعية - كاريكاتورية مضحكة باكية. إذ تكالفت عمليات الإفقار هذه بالحصار الاقتصادي المفروض على دول هذه المنطقة. عداك عن الإحباط المعنوي الناجم عن الضغوطات الأميركية على سكان الشام لدفعهم قهراً لركوب قطار السلام الأميركي. وهي تعمل منذ فترة على تعميق التناقضات بين فقراء العرب وأغنيائهم. فهل يكون هذا الجهد (الإسرائيلي) باتجاه اقناع العرب الواقعيين خارج حدود "إسرائيل الكبرى" بالحياد وترك هذه الدول كي تلقى مصيرها؟

إن هذا الإيحاء (الإسرائيلي) سيكون مكلفاً لمن يقبله لأن له ثمناً تاريخياً مكلفاً وممتداً لاتصاله بمسؤولية القدس الشريف وهي مسألة لا يمكن للزمن سوى أن يزيدا تعقيداً (11).

4 - إن (إسرائيل) ترفض السلام رفضاً قاطعاً ونهائياً وجل ما يمكن قبولها به هو تسوية سلمية مؤقتة. وهذا الرفض هو من صميم الديانة اليهودية ومن أساسيات معتقداتها. وعليه فإذا تجاوز المطبوعون مبدأ اعتبارهم أغياراً (واحتقارهم على هذا الأساس) فإنهم لن يستطيعوا تجاوز احتمالات نقض (إسرائيل) للتسوية ومعاودتها العدوان. ويكفي أن يتصور المطبوعون الثمن الذي يتوجب عليهم أن يدفعوه لو تمكنت (إسرائيل) من الإفلات من السيطرة الأميركية؟ عندها ستتحول من قاعدة إستراتيجية - أميركية إلى دولة ذات نفوذ وصاحبة مصالح. وليجرب المطبوعون دعوة (إسرائيل) لتوقيع معاهدة عدم اعتداء لحمايتهم في حال نجاتهم من غول التطبيع (الإسرائيلي).

على شعوب هذه المنطقة أن تدرك عجز اليهودي عن الاعتراف بالآخر ورفضه العيش بسلام معه، ناهيك عن إقامة علاقات إنسانية (طبيعية) معه، وهذا العجز مرده إلى تعاليم الديانة اليهودية. وكل ما عدا ذلك أوهام.

بعد ما عرضناه أعلاه حول خدعة التطبيع (الإسرائيلية) من الوجهة السيكلوجية لا بد لنا من إعطاء بعض الأمثلة على الأسلوب (الإسرائيلي) المتبع لتمير هذه الخدعة. وهذا العرض وإن كان عاجزاً عن الإحاطة بكافة جوانب أسلوب الخداع التطبيعي فحسبه أنه ينير بعضاً من جوانبه.

أول هذه الجوانب هو العمل على إعادة تصدير اليهود العرب مع المطالبة بتعويضات باسم من يرفض منهم هذه العودة. وكنا قد حذرنا من هذه الخدعة في كتابنا "سيكلوجية السياسة العربية". فاليهود الأوروبيون (الأشكيناز) لم يستوردوا اليهود العرب ليشاركوهم في (إسرائيل). بل استوردوهم بصفتهم يداً عاملة رخيصة وأمنة. لكن تنامي نفوذهم مع الوقت جعل منهم عبئاً على (إسرائيل). ونظراً للثقة في عدائهم للعرب فإن (إسرائيل) تجد في إعادة تصديرهم إلى البلدان العربية والشرقية التي قدموا منها حلاً مقبولاً لازمة الهوية الضاغطة على الدولة

العبرية. من جهتنا فإننا لا نشك لحظة بأن عودة هؤلاء هي استئناف لدورهم المخرب الذي لعبوه ضد العرب وخدمة للصهيونية قبل قيام (إسرائيل). مما يتطلب منا مراجعة تفاصيل هذا التخريب وأساليبه. وأيضاً ضرورة توثيقه لمواجهة مطالب التعويضات (الإسرائيلية).

في المقابل نجد رؤية مخالفة لدى بعض المثقفين العرب ممن يرون بأن نفاذ الخزان البشري اليهودي يجعل (إسرائيل) حساسة أمام أية هجرة إلى خارجها مهما كان أصول المهاجرين. إلا أننا نصر على معارضة هذه النظرة مع التنبيه إلى أن خطر الهجرة الحقيقي هو الهجرة باتجاه الولايات المتحدة وليس باتجاه الدول العربية. أما ثانياً الخدع التطبيعية التي نعرض لها فتكمن في تزوير الدراسات الاجتماعية التي نعطي عليها مثلاً دراسة أجزتها صحيفة "يديعوت أحرونوت" التي وجدت اتفاقاً على النفور من (المستوطنين) بين التلامذة العرب واليهود. وكان هذا الاتفاق هو البرهان على التكامل والانصهار في البوتقة (الإسرائيلية)! وهذا مجرد مثال على المخالفات الصريحة للمنطق التي ترتكبها (إسرائيل) لتدمير خداعها.

أما ثلاثة الأثافي فهي الشروط المبطننة التي تطرحها (إسرائيل) تحت شعار تعويض قصورها الاقتصادية كونها تعتمد على المعونات. وهي تجد تعويض ذلك في الحصول على إذن خاص وغض نظر أميركي ودولي يسمح لها بالقرصنة. حيث نستشهد بكتاب من تأليف مسؤول سابق في الموساد "جوايسيس جدعون" يبين فيه المؤلف مظاهر القرصنة (الإسرائيلية).

ونأتي إلى الحيلة الرابعة وهي عمل (إسرائيل) على استغلال الأقليات. وهو استغلال مدعوم بقانون الأقليات الأميركي وبالحملة الأميركية الشرسة لتحريك الأقليات. والغريب أن الأقلية الكردية التي كانت من أوائل ضحايا المطالبة بحقوق الأقليات لم تستوعب لغاية الآن الأضرار اللاحقة بها من جراء هذه اللعبة الأميركية! فكيف لنا أن نطلب من الأقليات الأخرى وعي هذا الفخ والانتباه إلى عواقبه الوخيمة، حيث توجت الولايات المتحدة دعمها للأكراد بتسليمها لأوجلان إلى الحكومة التركية! وذلك بعد نجاحها في تفجير التناقضات الكردية. والتأسيس لحرب أهلية كردية تنتظر الأوامر الأميركية كي تندلع. وكانت حصة (إسرائيل) من هذه الصفقة بعض اليهود الأكراد الذين تخلوا عن قوميتهم مقابل يهوديتهم. دون أن يثير هذا التخلي انتباه بقية الأكراد إلى تفاصيل اللعبة التي يدفعون ثمنها من أرواحهم.

ولقد اخترنا من محاولات اختراق الأقليات من قبل (إسرائيل) تلك التي تهدف لاستقطاب الشواذ إلى (إسرائيل) بوصفها الدولة الأكثر تسامحاً معهم. وهكذا نجد أن (إسرائيل) اختارت أن تبدأ اختراقها للمجتمع العربي عبر الفئات المرشحة لعدائه. وهي فئة الشواذ وفئة المدمنين على المخدرات. إذ بدأت بزراعتها في الكيبوتزات ودخلت شريكاً في تجارتها الشرق أوسطية.

فيما يلي نعرض لهذه المحاولات الاختراقية عبر الفقرات التالية:

1 - التطبيع يبدأ بإعادة تصدير اليهود العرب.

2 - "يديعوت أحرونوت" ومخطط التطبيع.

3 - التطبيع بـ: "البانجو".

4 - هل تصبح (إسرائيل) مكاناً لتجمع الشواذ؟

1- التطبيع يبدأ بإعادة تصدير اليهود العرب (12):

خبر وارد من صنعاء لا يمكنه أن يكون عابراً ونورده بالصيغة المختصرة وبالنص الذي أوردته فيه جريدة "الاتحاد الطبيانية" في عددها الصادر يوم السبت في 2000/9/16 يقول الخبر: وصلت أسرة يهودية مكونة من خمسة أفراد إلى عدن بعد غياب عنها استمر لمدة 33 سنة ولتستقر في ما كان يسمى "حارة اليهود" في منطقة "كريتر"، والتي اضطروا إلى مغادرتها بعد استقلال ما يعرف باليمن الجنوبي العام 1967.

وأوضحت مصادر صحفية بأن الأسرة اليهودية التي تربطها قرابة بتاجر يهودي يعمل في تجارة القات ببريطانيا تتفاوض لشراء أحد الفنادق في عدن وقد كلفت أحد المحامين للتفاوض مع ملاك الفندق. إضافة إلى نيتها شراء عقارات وأراض. وقالت الأسرة إنها أجرت اتصالات واسعة مع مسؤولين حكوميين وبعض أصحاب الشركات التجارية للترويج لبضائع (إسرائيلية) في اليمن.. (انتهى الخبر). وكانت "الاتحاد" قد نشرت هذا الخبر تحت عنوان "أسرة يهودية تعود إلى اليمن لشراء عقارات".

وتجيء هذه الزيارة كترجمة عملية لحملة (إسرائيلية) مدروسة ظهرت إلى العلن منذ ثمانية أشهر، وتم تحريكها الأسبوع الماضي بصورة مكثفة حيث تناقلت أوساط أوروبية معنية بمسار العملية السلمية في الشرق الأوسط أخباراً، تسربت منذ بداية أيلول (سبتمبر) 2000، عن حملة تعبوية دولية شنتها قبل أسابيع جهات سياسية (إسرائيلية) بالتنسيق مع جمعيات يهودية عالمية نافذة. وتتمحور الحملة حول موضوع اليهود العرب الذين غادروا البلاد العربية بدءاً من العام 1948، وتتضمن الحملة عرض لوائح مفصلة بأسماء وأعداد هؤلاء اليهود وأملآكهم في كل دولة عربية. وتقول الجهات الأوروبية إن هذه الحملة (الإسرائيلية) تختلف عن سابقتها الاستعراضية من حيث تقديمها للتفاصيل ولتقديرات التعويضات بالأرقام. بحيث تقدر الجهات (الإسرائيلية) هذه التعويضات في حدود العشرة مليارات دولار. ولفقت هذه الجهات الأوروبية إلى محاولة (إسرائيل) طرح هذه الموضوعات بموازاة مطلب العودة الفلسطيني وتعويضاته، وصولاً إلى الإصرار على إعادة اليهود العرب إلى الدول التي أتوا منها!

وهكذا تطرح هذه الأوساط الموقف (الإسرائيلي) على أنه مساومة تكتيكية للتوظيف في المفاوضات. لكن الأمر يبدو مختلفاً من الناحية المادية، فقد تبذرت العواصم الأوروبية المرشحة للإسهام في تعويض الفلسطينيين بأنها مدعوة أيضاً لتعويض اليهود العرب ودعم توطينهم في (إسرائيل) (13).

ومرة أخرى نشكو قصورنا الإعلامي وضيق ذات يدينا المعلوماتية، لأن توضيح الموقف الابتزازي (الإسرائيلي) يحتاج إلى إيصال الحقائق الآتية إلى الرأي العام العالمي:

- 1 - إن ما تمارسه (إسرائيل) من إثارة للقلق وللإشكالات القانونية فيما يتعلق بما تدعيه "أملاك اليهود في مصر" يصل إلى حدود التدخل في الشؤون الداخلية المصرية ، وهو وضع سوف يعم ليشمل عموم الدول العربية.
- 2 - إن إصرار (إسرائيل) على لعب دور محامي مصالح اليهود في العالم يشدد على يهوديتها وعلى عنصريتها وينزع عنها قناع الديمقراطية الليبرالية الذي تصر على ارتدائه بعد أن تعرض للتمزق والتهتك.
- 3 - القصور العربي في إبراز الدور المعادي للمجتمع وللقانون الذي لعبه اليهود العرب قبل مغادرتهم للدول العربية، مستغلين أجواء التسامح التي عاشوا فيها طوال قرون.
- 4 - قصور الدراسات المقارنة بين ما فعله اليهود العرب قبل هجرتهم إلى (إسرائيل) وبين ما يتعرض له العرب الموجودون تحت سلطة (إسرائيل) لارتكابهم مخالفات لا تذكر بالمقارنة مع تخريب اليهود العرب قبل هجرتهم. فقد مارس هؤلاء التجسس والإرهاب والنصب والاحتيال والعمليات الجرمية السياسية.
- 5 - على الدول العربية أن تستجيب للتهديد اليهودي بإعادة تصدير اليهود العرب إليها بتجهيز ملفاتهم الجرمية تمهيداً لمحاكمات عادلة لهم في حال عودتهم، وتجنب مازق مرور المدة على الجرم الاحتيالي مثلاً وبقاء الحق بالمطالبة بالأملاك!
- 6 - مما تقدم نسأل عما إذا كانت هذه العائلة اليهودية اليمينية قد خالفت التعاليم اليهودية فتركت حارة اليهود في عدن العام 1967 دون الإضرار بالناس وبالمجتمع، والفترة الماضية ليست بعيدة ويمكن تحري طريقة الضرر الذي اعتمده هذه العائلة قبل هجرتها.
- 7 - إن عودة هذه العائلة ومحاولتها التأسيس لعمل يبرر إقامتها في دولة عربية. هي عودة ذات مغزى رمزي، فالمبدأ اليهودي هو "تسجيل السوابق" و "امتحان المستحيلات"، خصوصاً أن (إسرائيل) تريد بصدق وبأمانة غير معهودة فيها التخلص من اليهود العرب وإعادة تصديرهم من حيث أتوا.
- 8 - واحدة من النكات (الإسرائيلية) الشائعة أن أحدهم سأل (إسرائيلياً): قل لي بحق لماذا تكرهون العرب إلى هذا الحد؟ فأجاب (الإسرائيلي) لأنهم يشبهون اليهود العرب!
- ولكن الدراسات الديموغرافية - السياسية (الإسرائيلية) تشير إلى أن الأحزاب اليهودية المتشددة والأكثر عداء للعرب هي أحزاب اليهود العرب والشرقيين إجمالاً، وهذا يعني استحالة المراعاة على أي إمكانية تخلي هؤلاء عن عدائهم المتطرف للعرب ولمجتمعاتهم.
- 9 - إن نظرة اليهود للأغيار، وللغرب خصوصاً، يجعلهم يتحررون من أية قيود انسانية وأخلاقية تجاه الأغيار، وعليه فإن لهم أن يستيبحوا هؤلاء الأغيار وخصوصاً عندما يكونون عرباً! وعليه يصبح من الطبيعي أن تكون لعودتهم أهداف تتمحور حول تخريب هذه المجتمعات والإضرار بها على مختلف المستويات والصعد الممكنة.
- 10 - لقد أظهر وزير العدل (الإسرائيلي) "يوسي بيلين" نوبة من الهلع المرضي وهو يعلن نهاية الخزان البشري اليهودي، بحيث لم يعد هناك يهود متوافرون للاستيراد (الإسرائيلي). لذلك تساهلوا في استقدام مليون مهاجر

روسي (65% منهم غير يهود) وكذلك يهود الفالاشا ومع ذلك لم يعد هناك يهود للاستيراد، فهل تكون هذه العائلة اليهودية باحثة عن اليمينيين ذوي الأصول اليهودية من أجل تصديرهم إلى (إسرائيل)؟!

11 - النقطة السابقة تبدو مناقضة لتوجه إعادة تصدير اليهود العرب، ولكنه تناقض ظاهري فقط. فاليهود الأشكيناز وخدمهم يستحقون العيش والتمتع بالرفاه الاقتصادي (الإسرائيلي). أما الفالاشا والسفارديم والروس وغيرهم فإن لهم دوراً وظيفياً- ديموغرافياً هو مواجهة الازدياد السكاني الفلسطيني. فإذا ما أصبحوا مواطنين (إسرائيليين) موازين للزيادة العربية السكانية فبإمكانهم العودة من حيث أتوا. وإن كان بقاؤهم يشكل دعماً ديموغرافياً أعمق للحضور اليهودي. وصحيح أن هنالك ستة ملايين يهودي يحملون الجنسية (الإسرائيلية) ولكن لا أحد يعرف تحديداً كم نسبة الذين يعيشون في (إسرائيل) فعلياً من بين هؤلاء؟

ونرجو ألا ينساق القارئ وراء فكرة مشككة قوامها أن اليهود العرب لا يعاملون جيداً في (إسرائيل). وعليه فلا داعي لتحويل محاولة أسرة يهودية العودة إلى اليمن إلى قضية! وللإجابة عن هذا التشكيك نقول إن الأمر لا يتعلق بحالة فردية منفصلة، فقد اجتمع زعيم يهود سوريا بالرئيس السوري في 2000/9/13 وطلب منه الإذن بأن يعود اليهود السوريون للاستثمار في سوريا، وهذا الطلب يعني أن إعادة تصدير اليهود العرب هي خطة مبرمجة ومدروسة على نطاق واسع.

وكنا قد أثرنا هذا الموضوع في كتابنا "سيكولوجية السياسة العربية- العرب والمستقبلات" (ص 165-171). كما في مقالة منشورة في جريدة "الكفاح العربي" بتاريخ 1998/5/22 ودعونا في حينه للاستعداد لهذه الهجرة المضادة ومواجهتها بالدراسات والمعطيات العلمية التي تتصدى للدعوات (الإسرائيلية) المحتملة. وأيضاً لمحاولات (إسرائيل) نسج واختلاق تاريخ مصطنع لليهود العرب، ونختصر دعوتنا السابقة بالنقاط الآتية:

1 - إذا كان اليهودي العربي يفكر بالعودة إلى بلده العربي فإن عليه ألا يوكل (إسرائيل) كمحامي دفاع عن حقوقه. وهو لن يعود في حال تخليه عن هذا المحامي لأنه يدرك مدى الإساءة التي وجهها إلى مواطنيه ووطنه خدمة لـ(إسرائيل). أما أن يحاول العودة تحت ضغط الوحش الإعلامي (الإسرائيلي) وأنيابه الحادة فإن هذه العودة لن تكون في مصلحته. فما يجري لا يتعدى كونه مجرد تسويات سلمية وليس سلماً حقيقياً، حتى أن بعض قادة الرأي في (إسرائيل) يؤكدون حاجساً مفاده أن السلام يعني نهاية (إسرائيل).

2 - عند التصدي لأي محاولة استقراء تاريخية يجب أولاً العودة إلى الزمن التاريخي للحدث. فالانسياق وراء قراءة هذا الحدث بمعزل عن زمنه التاريخي يؤدي إلى فهم مشوه للحدث وللحقيقة.

3 - فهرسة الدراسات العربية المتعلقة بتاريخ اليهود في المنطقة ومراجعة مدى احترامها للزمن التاريخي ومستوى موضوعيتها. وكذلك تحري إمكانات التوظيف والاختراق (الإسرائيليين) لهذه الدراسات.

4 - إقامة مشروع بحثي على مستوى الجامعات العربية تشارك فيه أقسام التاريخ واللغات الشرقية والاجتماع. يبدأ بتصوير المخطوطات وتحقيقتها ودراستها وفهرستها، مع محاولة تطبيق ذلك على المخطوطات

المتسربة إلى البلاد الأجنبية حول الموضوع. حيث لا يجوز ترك هذه المخطوطات تحت رحمة التأويل (الإسرائيلي) للتاريخ.

5 - ضرورة إجراء الدراسات لسد الثغرات التاريخية. وتحديدًا خلال العهد العثماني، ثم خلال بداية القرن وبعد قيام (إسرائيل). وهذه الفترة الأخيرة هي الأكثر إهمالاً من قبلنا والأكثر توظيفاً من قبل (إسرائيل).

6 - ضرورة توثيق عداة اليهود العرب لمجتمعاتهم بعد قيام (إسرائيل) وتصوير هذا العداة بصور أدبية وفنية تساعد على نشر الوعي العام بهذا السلوك المعادي للمجتمع. بما يشكل وقاية للجمهور من الوقوع مرة أخرى ضحية لهذا السلوك.

7 - العمل على التصدي لمحاولات اقتطاع الحلقات اليهودية من التراث العربي. والتشديد على أن اليهود العرب كانوا جزءاً من الأمة. وكانت بلادنا ملاذاً لهم من الاضطهاد الأوروبي كما أنهم لم يتعرضوا في أية دولة عربية للتمييز العنصري الذي يتعرضون له رهنًا في داخل (إسرائيل).

في 98/5/22 عندما نشرنا المقالة في "الكفاح العربي" كنا نرى أن هذه الخطوات كفيلة بتلقيح جمهورنا ضد محاولات إعادة التصدير (الإسرائيلية). أما اليوم وقد بدأ التمهيد الفعلي لهذه العملية فإننا نرى أن التنكير بهذه الخطوات (التي لم يعمل بأي منها لغاية الآن) غير كاف. من هنا دعوتنا إلى جمعيات ومنظمات مناهضة التطبيع لتبني هذه النقاط وملحقاتها وتحديد خطواتها العملية، ليكون هذا الموضوع واحداً من المشروعات المنظمة لمواجهة أخطار السلوك (الإسرائيلي) المستقبلي. مع الإشارة إلى معارضتنا لمصطلح "التطبيع" نفسه. فاليهود لا يفكرون أصلاً بالمساواة الطبيعية مع الأغيار (خصوصاً مع أبناء إسماعيل العرب) وبالتالي فإنهم لا يريدون التطبيع ولا يفكرون فيه. عدالك عن أن العلاقة بين العرب وبين اليهود غير العرب لم تكن يوماً قائمة إلا عبر قفزات الاستعمار بالتالي فإنها لم تكن طبيعية يوماً ما.

ونظراً لانعدام فاعلية دعوتنا السابقة (الكتاب، ومقالة "الكفاح العربي") وعدم استثارها لانتباه أحد فإننا نحاول أن نطرح اقتراحاً أسهل وأكثر قابلية للتنفيذ. وهو كناية عن كتابة قصص قصيرة من ذكريات المعاصرين للأذى اليهودي - العربي - بعد قيام (إسرائيل). علّ هذه القصص تستطيع حمل تجربة ذلك الجيل إلى أجيالنا العربية المعاصرة وتجنبها الوقوع في ذات الأخطاء السابقة. فليستكتب مناهضو التطبيع العرب هذه القصص وليخصصوا لها الجوائز ولينشروها. فقد يكون لنشرها فاعلية اجرائية غير متوقعة.

2- "يديعوت أحرונوت" ومخطط التطبيع (14):

تحولت الإحصاءات إلى منافس خطر للمنطق. ولما كان يسمى حتى الأمس القريب بالحس السليم. ومع سقوط المحاكمة المنطقية للنتائج، مع سقوط الأيديولوجيات، بات بالإمكان فبركة نتائج إحصائية حسب أهواء ومصالح المستفيدين. وهنا تتحول ثورة الاتصالات إلى كارثة، فهي تعرض الناس العاديين إلى فيضانات إحصائية ومعلوماتية متضاربة لدرجة التناقض الكلي. الأمر الذي يسبب ارتباك هؤلاء الناس وعجزهم عن الإفادة من ثورات الاتصالات والإحصائيات والمعلومات وغيرها من الثورات!

مثال ذلك التناقض بين إحصائيات الأمم المتحدة والبنك الدولي حول فوائد العولمة للدول النامية. فقد نشرت هيئة الأمم المتحدة تقريراً بخسائر الدول النامية من العولمة ووجدت أنها بلغت الـ 500 مليار دولار حيث باتت الشركات العملاقة تسيطر على 50% من الاقتصاد العالمي. وذلك أدى إلى استئثار 8 دول بنسبة 66% من التجارة العالمية بينما بلغت حصة 20% من سكان العالم 1.1% فقط من هذه التجارة. وهذا يعني أن الشركات العملاقة في طريقها لالتهام اقتصاديات الدول النامية - وهذا ما يحصل فعلاً اليوم. وفي الفترة عينها، نشر البنك الدولي إحصاءات تشير إلى أن اقتصاديات الدول النامية قد حققت فائدة قصوى من العولمة (انظر كتابنا سيكولوجية السياسة العربية ص 118-124).

وليس الغرض من هذه المقدمة الحديث عن تظاهرات سيائل ودافوس ومالبورن المعادية للعولمة ولا عن قمم اتحاد الدول الخمس عشرة المتضررة من العولمة. ولا الغرض تكرار عرض فكرة "الرياضيات مثلث الشواذ" المعروضة في كتابنا الأنف الذكر، بل الغرض هو عرض أسلوب (إسرائيلي) جديد لتوظيف صهيوني للتقانة الحديثة. ف(إسرائيل) لا تكتفي بتفوقها في مجال الإعلام التقليدي وهو التفوق الذي يتابع خنق الحقوق العربية حتى تكاد تسلم الروح والقدس معاً. والمثال الأحدث على هذا التوظيف (الإسرائيلي) كناية عن دراسة استطلاعية أجرتها جريدة "يديعوت أchronوت". دراسة استطلاعية (إسرائيلية):

أجرى هذه الدراسة باحثون يعملون لمصلحة صحيفة "يديعوت أchronوت" (الإسرائيلية). الذين اعتمدوا عينات خليطة (عرب 48 وإسرائيليين يهوداً) من جامعتي "تل أبيب" و "بيرزيت". وبلغ عدد المشاركين في الاستطلاع 6800 طالب. ونشرت الجريدة نتائج الاستطلاع على الأسئلة الآتية:

- 1 - هل تكره مستوطني الضفة الغربية اليهود؟ 51% أجابوا "نعم".
- 2 - هل تكره العرب؟ 47% أجابوا "نعم".
- 3 - هل تكره ننتياهو؟ 47% أجابوا "نعم".
- 4 - هل تكره باراك؟ 27% أجابوا "نعم".
- 5 - هل تكره بيريز؟ 24% أجابوا "نعم".
- 6 - هل تكره حركة السلام؟ 35% أجابوا "نعم".
- 7 - هل تكره حزب العمل؟ 24% أجابوا "نعم".
- 8 - هل تكره حزب الليكود؟ 35% أجابوا "نعم".

وخلصت الدراسة إلى أن الشباب (الإسرائيلي) يكره (المستوطنين) اليهود في الضفة الغربية (باعتبار أن عرب 48 يحملون الجنسية (الإسرائيلية)).

ولكن ماذا عن صدقية هذه الدراسة، وشببها، طالما أن الحكومة (الإسرائيلية) توظف أموال المساعدات الأميركية لبناء (المستوطنات) التي تابعها باراك متفوقاً على سابقه ننتياهو؟

ولعلنا ندخل في عبثية لا طائل تحتها إن استمررنا في طرح مثل هذه الأسئلة! فاختيار العينة ينطوي على مخالفات صريحة للمنطق. وهي مخالفات تبلغ حدود الاستهتار بالمنطق وبالعلم وبكافة القراء ومستقبلي المعلومات. فهل يعقل أن تسأل عربياً عما إذا كان يكره العرب؟ وهل يعقل أن يحب عربي (المستوطنين) اليهود في الضفة الغربية؟ وبذلك يمكننا الاستنتاج من نتائج هذا الاستطلاع أن 50% من العينة كانت عربية والنصف الآخر يهودياً فماذا عن التفصيلات؟

- الطلاب الأشكينازيون:

يشير الاستطلاع إلى نتائجهم الآتية:

56% منهم يكرهون المستوطنين.

50% منهم يكرهون المتدينين اليهود المتزمتين.

38% منهم يكرهون العرب.

- الطلاب السفارديون (اليهود الشرقيون):

ويشير الاستطلاع إلى نتائجهم الآتية:

36% منهم يكرهون العرب ثم يأتي كرههم لبقية الموضوعات بعد كرههم للعرب.

- الطلاب العرب:

وأشارت نتائجهم إلى:

85% منهم يكرهون اليهود المتشددين.

73% منهم يكرهون المستوطنين.

مراجعة إحصائية:

إن التناظر الواضح في أجوبة طوائف العينة يشير إلى فقدانها للشروط الضابطة للعينات، مما يلغي أي احتمال لاستخراج نتائج موضوعية من هذه الدراسة. وهي بالتالي تتحول إلى العبثية وتطرح الأسئلة عن المنطق الناظم لها؟! بحيث لا يبقى سوى المنطق الاستخباراتي الذي يسخر مثل هذه الدراسات للحصول على معلومات إضافية أو لتأكيد معلومات أخرى.

ولقد عقب الدكتور دالاي مور، المشرفة على هذا البحث، بالقول إن النتائج تشير إلى وجود هوة اجتماعية بين يهود (إسرائيل) وبينهم وبين (المستوطنين) الذين ينظر (الإسرائيلي) إليهم على أنهم يبتزون الدولة ويعرفلون سياساتها. والمقارنة الإحصائية بين أجوبة الأشكينازيون والسفارديم إنما تشير إلى تحويل المنافسة بينهم إلى نوع من الشيزوفرانيا الثقافية المؤدية إلى تفكك الهوية وضياح مفهوم الانتماء.

فالسفارديون الذين يشكلون ما يقرب من نصف سكان (إسرائيل)، والميالون بغالبيتهم إلى التشدد الديني، مكروهون من قبل 50% من الأشكينازيون و85% من العرب. والعكس بالعكس تتبادل الطوائف حاملة الجنسية (الإسرائيلية) الكراهية. بما يشكل حرب طوائف غير معلنة وأطرافها:

- 1 - الأشكيناز (اليهود الغربيون - معظمهم علمانيون).
- 2 - السفارديم (اليهود الشرقيون - معظمهم متشددون).
- 3 - اليهود الروس (مليون شخص 65% منهم غير يهود).
- 5 - العرب (أقلية تعيش كل أنواع التمييز).
- 6 - المستوطنون (أقلية ذات ميول إرهابية - معادية للمجتمع).

التوظيف الاستخباراتي للدراسة:

لا شك في أن الموساد يجني فائدة مهمة من اطلاعه على أسلوب تفكير حوالي الثلاثة آلاف شاب عربي من طلاب جامعة "بيرزيت". وخصوصاً لجهة استعدادهم لمعاودة رشق بدلاء "جوسبان" بالحجارة (13).

كما لا يخفى أن هذه الدراسة تحاول إيجاد نقاط مشتركة بين العرب و(الإسرائيليين) عن طريق طرحها موضوع (المستوطنين). وذلك بغض النظر عن دوافع الكراهية لهم. فصحيح أن العرب يكرهون (المستوطنين) لاحتلالهم أراض يمكن إعادتها عربية وأن اليهود يكرهونهم لأسباب مخالفة كونهم يبيتزون الدولة ويعوقون سياساتها. إلا أن الطرفين يلتقيان على كره (المستوطنين). بما يجعل من الممكن طرح هذه الأسئلة ذاتها على طلاب جامعات عربية في الدول التي تقيم علاقات مع (إسرائيل)، بل يمكن طرحها عن طريق مراكز الدراسات العربية الممولة أجنبياً والمتعاونة في هذا الاتجاه. وفي هذه الحالة علينا أن نستعد لمواجهة هذا الاحتمال التطبيعي. ولربما كان من الواجب الالتفاف عليه قبل وقوعه عن طريق وضع استمارة أسئلة واضحة ومباشرة تتضمن أسئلة من نوع:

- 1 - هل تكره اليهود؟ "وهو سؤال مقابل منطقي لسؤال: "هل تكره العرب؟". و 2 - هل تعترف شخصياً بدولة (إسرائيل)؟ و 3 - "هل تعتقد بجدية (إسرائيل) في شعاراتها المعلنة" ... إلخ..

ومهما يكن فإن هذه الدراسة نموذج من أهم نماذج تسخير العلوم الإنسانية لخدمة فئة في استغلالها لفئات أخرى. وهذا النموذج يسخر علم الإحصاء والعلوم الإنسانية ونتائج الاستطلاعات والمعلومات والإعلام من أجل خلق إبحانات قابلة للاستغلال السياسي وصالحة للتوظيف في خدمة التطبيع على الطريقة (الإسرائيلية) وقاعدتها الذهبية: "يمكننا أن نحقق لكم فوائد كثيرة ولكنكم تبقون غير مساوين لنا". وهذا ما يبرر صرخة إدوارد سعيد في كتابه "إما المساواة، إما لا".

3- التطبيع بالبانجو (15):

في كتابه "جواسيس جدعون... التاريخ السري للموساد"، يقول ضابط الموساد السابق غوردون توماس (16) بأن طائرة البان إم، التي تفجرت فوق لوكربي، كانت تضم بين ركابها ضباطاً من وكالة الاستخبارات الأميركية. حيث وجدت إحدى حقائبهم فارغة تماماً! وتبين فيما بعد أن الموساد وبمساعدة المخابرات الإنكليزية قامت بسرقة محتويات هذه الحقبة. وكانت عبارة عن مستندات تؤكد تورط (إسرائيل) في تجارة المخدرات في الشرق الأوسط وأخرى تتعلق بصفقات أسلحة (إسرائيلية) سرية.

وتأتي هذه المعلومات لتضاف إلى أخرى شبيهة تراكم الدلائل على السبل التي تعتمدها (إسرائيل) في محاولاتها للاستغناء عن الدعم الأمريكي لاقتصادها. وذلك تحسباً لمحاولات تقنين هذا الدعم بعد نهاية الحرب الباردة، حيث ارتفعت أصوات أميركية تطالب بوضع إستراتيجية ملائمة للمصالح الأميركية لما بعد هذه الحرب. ومنها تقليص الدعم الأميركي الموجه أساساً لمواجهة الشيوعية والذي لم يعد مبرراً بعد سقوطها.

ولقد تبين لغاية الآن عجز (إسرائيل) عن تحقيق استقلاليتها الاقتصادية بالأساليب المشروعة، خصوصاً عندما نأخذ في الاعتبار أن متوسط الدخل الفردي في (إسرائيل) يصل إلى حدود 16 ألف دولار سنوياً. وهو يعادل مثيله في بعض الدول الأوروبية الكبرى. ومن أمثلة الكسب (الإسرائيلي) اللامشروع المدعومة بالأدلة نذكر:

- التورط في تجارة المخدرات في المنطقة وفي العالم ولكن مع التركيز على اختراق الدول العربية المجاورة بهذه التجارة. وهو اختراق يجمع بين الكسب المادي وبين التخريب المعنوي والإنساني لهذه الدول.
- صفقات الأسلحة السرية مع جهات متعددة.

- بيع الأسرار التكنولوجية العسكرية (أميركية في أغلبها وتحصل عليها (إسرائيل) عن طريق التجسس والعلماء اليهود الأميركيين). وبرزت من هذه الصفقات في العام 1999 تلك التي أبرمتها (إسرائيل) مع الصين. وظهرت شكوك جديدة في نيسان/ أبريل 2000 حول صفقة (إسرائيلية) لبيع طائرات الأوكس إلى الصين.

- حماية أثرياء اليهود المطلوبين من العدالة الدولية واستقطاب ثرواتهم، وهؤلاء المجرمون يتحولون إلى مواطنين (إسرائيليين) فور وصولهم إلى (إسرائيل). وذلك وفق قانون العودة اليهودي.
- العلاقات مع الجريمة العالمية المنظمة. وهي علاقات متعددة الصعد.

وقد تكتشف من أساليبها الآتية:

أ - المشاركة اليهودية في الجريمة المنظمة، حيث تحول بعضهم إلى الصفوف الأولى فيها. ومنهم المافياوي الروسي بيريزينو فيسكي الذي تحكم بالكرملين طوال عهد يلتسين والذي لا يزال نافذاً في عهد خلفه بوتين. والأمثلة عصية على الحصر.

ب - مشاركة (إسرائيلية) عن طريق ضباط متقاعدین يقومون بأدوار تدريبية واستشارية لتجار المخدرات (في كولومبيا خصوصاً).

ج - التسهيلات التي تقدمها (إسرائيل) بصورة مموهة لزعماء الجريمة المنظمة ولمصالحهم.

د - المشاركة (الإسرائيلية) النشطة في تجارة الأسلحة وتهريبها. حيث نجد بصمات (إسرائيلية) في مناطق الفوضى الديموغرافية في العالم كافة.

هـ - تهريب البضائع (الإسرائيلية) إلى الدول العربية بكل الوسائل الاحتياالية المتاحة. بما في ذلك تزوير شهادات المنشأ وإعادة التصدير عبر قبرص أو عبر الدول العربية المتاخمة لـ(إسرائيل).

و - المشاركة في عمليات تبييض (غسيل) الأموال القذرة. ومنها ما تبين عن دور الموساد في فضيحة غسيل الأموال الروسية في الولايات المتحدة (1999) والتي تسببت بأزمة دبلوماسية أميركية - روسية. حتى أن بعضهم ربط بينها وبين استقالة يلتسين في 2000/1/1.

ز - دفن النفايات النووية والكيميائية في أراض عربية محتلة أو متاخمة لحدود الدول العربية.

ح - وجود أصابع يهودية في الكوارث الاقتصادية العالمية كافة. فقد كان اليهودي بيريزينو فيسكي مسؤولاً عن الانهيار الاقتصادي الروسي، واليهودي جورج شوروش كان مسؤولاً عن انهيار النور الآسيوية... إلخ.

ط - بيع المعلومات الجاسوسية. وما خفي منها أكثر مما هو معلن. والأمر يحتاج إلى بضع سنوات كي تتضح هذه الأسرار.

ك - ابتزاز العالم تحت ستار الهولوكوست وصولاً لابتزاز الفاتيكان نفسه "تبدى في زيارة البابا الأخيرة لـ(إسرائيل)"، وصولاً إلى مطالبة المصارف السويسرية بكميات هائلة من الذهب بحجة أنها مسروقات نازية من أموال اليهود.

ل - التدخل في الشؤون الداخلية للعديد من الدول ومحاولة ابتزازها بصور مختلفة. وأحدث الأمثلة على ذلك، تلك الضجة التي أثارها (إسرائيل) حول النمسا بعد انتخاب هايدر اليميني. حيث لا تزال (إسرائيل) تحاول تحقيق المكاسب مقابل تخفيف الضغوطات على النمسا.

هذه هي النماذج التي تحاول (إسرائيل) عبرها تحقيق كفايتها الاقتصادية ومع ذلك فهي تحافظ على وضعية دولية مثالية إذ تتمتع بـ:

أ - أعلى نسبة من المساعدات الخارجية الأميركية.

ب - اعتبارها دولة نظيفة من الإرهاب ومن دعمه بالرغم من تحديها المتكرر للقرارات الدولية.

ج - اعتبارها واحة ديمقراطية في المنطقة. بما في ذلك من تجاهل كونها مجتمعاً عسكرياً يحكمه جنرالات ويقررون مصيره.

د - دولة تحترم مبادئ حقوق الإنسان (بالرغم من التقارير المخالفة).

هـ - تحتكر تمثيل المصالح الأميركية والغربية في المنطقة حتى بعد زوال الخطر الشيوعي.

لهذه الأسباب مجتمعة يتهيب الإعلاميون والمفكرون الغربيون التعامل الواقعي مع حقائق الشرق الأوسط والتجاوزات (الإسرائيلية). حتى لا يلقوا النبذ والعقاب اللذين لاقاهما زملاء لهم تجرؤوا على ذلك. وعوملوا وفق المبادئ الرومانية (الصهيونية) الجاهزة لتجاهل الليبرالية في مثل هذه الحالات.

أما عن مناسبة استحضار هذه المعطيات فهي متشعبة ومنها مأزق المسار اللبناني - السوري الذي تحاول (إسرائيل) اختراقه على طريقة الكوزانوسترا (المافيا). حيث تقوم بتهديد وابتزاز الأطراف كافة وتصر على وجود طرف يقدم لها مكاسب مالية (الولايات المتحدة في هذه الحالة). لكن مناسبة مميزة من جملة مناسبات دعتنا لاستحضار هذه الحقائق وهي تتعلق بالمستقبل. والمناسبة هي دراسة قدمتها باحثة من جامعة بن غوريون

(الإسرائيلية) تشير إلى نمو طبقة من مليونيرات المخدرات (الإسرائيليين). وإلى وجود علاقات وثيقة بينهم وبين بعض كبار ضباط الشرطة (الإسرائيليين) الذين يحصلون، نتيجة هذه العلاقة، على مبالغ طائلة تحول إلى حساباتهم المصرفية في الولايات المتحدة. كما تشير هذه الدراسة إلى أن هؤلاء التجار بدأوا يلجأون إلى حلول عملية تخفض تكلفة بضاعتهم، وخصوصاً البانجو (مخدر رخيص ورائج). حيث تفتق ذهنهم عن تصدير شتول هذا المخدر إلى الدول العربية، التي تقيم علاقات مع (إسرائيل) لزراعتها هناك. وفي ذلك توفير مهم في التكاليف واعتماد عصري لمبدأ الشركة العملاقة. حيث يطاول التوفير عناصر عديدة، منها رخص الأراضي واليد العاملة وتوفير تكاليف ومخاطر التهريب. ثم، وهذا هو الأهم، هنالك مكسب السبق الذي يحققه التجار (الإسرائيليون) فيما يتعلق بمستقبل تجارة المخدرات في المنطقة. وهكذا فإنهم يفكرون دائماً في المستقبل ويحسبون الحسابات لمختلف الاحتمالات!

ولقد وصلت القضية إلى الكنيست (الإسرائيلي) حيث أثارها عضو ينتمي إلى حزب العمل الحاكم، مؤكداً أنه يملك الوثائق التي تدين التجار وضباط الشرطة معاً. إلا أننا نتساءل عما إذا كان يمكن للجنتين معاً أن يعملتا بعيداً عن أعين أجهزة الاستخبارات (الإسرائيلية) والأميركية معاً؟ وعن مدى تورط هذه الأجهزة مع هؤلاء؟ وعن إمكانية التدخل الفاعل لمنع هذا المدخول الإضافي للخرينة (الإسرائيلية)؟

وعن هذا السؤال الأخير أجابنا مؤلف "جوايسيس جدعون" المدعو "غوردون توماس". ولكن من يجيبنا عن سؤال منع هذه الزراعات في لبنان بهدف إتمام حصاره الاقتصادي الضاغط وليس لأسباب أخلاقية أو إنسانية؟ وكيف تصنع هذه الأخلاقيات والإنسانيات وتطبق على الجميع لتستثني منها (إسرائيل)؟ وهل يعني ذلك أن من شروط السلام احتكار (إسرائيل) لتجارة المخدرات حتى تكفل لنفسها دخلاً يعوضها من خفض المساعدات الأميركية لها ويؤمن لها مستقبلها؟ أم أنها سياسة التطبيع عن طريق البانجو (وغيره من مواد الإدمان) بأسعار في متناول الأيدي الفقيرة؟ لقد ينست (إسرائيل) من كل أساليب التطبيع (الهادفة لتحويل الأغيار من أبناء إسماعيل _ العرب إلى مجرد أسماك ملونة في حوض يتفرج عليه "الإسرائيليون" ويتحكمون بمياهه ونظافته وغذائه) وها هي تلجأ إلى أسلوب التطبيع البانجو. فهل يتحرك مكتب المخدرات في الأمم المتحدة. وهل يمكن لأحد أن يخبرنا بالحصاة (الإسرائيلية) في سوق المخدرات العالمي المسموح بها أميركياً؟ وكلها أسئلة فرعية لأن السؤال الرئيسي يبقى: من يحمينا من الإرهاب (الإسرائيلي) في صورته هذه كما في صورته الأخرى؟

4- هل تصبح (إسرائيل) مكاناً لتجميع الشواذ (17):

أعلن مؤسس التحليل النفسي سيغموند فرويد إحداه في كتابه المعنون "موسى والتوحيد"، لكن هذا الإلحاد لم يمنع اليهود من دعم فرويد ونظريته. حتى بدت جماعة التحليل النمسوية، وكأنها جمعية من الجمعيات اليهودية السرية. ولقد فشلت محاولات فرويد تطعيم جماعته بأعضاء من ديانات أخرى. وكانت قطيعته مع يونغ في العام 1912 تكريساً للهوية اليهودية للتحليل. وهو تكريس لم يتم اختراقه إلا في مطلع الستينيات عندما تمكن الكاثوليكي _ الفرنسي جاك لاكان من إجراء مراجعة عامة للنظرية التحليلية، تحت شعار "العودة إلى فرويد".

في مجالنا هذا لا تهمنا التفصيلات الاختصاصية، بل يهمننا السؤال عن سبب استمرار قبول فرويد، والتفاخر اليهودي بانتمائه إلى اليهود، على الرغم من إحداه؟ والجواب عن هذا السؤال متشعب وممكن التلخيص بالنقاط الآتية:

1- نعمة الولادة اليهودية حيث ينظر اليهود إلى الأغيار على أنهم لا يرقون إلى مستوى البشر (أي اليهود). وبهذا فإن المولود لأبوين يهوديين هو إنسان أرقى حتى ولو كان ملحدًا.

2 - قد يكون فرويد ملحدًا، لكن إحداه لم يستطع تخليصه من أثر التربية اليهودية التي تلقاها، ولا من أثر الانتماء اليهودي في تكوين لا وعيه، وبالتالي فكره الإلحادي. وبمعنى آخر فقد كان فرويد يهوديًا ملحدًا. وتتبدى يهوديته في العديد من منطلقاته النظرية، ولعل أهمها بطريكية التحليل. والأهم من ذلك التركيز المكثف على الجنس وأثره، وعلى الأساطير الجنسية، بدءاً من أسطورة أوديب، مروراً بأسطورة جوكاست (الأم التي تهوى ابنها) وصولاً إلى أسطورة ديان (تعشق بنات جنسها).

3 - أوديب وجوكاست وديان، ومعها الجنس محور السلوك ومحركه، بدت وكأنها محاولات إقناع حديثة بالأساطير الجنسية اليهودية.

وأكتفي بهذا القدر حتى لا نغرق في التفصيلات. مع الإشارة إلى أن يهودية التحليل لا تلغي علميته خصوصاً بعد أن تمت مراجعته على يد لاكان وغيره. على أي حال فإن مناسبة الحديث هي إصدار المحللة الإسرائيلية "مادلين بالوم" كتاباً بعنوان "تاريخ الثدي"، وفيه الثدي رمز جنسي بالطبع. وفي الكتاب محاولة لتوظيف ثدي المرأة في كتابة التاريخ السياسي، بتمرير العديد من الإيحاءات الجنسية مع استغلال الثدي في الدعاية لتجارة جنس يهودية جديدة.

بادئ ذي بدء، وقبل التطرق إلى محتويات الكتاب، فإن (إسرائيل) تسعى جاهدة لتوظيف إمكاناتها العلمية في المجال الطبي، حيث تسعى لاجتذاب مرضى العالم الثالث للعلاج فيها. وتحاول إغراء المرضى العرب للقادم إليها من أجل العلاج. ومن فنونها في ذلك الإعلانات المكثفة عن مراكز طبية في المجالات ذات الجاذبية الخاصة مثل: إزالة السمنة ومعالجة العقم والصلع، وأخيراً عمليات تجميل الصدر (الثدي) الذي يصب الكتاب في مجال الترويج له. وهذا الترويج بات موضوع اهتمام الصحافة (الإسرائيلية). وهنا بعض المقتطفات:

1 - أجرت صحيفة "معاريف" (الإسرائيلية) مقابلة مع فتاة في الـ 19 من عمرها (أصغر إسرائيلية أجرت عملية تجميل لصدرها) حول أسباب إجرائها للعملية؟ فأجابت: لقد فقدت علاقتي بالرجال بسبب عدم تناسق جسدي، وخصوصاً صغر الثدي فأجريت العملية.

ويزداد اهتمام الصحافة (الإسرائيلية) الصفراء بهذه الفتاة حتى تكاد تتحول إلى نجمة اجتماعية. وهذا سيدفع فتيات أصغر منها لإجراء العملية.

2 - قامت صحيفة "يديعوت أحرونوت" بإحصائية بينت أن 70% من الرجال (الإسرائيليين) يفضلون الصدر الممتلئ (شرط ألا يكون مغشوشاً بعملية تجميل!! أو على الأقل أن يجهلوا هم ذلك).

3 - في الاستطلاع السابق صرح الشبان ممن هم في العشرينات، بأنهم يعتقدون أن الفتيات يقبلن على العملية كي يتمكن من استغلال أجسادهن بصورة أفضل (مثل الزواج بعجائز أغنياء).

4 - تتسابق الصحافة (الإسرائيلية) في مجال الدعاية للثدي. إذ قامت محطة تلفزيونية (إسرائيلية) بانتخاب عشر شهيرات اعتبرتهن صاحبات أجمل الصدور في العالم. كما أقامت إحدى دور الأزياء عرضاً تحت عنوان "أجمل ثدي في العالم" حظي بتغطية صحفية تنافسية، كما أقامت مزاداً عن حمالة صدر لأكبر الأثداء. عداء عن التركيز الإعلامي (الإسرائيلي) على الموضوع.

5 - يتم إنتاج أفلام بورنو (داعرة) لإغراء النساء بإجراء عمليات تكبير الصدر. وبهذا العرض المختصر لهذا الاهتمام العام (الذي لا يمكنه أن يكون مجرد مصادقة) ننتقل إلى كتاب مادلين بالوم، فنشير بداية إلى ترجمته إلى لغات عدة، وخصوصاً الإنكليزية والألمانية. ومع أن المؤلفة أهدت الكتاب إلى زوجها، إلا أنها وعدت بإهداء طبعته الثانية لأنثى، وذلك كموقف رمزي يعكس اهتمامها بالسيدات (الإسرائيليات) اللواتي يتم استغلالهن وسوقهن كالجمال.

والواقع أن بطريكية المجتمع اليهودي المتطرفة تبرر موقف المؤلفة بالوم، لكن ما يدعو للعجب أن هذه المحللة تجنبت مناقشة هذه القضية في عمقها، لمعرفة بمدى مساس هذه المناقشة باللاوعي الجماعي (الإسرائيلي). فإذا بها تتوقف عند حدود الكلام على المخاطر التي تتحملها المرأة عبر عمليات تجميل الثدي، لكي تنال رضى الرجل وإعجابه. وهي مخاطر تصل إلى حدود تكرار العملية واحتمال الإصابة بالسرطان، أو الموت أثناء التخدير... إلخ، وكل ذلك بهدف استغلال المرأة وتحويلها إلى مخلوق أكثر مناسبة للرجل.

وهكذا تتجاهل بالوم مأساة الكثيرات من اليهوديات اللواتي لا يحصلن على الطلاق، لأن ذلك مرتبط بالحاخامين الذين، وبالاستناد إلى الشريعة اليهودية، يضطهدون النساء ويستغلونهن بأساليب وبطرق متعددة، وهذا جانب مظلم في المجتمع (الإسرائيلي) نادراً ما يتم التطرق إليه، خصوصاً أن الديانة اليهودية تسمح بالتعدد اللامحدود للزوجات، وإن كانت القوانين العلمانية تمنعه.

وهذا يدعو للتساؤل عن سبب اختصار المحللة لحقوق المرأة (الإسرائيلية) في مجال الثدي وحده؟! ردة الفعل الأولى على طروحات المؤلفة جاءت من شريحة من الشباب، الذين تراوحت أعمارهم بين 20 و 31 سنة، والذين قالوا في استفتاء لصحيفة "يديعوت أحرونوت" إن النساء يقبلن على تجميل الصدر من أجل تحقيق المكاسب المادية، مثل العمل في مجالات الدعاية والإعلان، أو مثل الزواج برجال عجائز أثرياء.

لكن اللافت، الذي يدفعنا للاهتمام بالكتاب وبالموضوع إجمالاً هو أن الكتاب لم يأت منفرداً بل أنه أتى في سياق حملة محمومة لمناقشة الموضوع. حتى تحول الثدي إلى قضية من قضايا الساعة والرأي العام في (إسرائيل). ونحن نعلم أن الإعلام (الإسرائيلي) لا يتبنى قضية ويركز عليها إلا ضمن تطلعات محددة، فما هي كوامن "إستراتيجية النهود الإسرائيلية"؟

- 1 - علينا التنبه الى أن موضوع تكبير الصدر يهم بالدرجة الأولى الذكور الشواذ ومثل هذه الضجة تجلب هؤلاء من مختلف أنحاء العالم لإجراء العملية في (إسرائيل). ولعلنا نلاحظ أن (إسرائيل) بدأت تولي السياحة العلاجية اهتماماً متزايداً وتلجأ إلى أساليب عديدة ملتوية لجذب المرضى العرب خصوصاً.
- 2 - إن (إسرائيل) تطرح نفسها كجنة للشواذ في أوساط تجمعات الشواذ في العالم. ومن ذلك دفاع عضو الكنيسة "ياغيل دايان" عن الشذوذ (أمام المتعصبين اليهود) بقولها: "لقد تعلم هؤلاء الشذوذ من ملككم".
- 3 - يدعم الموقف السابق جملة أساطير (إسرائيلية) شاذة من سدوم إلى عمورة بما يعطي لـ(إسرائيل) طابع أرض ميعاد الشواذ ولو عارض ذلك المتشددون. إذ تشير المعلومات إلى انتشار الشذوذ بين المتشددين أنفسهم. والأخطر أن الحملات (الإسرائيلية) لجلب الشواذ كانت قد بدأت قبل أعوام، ووصلت إلى حد الدعاية المكشوفة، وعندها دافع الإعلام (الإسرائيلي) عن التهمة بروايات عن الشذوذ. الذي يمارس في الحمامات التركية المنتشرة في الدول العربية.
- إن (إسرائيل) تسعى جاهدة لتحريك بركان الأقليات في الوطن العربي وعلى تخومه، وتجهد لإقامة علاقات وثيقة مع الأقليات المعارضة لتوظيفها للمصلحة (الإسرائيلية). وها هو التركيز قد بدأ على قطاع أقليات الشواذ، وهذا يفسر "إستراتيجية النهود الإسرائيلية".

* * *

هوامش ومراجع الفصل الثاني

- 1 - محمد أحمد النابلسي: محاضرة في ندوة اتحاد الكتاب العرب باللاذقية - منشورة في مجلة فكر، العدد 73 - يوليو 2000
- 2 - مصطفى زيور: أضواء على المجتمع (الإسرائيلي) - دراسة في التحليل النفسي - منشورة في مجلة الثقافة النفسية المتخصصة العدد السادس، 1991
- 3 - من هنا اتفاق الباحثين على أن اليهود لعبوا دوراً وظيفياً هاماً في إرساء أسس الرأسمالية. حيث كان ذلك يتطلب عدوانية المرابي التي تترفع عنها الشعوب الأوروبية. خصوصاً في تلك الحقبة.
- 4 - هذه الواقعة يؤكدتها الإستراتيجيون (الإسرائيليون). وعلى رأسهم يوسي بيلين (وزير العدل في حكومة رابين) إذ يحذر في كتابه "موت العم الأميركي" من خطر نوبان اليهود خارج (إسرائيل) ويعتبر هذا النوبان كارثة ومقدمة لنهاية (إسرائيل) - انظر فصل "نهاية إسرائيل" في هذا الكتاب.
- 5 - انظر فصل "نشأة معاداة السامية" في هذا الكتاب.
- 6 - انظر فقرة "إعادة تصدير اليهود العرب" في هذا الفصل.
- 7 - هذا الدور الذي بدا يتكرس عملياً منذ قمة شرم الشيخ (وزراء الداخلية العرب _ 1996) وبعدها بقمة شرم الشيخ أيضاً (2000) السابقة لمؤتمر القمة العربي المنعقد بعدها بأيام (21- 2000/10/22).
- 8 - ترسخت هذه العلاقات الاستقرادية لدرجة تراث مؤتمر القمة العربي (أكتوبر - 2000) في اتخاذ قرار بوقف هذه العلاقات.
- 9 - محمد أحمد النابلسي: سيكولوجية السياسة العربية - العرب والمستقبلات - فقرة "الميليشيات الأميركية البيضاء"، دار النهضة العربية 1999
- 10 - انظر فصل "نهاية إسرائيل" في هذا الكتاب.
- 11 - تجدر الإشارة إلى أن هذه الورقة قد نشرت بتاريخ 1 تموز (يوليو) 2000 أي قبل ثلاثة أشهر من زيارة شارون للأقصى (2000/9/28).
- 12 - محمد أحمد النابلسي: منشورة في جريدة "الكفاح العربي" بتاريخ 2000/9/21
- 13 - محمد أحمد النابلسي: انظر فصل "النفط والقدس والمستقبل" في هذا الكتاب.
- 14 - محمد أحمد النابلسي: منشورة في جريدة "الكفاح العربي" بتاريخ 2000/9/22
- 15 - محمد أحمد النابلسي: منشورة في جريدة "الكفاح العربي" بتاريخ 2000/5/6
- 16 - غوردون توماس: جواسيس جدعون - التاريخ السري للموساد، مترجم إلى العربية - دار سطور، 2000
- 17 - محمد أحمد النابلسي: منشورة في جريدة "الكفاح العربي" بتاريخ 1999/5/14.

الفصل الثالث

سيكولوجية الاحتيال

المفاوض (الإسرائيلي) نموذجاً

بعد جولات طويلة من المفاوضات العربية- (الإسرائيلية) لا بد لنا من تقييم رجعي لمجريات هذه المفاوضات. مع ضرورة التعرف والتحليل الرجعي لعناصر المهارة التفاوضية الموظفة في الجولات التفاوضية متعددة المستويات ومتنوعة أساليب الضغط. فالمهارة التفاوضية باتت تعتمد في جزء منها على فرع سيكولوجي ناشئ يسمى بـ: "سيكولوجية التفاوض". ومنه تتفرع "سيكولوجية حل النزاعات". وهذا الفرع لا يشكل اختصاصاً قائماً بذاته بل هو يعمل على توظيف وتسخير كافة الميادين والمعارف السيكولوجية المتاحة في مجاله. وخصوصاً لجهة دعم المهارة التفاوضية. مما يعني امتداده من السياسي إلى كافة الأوضاع التي تتطلب التفاوض. من هنا نجد أن بإمكان هذا الفرع أن يساعدنا على تدعيم قدراتنا التفاوضية. لكن الأهم هو كونه يساعدنا على اكتشاف أساليب (إسرائيل) التفاوضية وأيضاً اختلاف هذه الأساليب بين مفاوض (إسرائيلي) وآخر.

في ما يلي سنركز على الأسلوب التفاوضي (الإسرائيلي) الأساسي متجاهلين الفروق الفردية بين مفاوض وآخر. فقد أثبتت المفاوضات الطويلة أن الفروق الفردية لا تخرج عن كونها فروقات تكتيكية في حين تبقى الأهداف الإستراتيجية على حالها من العدائية دون أية تغييرات تذكر. بل غالباً ما يكون تغيير المفاوض (الإسرائيلي) مناسبة للعودة إلى الوراء عن طريق التنكر والإنكار للخطوات السابقة. وهذا ما يدفعنا إلى تحري جرة الاحتيال في سلوك المفاوض (الإسرائيلي). لذلك نرى الحاجة لتقديم تعريف علمي لشخصية المحتال كخطوة لعقد المقارنة بين السلوك الاحتيالي وبين السلوك (الإسرائيلي).

1 - سيكولوجية المحتال:

كان القانون الروماني القديم يعتبر الاحتيال (أو استعمال الخديعة والحيلة مع شخص لحمله على التنازل عن مكاسبه لمصلحة المحتال) نوعاً من المهارة، وهو كان يقسم الاحتيال الى نوعين:

1- احتيال جائز: وهو الذي يمارس ضد الأجنبي (أو العدو) و 2- احتيال غير جائز: وهو الذي يقع على الأشخاص المواطنين. فالقانون الروماني لم يكن يعترف للأجنبي بأي حق. أما عن الملامح السيكولوجية لشخصية المحتال فيمكن تصنيفها كما يأتي:

أ - صاحب رغبة شديدة بالربح (جشع) مع عدوانية متطورة لكنها تتجنب استخدام العنف لتحقيق رغبة الربح (ربما خوفاً من القانون).

ب - انعدام المبادئ الأخلاقية. مما يعني استعداد المحتال لاعتماد كافة السبل اللاأخلاقية لتحقيق أهدافه.

ج - يملك قدرة فائقة على إقناع ضحاياه.

د - يستعين بطرف ثالث (يحالفه أو يستغله) في إقناع الضحايا.

هـ - يسعى جاهداً لمعرفة أحوال ضحاياه وظروفهم بما يسهل له الإيقاع بهم.

و - التغيير المستمر في أساليبه الاحتيالية (تعدد الوجوه والأدوار).

ز - يقتضي تسويق الاحتيال جرأة ووقاحة من نوع خاص. فبيع الأوهام يقتضي الجرأة والحصول على أعلى

ثمن لها يقتضي الوقاحة.

ح - القدرة على تمثيل الأدوار الاحتيالية.

ط - حسن اختيار الضحية من بين الضحايا المرشحين واستغلال ظروفها.

ك - انعدام مشاعر الذنب (مرتبطة بانعدام الضمير الأخلاقي)، التي تتيح للمحتال جرأة عدم الوفاء بالتزاماته

ووقاحة إعطاء وعود جديدة بقصد استمرارية الابتزاز.

ل - الطموح المرضي، الذي يجعل المحتال يطالب وبطمع بتحقيق مكاسب لا يستحقها باستغلاله للآخرين.

م - مهارة توظيف الآخرين لدعم قدرته على الإقناع وموقعه الاحتيالي لغاية تحريك أطراف عديدة للتسابق من

أجل الحصول على ما يعد به من مكاسب وهمية.

ط - الخوف من المستقبل، وهو من نقاط الضعف النادرة لدى المحتال. وهي كفيلة أن تسوغ له استغلال

الآخرين، ولأن تزيد من عدوانيته تجاههم بوصفهم مهددين له ومثيرين لخوفه من المستقبل ومن الفقر

خصوصاً.

وفي حالة (إسرائيل) تضاف إلى هذه الملامح قناعات من نوع:

1- شعب الله المختار مع ما ينطوي عليه من عدوانية تجاه الآخر. 2- احتقار الأغيار. 3- مبادئ الحقوق اليهودية

عامة.

أما موقف الولايات المتحدة في المفاوضات فإنه يستجيب لموقف الطرف الثالث الذي يستعين به المحتال لتدعيم

مزاعمه، وحمل الضحية على تصديقه. فالكذب وحده لا يكفي بل هو يحتاج غالباً إلى تأييد ادعاءات المحتال عبر

طرف ثالث. ولا يهم هنا أن يكون الطرف الثالث حسن أو سيئ النية. بل إن المهم في أن يكون هذا الطرف الثالث

مستقلاً عن المحتال. بمعنى أن يكون تصديقه على ادعاءات المحتال صادراً عن رأيه الشخصي المستقل، وأن

يكون هذا التدخل قد تم بناء على سعي المحتال وتخطيطه (1).

2 - المحتال من وجهة نظر التحليل النفسي:

تذكر هيلين دويتش (Helene Deutsch) في مقال لها بعنوان "المحتال، إسهام في سيكولوجية الأنا لدى واحد

من السيكوباتيين" (2)، أن العالم مليء بشخصيات "كأن" (As If) والمحتالين والمدعين... ومنذ أصبحت مهتمة

بالمحتال وهو يتبعني أينما ذهبت، فأنا أجده بين أصدقائي ومعارفي، كما أجده في نفسي... إن المحتال المريض

يحاول تقليل الفروق بين الأنا المثالي المتضخم بطريقة مرضية، والجزء الآخر من أناه المحتقر الأدنى والمحمل بالذنب بشكل خاص".

إنه يتصرف كما لو كان أناه المثالي متطابقاً معه ، ويتوقع من كل فرد آخر أن يعترف بذلك. فإذا كان الصوت الداخلي لأناه المحتقر من ناحية، واستجابات العالم الخارجي من ناحية أخرى، تذكره بعدم واقعية أناه المثالي، فإنه يتعلق بالموقف النرجسي، ويحاول بيأس من خلال الادعاء، وتحت ستار اسم شخص آخر، أن يحافظ على أناه المثالي وأن يفرضه على العالم.

وهناك صراع مماثل رغم طبيعته المعتدلة - ينشأ لدى الشخصية السوية فالأنا المثالي لدى الفرد لا يمكن إشباعه تماماً من الداخل، لذلك نوجه احتياجاتنا نحو العالم الخارجي، مدعين أننا بالفعل ما نود أن نكونه. وكثيراً ما نواجه استجابات بارانوية لدى الشخصية السوية، لأن البيئة رفضت أن تقبل خداعاً من هذا النوع.

أما ليونيل فنكلشتين (3) (Lionel Finkelstein) فيرى أن المحتال شخص ينتحل اسماً أو هوية، بغرض خداع الآخرين. إنه نوع من الكذاب المريض الذي يأمل أن يكسب من خداعه.

وعلى العكس من المتباهي أو المدعي الذي يفشل في خداع الناس ويتركهم متأثرين بادعائه، ينجح المحتال لفترة على الأقل في إبهار ضचितه وحملها على تصديق خداعاته. إن لعب الدور لديه يختلف عن الأشكال الأكثر سواء من الادعاء. والأدوار عنده هي أشكال من البراعة أو اللعب. الذي يتضمن سلوكاً تكرارياً قهرياً ينشأ عن صراعات داخلية مرضية غير محلولة.

إن الصفة الجبرية لهذا السلوك تماثل تلك الموجودة في الأشكال الأخرى من السلوك الاندفاعي الذي قد يسمى تفعيلاً. إلا أن الأفعال الاحتيالية ليست تفعيلاً بالمعنى الدقيق لإعادة تمثيل الأحداث بما يخدم منع الاستدعاء المؤلم للأحداث المكبوتة منذ الطفولة.

إن المحتال قد يكون أو لا يكون نصاباً (يحتال على الناس ليسلب أموالهم بعد أن يكسب ثقتهم)، أو مخادعاً غشاشاً، أو سيكوباتياً متورطاً في أفعال مضادة للمجتمع أو أفعال إجرامية، علاوة على ذلك، ينتحل عديد من الناس دور الاحتيال في أوقات معينة من حياتهم فقد بتبنى المسافرين إلى مدن بعيدة عن منازلهم أسماء وهمية، كما أن حياة الخلاعة للمثليين جنسياً تكون مليئة بالأزياء الغريبة، والأسماء الوهمية، والخداعات الأخرى. ولكن المحتالين الحقيقيين يحيون حياة تجعلهم لا يحضرون للتحليل إلا إذا وقعوا في مشاكل فضائحية. فإذا أتوا بحثاً عن المساعدة سرعان ما يبدو أن شخصياتهم تجعلهم يستعصون على التحليل فضلاً عن العلاج. إن عدم الأمانة، والسطحية، وعدم تحمل الإحباط، والميل نحو الفعل، والميول المرضية الكامنة العميقة لديهم تميل إلى إحباط أي محاولات تبذل لمساعدتهم.

وترى فيليس جرين إكر (4) (Phyllis) أن المحتال ليس مجرد كذاب ولكنه نمط خاص جداً من الكذابين يفرض على الآخرين تلفيقاً عن إنجازاته ومركزه الاجتماعي، وممتلكاته الدنيوية، وقد يفعل ذلك من خلال تحريف هويته الرسمية بتقديم نفسه باسم زائف مصطنع، أو فقرات أخرى من الهوية الشخصية وسواء كانت مستعارة

منتحلة من شخص آخر واقعي، أو مصاغة وفقاً لمفهوم متخيل عن نفسه. ونرى لديه تزييفات مماثلة لإنجازاته، وانتحال على نطاق واسع أو عبر ادعاءات غير قابلة للتصديق. ويبدو أن الخداع يتضمن الأمل في حصول المحتال على شيء مادي أو أية فائدة ملموسة.

إن التعارض بين الهويات الأساسية والهويات المنتحلة المدعاة قد لا يكون مبالغاً وتبعاً لذلك فهو لا يخضع للتفسير السطحي القائل بأن الاحتيال يتم بغرض الكسب المباشر. فاستعراض القليل من أمثلة الاحتيال يكفي كي يبين لنا إلى أي مدى يكون العديد من النصابين المحتالين غير ناضجين على الرغم من مهارتهم، وإلى أي مدى يكون تخطيطهم خاطئاً، وإلى أي مدى في الواقع ينقصهم عنصر الحصافة.

علاوة على ذلك يتضمن الموقف الاحتيالي صفة المسرحية الاستعراضية مع الاعتماد الكلي على استجابة الضحايا للخداع. وفي بعض الأمثلة يبدو النصاب ناجحاً فقط لأن الآخرين، مثلهم في ذلك كمثل الجاني لديهم ميل شديد لتصديق الاحتيال، وأن أي نجاح لمثل هذا الاحتيال يعتمد في الواقع على عوامل اجتماعية وفردية قوية وتقبل خاص للاندفاع والاحتيال. إلى هذا الحد يكون هؤلاء الذين يفرض عليهم الاحتيال ليسوا مجرد ضحايا ولكنهم شركاء يتواطأون بوعي أو بدون قصد.

مما سبق نتضح لنا النقاط التالية:

1 - تتفق هيلين دويتش مع ليونيل فنكلشتين في أن السلوك الاحتيالي يمتد على متصل من السواء إلى اللاسواء حيث توجد بين الأسوياء أنواع من السلوك تعد من قبيل الاحتيال والادعاء، ولكنها تأخذ في حالة اللاسواء طابعاً مرضياً خاصاً يتميز بالصفافة.

2 - يقترب تعريف فنكلشتين وجرين إكر من التعريف القانوني للنصاب حيث يؤكدان أن المحتال يأمل أن يكسب بعض الفائدة من خداعه ولكنهما يؤكدان أيضاً أن هذا ليس الدافع الأساسي للاحتيال.

3 - يذكر كل من فنكلشتين وجرين إكر سمات لشخصية المحتال مثل عدم الأمانة والسطحية، وعدم تحمل الإحباط، والميل نحو الفعل، وعدم النضج، والتخطيط الخاطيء، ونقص الحصافة، والاستعراضية والاعتماد على استجابة المشاهدين.

4- تؤكد جرين إكر على أهمية الضحية في إنجاح الاحتيال حيث يكون لديهم ميل للتصديق.

5- تقتصر دلالة التعريفات السابقة على نوع واحد من المحتالين وهو منتحل الشخصية الذي يقوم باستعارة اسم أو صفة أو هوية شخص آخر، سواء كان هذا الشخص واقعياً أم غير واقعي.

وبالرغم من كثرة البحوث والدراسات التحليلية المهمة بالمحتال فإن تحليل الاحتيال على مستوى جماعي يدفعنا للعودة إلى فرويد. حيث نجد أنه يفند الصفات الاحتيالية في الشخصية اليهودية (راجع الفصل السابق- سيكولوجية الخداع). حيث يذكر فرويد الادعاءات الكاذبة والمتكررة في التاريخ اليهودي. ويشير إلى احتيال اليهود بادعاء نسبتهم إلى الآباء الأوائل حتى يخففوا من ردود الفعل التي يظهرها السكان المحليين ضدهم بوصفهم غزاة

ومستعمرين. كما أشار فرويد إلى الطابع السايكوباتي - البارانونيا بالشخصية اليهودية - راجع أقوال فرويد في الفصل السابق.

تعريف المحتال: بناء على ما سبق يعرف القانون المحتال بأنه: "كل من يتوصل إلى الاستيلاء على خيرات مملوكة للغير، سواء كان ذلك بالاحتيال أو باستعمال طرق احتيالية من شأنها إيهاام الناس بوجود مشروع كاذب، أو واقعة مزورة، أو خلق الأمل بحصول ربح وهمي، أو تسديد المبلغ الذي أخذ بطريق الاحتيال، أو إيهاامهم بوجود سند دين غير صحيح، أو سند مخالصة مزور، وإما بالتصرف في مال ثابت أو منقول ليس ملكاً له ولا له حق التصرف فيه، وإما باتخاذ اسم كاذب أو صفة غير صحيحة" (5).

3- واي رايفر - جولة احتيال:

إذا أخذنا هذا الاتفاق كمثال فإننا نلاحظ وجود طرف ثالث (أميركي) يمارس ضغوطات حادة على المتفاوضين، بحيث توصلت هذه الضغوط إلى التسليم الفلسطيني بدفع الثمن المطلوب، وإلى القبول (الإسرائيلي) بالالتزام بتثبيت حجم التنازلات عند الحدود التي أعلنتها (إسرائيل) نفسها. لقد كان ذلك الثمن باهظاً ومحرجاً للفلسطينيين لدرجة استدعت حضور الملك حسين، ومع ذلك لم ينفذ ننتياهو ذلك الاتفاق، وها هو باراك يفضل التريث والمماطلة في تنفيذه.

وعدم الوفاء هذا يندرج في باب الاحتيال، حيث من المناسب أن نعرض لسيكولوجية المحتال قبل تطبيق مبادئها على هذا المثال.

أ - استراتيجية الاحتيال في واي رايفر:

في البداية لا بد من الإشارة إلى وضعية الطرف الثالث الذي تمثله الولايات المتحدة حيث جهد هذا الطرف وبسعي (إسرائيلي) حثيث لإبعاد الأطراف الأخرى المشرفة على المفاوضات. كما أن تدخل الولايات المتحدة يتم بتدبير (إسرائيلي). وليس أدل على ذلك من طلب باراك تقليص تدخل الولايات المتحدة في الفترة المقبلة، وهو طلب علني عبر مؤتمر صحفي.

إن استجابة الولايات المتحدة لهذا الطلب، يكرس سوء نية أميركي في عمليات الاحتيال (الإسرائيلي). فالأطراف العربية لا تستطيع أن تطلب مثل هذا الطلب وأن يلقي الاستجابة. وفي عودة إلى واي رايفر، نجد أن الرئيس كلينتون قد مارس ضغوطاً غير عادية على الفلسطينيين لدرجة إحراجهم أمام الرأي العام العربي. حيث كان استدعاء الملك حسين (المنازع في حينه) نوعاً من التعطية على هذا الإحراج، الذي يتلخص بقبول فلسطيني لكافة الشروط (الإسرائيلية) المعلنة.

في المقابل احتاج كلينتون إلى بذل جهود مماثلة لإقناع ننتياهو بالتوقيع على اتفاق يستجيب لكافة شروطه. فماذا كانت النتيجة؟

النتيجة كانت إصرار المفاوض (الإسرائيلي) على ربط بند قيام الدولة الفلسطينية بعبارة "بموافقة جميع الأطراف"! وهذه العبارة تعني بحد ذاتها ربط تنفيذ الاتفاق بمفاوضات أخرى. بمعنى أنها تفقد الاتفاق قيمته

وتحول التنازلات الفلسطينية إلى مجانية. ومع ذلك وقع الفلسطينيون فكانت النتيجة رفض (إسرائيل) تطبيق أي خطوة من خطوات هذا الاتفاق! للتبسيط نعطي مثلاً (مع الاحتفاظ بالفوارق بين المثال والواقع) أن يكون أحد الأشخاص موجوداً في قطعة أرض (بوضع اليد) ويأتي صاحب الأرض ليطالب بأرضه فيضع الشخص شروطه للخروج من هذه الأرض. ويوافق صاحب الأرض على هذه الشروط ويدفع له الثمن المطلوب. لكن الشخص يرفض المغادرة ويبدأ بفرض شروط جديدة مستغلاً تورط صاحب الأرض بدفع الثمن وعدم قابلية استرداده. فإذا ما قبل الشروط الجديدة راح المحتل يفرض شروطاً أخرى وهكذا دواليك... أليست هذه القصة نموذجاً للعمليات الاحتيالية؟ ولكن ماذا نستنتج من "واي ريفر" ومن هذه القصة التي تبسطه؟ من الطبيعي بعدما تقدم أن نستنتج ما يأتي:

- 1 - إن شروط (إسرائيل) المعلنة ليست حقيقية، وهي مجرد فخ لاستدراج المفاوض العربي. فإذا ما قبل بها على الرغم من قساوتها وعدوانيتها فإنه لن يحصل سوى على مشروع مفاوضات جديدة. ومن البراهين المؤكدة لذلك ما تمثله مراقبة المسار التفاوضي الفلسطيني في مراحل المتعددة.
- 2 - تسعى (إسرائيل) للحفاظ على وضعية الساعية للسلام. وذلك عبر وضعها شروطاً في غاية الإحراج للمفاوض العربي، فإذا ما قبل بها فإن شروطاً أكثر إحراجاً تنتظره.
- 3 - إن دور الولايات المتحدة كطرف ثالث ليس دوراً حيادياً، وهو خاضع لإشارات المفاوض (الإسرائيلي). وبالتالي فإن حجم الضغوطات الأميركية على الأطراف ليس متوازياً، وبالتالي فإنه غير عادل.
- 4 - لقد سدت الولايات المتحدة فراغ غياب الاتحاد السوفياتي بتدخل مباشر في المنطقة الأمر الذي يحرم (إسرائيل) من استخدام العنف. لذلك نجد أنها توظف عدوانيتها بالجشع التفاوضي معتمدة سياسة الابتزاز المرحلي.
- 5 - تملك (إسرائيل) قدرة إعلامية مهيمنة وتوظفها في إقناع الرأي العام العالمي، والحصول على موافقته ودعمه لخروجها على أخلاقيات التفاوض، وفي طليعتها الالتزام بالمبادئ، حيث تملصت (إسرائيل) من كل هذه الالتزامات.
- 6 - من الصعب إيجاد منافس لقدرة (إسرائيل) على تمثيل الأدوار الاحتيالية. فقد تنصل ننتياهو مثلاً من بنود واي ريفر بحجة معارضة الرأي العام (الإسرائيلي) لها (وفي هذا منتهى الديمقراطية الليبرالية التي يجب ألا تغضب أحداً!). وبدوره وعد باراك بعرض أية نتائج مفاوضات على الاستفتاء العام تأكيداً لهذه الديمقراطية.
- 7 - أما عن حسن اختيار الضحية فقد بدأ بمصر (بظروفها الخاصة وفي طليعتها عجز خليفة زعيم مثل عبد الناصر عن ملء فراغه) مروراً بالأقطار العربية الأخرى، مع تلازم حسن الاختيار (الإسرائيلي) بالصبر المؤدي إلى حسن التوقيت.
- 8 - عندما نتكلم عن (إسرائيل) فإننا لا نتكلم عن طموح مرضي فقط، بل عن جنون عظمة (بارانويا) غير محدود، ومكرس في الأدبيات (الإسرائيلية).

9 - نأتي إلى مهارة استخدام الأطراف ودفعها للتسابق على وضعية الضحية فنجد هذه المهارة تتجسد في قدرة (إسرائيل) على فصل المسارات العربية، والاستفراد بكل طرف عربي على حدة، بعد تجريده من أعماقه الإستراتيجية.

10 - الخوف من المستقبل، وهو عنصر بارز في السلوك (الإسرائيلي) الراهن حيث تسعى الولايات المتحدة جاهدة لخفض إنفاقها المخصص أساساً لمواجهة الشيوعية. وحيث السلام مخرج لتخليص الولايات المتحدة من التزاماتها المالية تجاه (إسرائيل). وهذا ما يثير رعب (إسرائيل) من المستقبل. وهو يدفعها للسؤال: "ماذا لو تصاعد تناقض المصالح الأميركية مع تلك (الإسرائيلية)؟".

إن ما ذكرناه يشكل تشخيصاً سيكولوجياً لا يقبل الشك باعتماد (إسرائيل) لمبادئ الاحتيال بجرأتها ووقاحتها. وعليه فإن (إسرائيل) هي النموذج المعاصر الفاضح للقانون الروماني، الذي ينزع عن الآخر أي حق، ويعتبر الاحتيال عليه احتيلاً جائزاً وليس جرمًا. ولعل قمة الوقاحة الاحتيالية (الإسرائيلية) كامنة مؤقتاً، وظاهرة لاحقاً تحت شعار "أن (إسرائيل) تملك القوة الكافية لفرض شروطها فلماذا التفاوض؟". وهذا الطرح ليس من بنات أفكارنا، فهو الطرح المعلن (للإسرائيليين) المتطرفين الذين وجدوا في ننتياهو "حمامة سلام" والذين قتلوا رابين لمجرد ملامسته خطوطهم الحمراء. إنهم أولئك الذين يهددون باراك بالاعتقال فحولوا المحتال إلى بطل. ويبقى السؤال: هل تريد (إسرائيل) السلام بأثمان خيالية؟ أم أنها لا تريده أصلاً؟!

* * *

هوامش ومراجع الفصل الثالث

1- محمد أحمد النابلسي: منشورة في جريدة "الكفاح العربي" بتاريخ 11/ 8/ 1999.

H: "The imposter Psychology of a "psychopath" - in the psychoanalytic،2- Deutsch
1955، vol. XXIV،quarterly contribution to ego

L:" The imposter: Aspects of his Development "psychoanalytic ،3- Finkelstein
1974 ،quarterly XLIII

1958، Ph: "The imposter": Psychoanalytic Quarterly vol. XXV III،4- Greenacre

5- رزق سند إبراهيم ليلة: سيكولوجية النصاب، دار النهضة العربية ب.ت.

* * *

الفصل الرابع

التحليل النفسي لشخصية السفاح: شارون نموذجاً (1)

تعرض تصنيفات الأمراض العقلية لاضطراب الشخصية المعادية للمجتمع. وتدرج في هذه الخانة كل مضطربي الشخصية الذين يتسم سلوكهم بعدوانية متطورة وزائدة على الحدود المقبولة اجتماعياً. مع امتياز هذه الشخصية بـ"الصفاقة" وهي صفة ملازمة لكل اضطرابات الشخصية. حيث اللامبالاة وعدم الاكتراث بمشاعر الآخرين (2). في الحالات المتطرفة يتطور هذا الاضطراب نحو القيام بأعمال جنائية مثل القتل. فإذا ما تكرر القتل أطلق لقب السفاح على المضطرب. مع بقائه مصنفاً في إطار الشخصية المعادية للمجتمع.

ويعتبر وصف "السفاح" وصفاً قاسياً. لكنه لا يحيط ولا يعبر عن حالة الوحش فاقد الأدمية الذي يتحول سفك الدماء إلى هوايته. مع تبرير هذا القتل بانتقاء الضحايا من فئة معينة، ومن دون أن يكون لهذا الانتقاء مبررات نفسية أو صدمية أو مرضية سوى "العنصرية". وفي هذا الحالة نتكلم عن الشخصية المعادية للإنسانية.

1- الشخصية المعادية للإنسانية:

هي شكل تمتد فيه معاداة المجتمع إلى معاداة الإنسانية عبر القيام بجرائم ضد الإنسانية، ولقد طرح هذا المفهوم للمرة الأولى عقب الحرب العالمية الثانية. وتحديداً في المحاكمات التي عرفت بـ"نورمبرغ". والتي أنشئت لمحاكمة مجرمي الحرب النازيين. إلا أن تعريف هذه المحكمة لمعاداة الإنسانية هو تعريف يشوبه اللبس والغموض. لذلك فهو قد تعرض لسلسلة من الانتقادات أكثرها وجاهة:

- أ - عدم وجود نص قانوني واضح يحدد تعريفاً دقيقاً لما أسمته المحكمة بـ"جرائم الحرب".
- ب - إن قضاة محكمة نورمبرغ لم يكونوا حياديين. بل كانوا تابعين للمنتصرين (الحلفاء). مما يشكك بنزاهة المحكمة وتغاضيها عن جرائم الحرب التي ارتكبتها الحلفاء.
- ج - تجاهل المحكمة لجريمة إلقاء قنبلتين ذريبتين على اليابان (هيروشيما وناغازاكي). وهذا التجاهل يكفي لنزع أية عدالة أو نزاهة عن نورمبرغ.

- د - عدم سماح محكمة نورمبرغ للمتهمين النازيين بحق الدفاع عن أنفسهم. خصوصاً أن الاتهامات الموجهة إليهم مبررة بطبيعة النظام الذي يخدمونه. في حين أن المتعاملين مع النازي (ومن بينهم زعماء صهاينة) لم يكونوا تحت رحمة النظام. بل هم تعاملوا معه بإرادتهم.

هذه الأسباب تعتبر في طليعة البراهين المشددة على أن "نورمبرغ" لم تهدف إلى إعادة الاعتبار للإنسانية. بل هي هدفت إلى تكريس انتصار الحلفاء وتحميل كامل انتهاكات القيم الإنسانية للطرف الخاسر. واستغلال فرصة عجزه عن الدفاع عن نفسه. حتى نجح الحلفاء في إظهار الفاشية والفكر الفاشي كرمز من رموز انتهاك الكرامة الإنسانية.

إلا أن واقع الممارسات (الإسرائيلية) والدعم الأميركي لها يوضحان أن الحلفاء وورثتهم الشرعيين هم أكثر إجراماً وتسلطاً من الفاشيين، ولعلنا نستدل على ذلك بجرائم القنابل الذرية وقنابل النابالم والحروب ضد الأبرياء في مقابل المصالح بحيث يمكننا التشديد على أن الفاشية هي أكثر إنسانية ورحمة من السياسة المرتكزة على المصالح.

نتيجة لمجمل هذه العوامل قامت "المحكمة الجنائية الدولية" في محاولة لطرح تعريفات أكثر دقة وموضوعية لجرائم الحرب.

2- المحكمة الجنائية الدولية:

بعد الفاشية والنازية تحولت الشيوعية إلى الشيطان البديل المههد لشعوب العالم الحر. هذا العالم الذي خسر الكثير مع نهاية الشيوعية لأنه أصبح من دون شيطان! وهكذا يمكن تقسيم العدالة الدولية إلى مرحلتين زمنييتين: أ - في وجود الشيطان:

خلال هذه الفترة عقدت اتفاقيات جنيف الأربع (1949) ووقعت عليها 180 دولة. وبعدها كان بروتوكول جنيف الأول (1977) ووقعت عليه 150 دولة. وهذا الأخير ينص على اعتبار فعل طرد السكان من أرضهم "جريمة حرب". وفي هذه المرحلة التي شهدت وجود الشيطان كان الإعلام الأميركي قادراً على إبراز أخطاء الشيطان والتكتم على الأخطاء الأميركية (راجع كتاب "قراصنة وأباطرة" لنوم تشوميسكي).

ب - بعد غياب الشيطان:

بعد هذا الغياب راحت الولايات المتحدة تبحث عن عدو، بل إنها تحاول اختراعه لكونه برهان ملائكتها. وفي انتظار ذلك العدو لم تعد لها أية مصلحة بإصدار قوانين جنائية جديدة لعالم تحكمه هي. ولنظام عالمي جديد تتولى مسؤوليته. إلا أن ضغط الرأي العام العالمي وانفجار التناقضات العالمية في حروب صغيرة، ولكن دموية، قدما المبررات للسماح بإنشاء المحكمة الجنائية الدولية. التي تم الإعلان عن نظامها الساسي عقب مؤتمر قانوني دولي عقد في إيطاليا (1998). ويتضمن هذا النظام ثلاث عشرة مادة عيّنت بتحديد اختصاصات المحكمة وطرق تشكيلها ومبادئ القانون الدولي - الجنائي المعتمد فيها. كما حدد النظام طرق التحقيق وأساليب المحاكمات ونوع العقوبات وسبل تنفيذها.

ويهمنا تحديداً المادة التي تحدد اختصاصات المحكمة (المادة 5) وهي التالية:

أ - جرائم الإبادة الجماعية.

ب - الجرائم ضد الإنسانية.

ج - جرائم الحرب.

د - جرائم العدوان على الغير.

وهذه الجرائم تجد في العدوان (الإسرائيلي) مثلاً عملياً معاصراً عليها. لذلك ضغطت (إسرائيل) ومعها الولايات المتحدة لاستثناء الممارسات (الإسرائيلية) ضد العرب من هذه التصنيفات الإجرامية. لكن هذه الضغوطات لم

تنفع بعد تهديد دول عدم الانحياز بعدم التوقيع على هذه الاتفاقية. فكان أن رضخت (إسرائيل) والولايات المتحدة للصيغ المقترحة وتم إنشاء المحكمة.

وهذا التراجع الأميركي لم يكن بسبب الليبرالية أو شعارات حقوق الإنسان وإنما كان بسبب ثقة الولايات المتحدة بسيطرتها التامة على الأمم المتحدة ومؤسساتها، ومعها الثقة بالقدرة الأميركية على محاكمة مخالفيها (المارقين) وعلى تبرئة أصدقائها.

3- ملف السفاح شارون:

تمكن شارون من احتلال الواجهة الإجرامية من خلال استفزازه لمشاعر أكثر من مليار إنسان. وذلك في خطوة تدينسه للمسجد الأقصى يوم الخميس الواقع في 2000/9/28 مع أن (إسرائيل) تشكل اليوم تجمعاً عالمياً لمجرمي الحرب وللخارجين على القانون الدولي الذين ينعمون بحماية (إسرائيلية) تبررها هويتهم اليهودية فقط. وبما أن شارون يحتل واجهة الإجرام الحالية فلنستعرض معاً ملفه الإجرامي لمناقشة هذا الملف من ناحية سيكولوجية طالما أن المناقشة القانونية ومحاكمته كـ(مجرم حرب) ممنوعة بحماية (إسرائيلية) وبدعم أميركي، ولنر معاً محتويات هذا الملف. فهي تضم القضايا التالية (3):

أ - مذابح صبرا وشاتيلا (1982).

ب - قتل الأسرى المصريين (1967).

ج - اجتياح بيروت (1982).

د - مجزرة قبية (1953).

أ - مذابح صبرا وشاتيلا:

صباح يوم 19/9/1982 استيقظ سكان بيروت ومعهم العالم على مجزرة تتحدى كل القيم الإنسانية. فقد تسللت عناصر ميليشيا الكتائب اللبنانية تحت حماية الجيش (الإسرائيلي) (كان شارون وزير الدفاع في حينه ولم يكن بالإمكان سماح الجيش الصهيوني بمثل هذه المجزرة من دون موافقة مسبقة من شارون). وقامت هذه الميليشيات بقتل وذبح حوالي 1500 شخص والتمثيل بجثثهم. وكان شارون قد ادعى قبل ثلاثة أيام (82/9/15) بأن لديه معلومات عن وجود ما بين 2000 و3000 "ارهابي" في هذين المخيمين. ولا شك في أن هذا الإعلان كان تمهيداً للمجزرة. لكن المهمة كانت صعبة على الجيش (الإسرائيلي) فسلم زمامها إلى الميليشيات. وتم تنفيذ الخطة على النحو التالي:

1 - يوم 16/9/1982 قام الجيش (الإسرائيلي) بحصار المخيمين.

2 - يوم 19/9/1982 دخلت الميليشيات (مخرقة الحصار!) ونفذت المجزرة.

وهذه المجزرة ستبقى أمثلة على جرعة الوحشية الكامنة في بعض البشر. وبعيداً عن الصور المروعة نقول إن جهات محايدة وصحافة عالمية ووثائق لا تقبل الدحض اجتمعت كلها على التأكيد بأن ضحايا المجزرة كانوا في

معظمهم من الشيوخ والأطفال والنساء ممن لا يمكن تصنيفهم كإرهابيين بحسب تبرير شارون وتمهيده لهذه المجزرة. التي لعب دور المخطط والمسهل لتنفيذها. في حين كان المنفذون مجرد أدوات.

ب - قتل الأسرى المصريين:

من طريق الصدفة وبعد ثلاثين سنة على المجزرة يتضح أن شارون كان هو الأمر بقتل مجموعة من الأسرى المصريين في حرب (1967). ولقد طال الزمن لافتضاح هذه الجريمة. لأن المصريين كانوا يعتبرون هؤلاء الأسرى في عداد الموتى. وجاء الكشف عن وجودهم وتصفيتهم في مجزرة جماعية على لسان ضابط احتياط (إسرائيلي) من المشاركين في المجزرة.

ج - اجتياح بيروت:

في 1982/9/16 كانت جريمة عدوان (بحسب تسمية محكمة الجراء الدولية) تبلغ حدوداً تتجاوز الصفاقة والاستهتار بكل القوانين الدولية. ففي ذلك اليوم لم تكتف (إسرائيل) ووزير دفاعها شارون بانتهاك حرمة أراضي دولة عضو في الأمم المتحدة. ولم تكتف بالحجج التلغيفية التي تجعل من عدوانها عملية وقائية، بل تخطت كل ذلك إلى احتلال العاصمة "بيروت". هذه العاصمة التي تقع خارج التبريرات الوقائية. ومتابعة ملابسات هذا الاجتياح وسلوك شارون خلاله تكشف عن الطابع النيروني (نيرون) لهذه الشخصية. فقد وقف شارون في إحدى ليالي الاجتياح على سطح أحد المباني العالية وراح يتشفي بمنظر العاصمة اللبنانية وهي تحترق. ولقد قامت (إسرائيل) بعملية التفاف قانونية على إمكانية أية مسالة دولية لاحقة لهذا السفاح. فقد قامت هي بنفسها بفتح تحقيق في الموضوع. وخرج شارون بريئاً من هذا التحقيق (4)!

د - مجزرة قبية:

في إحدى أمسيات تشرين الأول (أكتوبر) من العام 1953 قامت قوة عسكرية (إسرائيلية) بقيادة أرييل شارون بمباغطة سكان قرية "قبية" بإمطارها بالقصف المدفعي الممهد لتحرك قوة من المشاة التي قامت بتطويق القرية وحصارها من كل الجهات.

و"قبية" هي قرية أردنية تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة القدس وتبعد عنها نحو 32 كلم. وكان عدد سكانها آنذاك 1500 نسمة. وفوجئت هذه القرية بالقصف مجدداً ولكن عن قرب ومن ثم اقتحام القرية، حيث يروي شهود عيان بأن عدداً كبيراً من السكان قد دفن تحت أنقاض القصف. وعندما دخل شارون ورجاله قاموا بذبح نساء وأطفال من القرية أمام البيوت التي بقيت قائمة منها. وتابعت عصابة شارون عملها بإلقاء القنابل اليدوية وإمطار بعض أماكن الاحتماء المحتملة بنيران الرشاشات.

4- النمط السلوكي لشارون:

يمكننا تقسيم موقف (الإسرائيليين) من العرب بصورة مصطنعة (للتبسيط) إلى ثلاث فئات هي:

أ - فئة العلمانيين: وترى أن من حق (إسرائيل) أن تحصل على مكاسب تتناسب وحجم تفوقها التقني والعسكري على العرب. وهذه الفئة تعتبر أنها في سباق مع الزمن من أجل زيادة ودعم هذا التفوق بمختلف الأساليب، مما

يجعل هذه الفئة تستشعر خطر تنامي الدور السياسي للاقتصاد. مما يجعلها مستعدة لاستبدال (إسرائيل) الكبرى (عنصر الأرض) بـ(إسرائيل) العظمى (عنصر الاقتصاد). وإلى هذه الفئة ينتمي سفاحون لا يقلون إجراماً عن شارون ومنهم رايبين وبيريز وباراك.

ب - فئة المتدينين: وهؤلاء يعتبرون العرب "غوييم" أو "أغياراً" وينزعون عنهم الطابع البشري (يعتبرون غير اليهودي شبه حيوان). وهم يلعنون العرب في كل مناسبة تحت تسمية "أبناء إسماعيل".

ج - فئة اليمين الصهيوني: التي يمثلها حزب الليكود. وهي تجمع ما بين علمانية الفئة الأولى وتعصب الفئة الثانية. وهؤلاء هم علمانيون فشلوا في التخلص من يهوديتهم. أو أنهم ينكصون إليها من حين لآخر. وعلى هؤلاء أن يعتمدوا نمطاً سلوكياً يمثل نمط شارون المثال الأعلى له. وسمات هذا السلوك:

- 1 - احتقار عنصري مركب ومضاعف للعرب (بالصفة العلمانية مضافاً إليها الصفة الدينية - العنصرية).
- 2 - ممارسة التطرف في اتجاهات مختلفة. بهدف الحصول على أكثر من هدف في آن واحد. إذ يجب المحافظة على عنصري الأرض والاقتصاد معاً، لذلك فهم معارضون لمبدأ "الأرض مقابل السلام" وبالتالي لكل صيغ السلام المطروحة لغاية اليوم. كما أنهم طامحون للتحول إلى قوة اقتصادية إقليمية.
- 3 - إن الجمع بين الأهداف المتناقضة (على الصعيدين الفردي الجماعي) ينعكس على السلوك بصفات مميزة هي:

- 1- الكذب (ضرورة للتوفيق بين أهداف ومواقف متناقضة) و2- تجاوز القوانين والأعراف (من دونه لا يمكن تحقيق الأهداف المتناقضة) و3- العدوانية المرضية المتطورة (يقتضيها الحفاظ على مكاسب متناقضة).
- هذا ويقدم لنا سلوك نتنياهو، في أثناء حكمه، نموذجاً واضحاً لهذا السلوك. فهو قد خاض مباحثات السلام رافضاً مبدأ "الانسحاب". وهو عمل على دعم الاقتصاد (الإسرائيلي) بموارد مالية إضافية، من مصادر غير شرعية، أهمها:

- 1- تبييض الأموال و2- زراعة المخدرات و3- الشراكة في تجارة المخدرات و4- الصفقات السوداء على اختلاف أنواعها (مثل بيع الأسرار التقنية الأميركية لأعداء الولايات المتحدة وصفقات السلاح المتعارضة مع الإستراتيجية الأميركية والتدخل في كل الصراعات العالمية لإحراز المكاسب).

فإذا ما أردنا التعرف إلى سلوك شارون أمكننا القول إنه سلوك نتنياهو ولكن مع جرعة تطرف أكبر، فشعبية باراك إلى انحسار. وهو يحتاج إلى دعم شارون (زعيم الليكود) في حين يطمح نتنياهو للعودة إلى الحكم. وعليه فإن على شارون أن يجمع بين مشاركة باراك في الحكم وأن يقطع طريق العودة على نتنياهو وأن يغير اتجاه مفاوضات السلام. وتحقيق هذه الأهداف مجتمعة يحتاج إلى جرعة من الإجراء تجد أفضل تعبير عنها بما كتبه الصحافة الفرنسية إذ تساءلت: "إذا كنتم تريدون معرفة سر زيارة أرييل شارون للحرم القدسي الشريف فحاولوا الإجابة عن السؤال الآتي: لماذا يدخل مجرم محترف إلى مخزن بارود وهو يحمل علبة كبريت؟".

هوامش ومراجع الفصل الرابع

- 1- محمد أحمد النابلسي: منشورة في جريدة "الكفاح العربي" بتاريخ 20002/10/23
- 2- محمد أحمد النابلسي: اضطرابات الشخصية - مجلة الثقافة النفسية المتخصصة، العدد 6 - 1991.3
- 3- راجع الفصل التاسع - من ملفات الإرهاب الصهيوني في هذا الكتاب.
- 4- ترفض (إسرائيل) دائماً لجان التحقيق الدولية وأية جهة محايدة. لتجري التحقيق بنفسها. وهنا يطرح السؤال عما إذا كانت المحكمة (الإسرائيلية) قادرة على إدانة شارون وخلفه الجنرالات وهم الحكام الفعليون لـ(إسرائيل)؟

* * *

الفصل الخامس

الصهيونية والحرب النفسية (1)

اليهودي هو إنسان أحذب ونحيف، ذو نظرة غريبة، ضعيف ومتمارض، عيناه عصبيتان، له صفائر سوداء وذقن، شاحب وتنبدى عليه بسرعة علائم الشيخوخة والتجاعيد والرعشة، يرتدي ملابس أوروبية باهتة وبالية. وعلى رأسه قبعة أو طاقية.

أما من حيث الشخصية فهو منغلق وغريب في كل مكان. يستولي عليه الخوف والشك، يبتعد عن مخالطة الناس، ثقيل الحركة ويفتقر إلى اليقظة والنشاط. ليس لديه تقدير لذاته، منحط، صامت، خجول، مرتبك، روتيني يعجز عن الاستمتاع بالمباهج.

هذه الصورة ليست من صنع معادين للسامية. بل هي نتيجة دراسة نفسية قام بها الباحثان (الإسرائيليان) تامارين وبن تسافي في العام 1969 وهدفت إلى تبين صورة اليهودي الشتاتي في عيون يهود السابرا. وبامكاننا التأكيد على أن هذه الصورة كانت أكثر قتامة قبل حرب 1967 وأنها بالتأكيد أشد ظلامية في عيون غير اليهود. لذا كان من الطبيعي أن تتركز الحرب النفسية للحركة الصهيونية على ترميم هذه الصورة. وبمتابعة الجهود الصهيونية في هذا المجال نجد أنها اعتمدت على الشخصيات اليهودية أو ذات الأصول اليهودية. ولو كانوا يتنكرون ليهوديتهم. وهدفت هذه الجهود إلى:

1 - تخليص اليهودي من أسر الأساطير اليهودية عن طريق اعتماد العلمانية وتخليق أساطير جديدة مستوحاة من التراث اليهودي.

2 - تجنب الصدام مع التراث الأوروبي المعادي للسامية. وانتهاز فرصة عداة النازي لها لتفجير محدود لهذا الصدام. ومن هنا التركيز على الهولوكوست.

3 - التآمر على أعداء الفكر الصهيوني وتشويه صورتهم. وهؤلاء الأعداء هم:

أ - العرب بصفتهم أعداء دائمين ومشركين وتاريخيين.

ب - اليهود الذين يربطون قيامة (إسرائيل) بظهور الماشيح.

ج - اليهود المعادون مبدئياً للصهيونية.

د - الأيديولوجيون المعادون للصهيونية.

أما عن السبل التي سلكتها الصهيونية لتحقيق هذه الأهداف فيمكن تلخيصها على النحو التالي:

1 - تأمين التمويل من أثرياء اليهود وتسخير نفوذهم لمصلحة الحركة.

2 - استغلال الانتشار اليهودي في العالم وتشجيعه لاعتناق الصهيونية عن طريق إقامة المؤسسات الصهيونية في بلدان الانتشار.

3 - تعميم الذعر من الهولوكوست على يهود العالم لدفعهم إلى اعتناق الصهيونية.

4 - استغلال الظروف الدولية لتشجيع الهجرة إلى فلسطين.

وهذا الإستغلال اتخذ أشكالاً مختلفة منها:

أ - الاتفاق مع النازية لتهجير اليهود تحت طائلة التهديد بالإبادة.

ب - الضغط على الدول الشيوعية للسماح بهجرة يهودها إلى فلسطين.

ج - عقد صفقات تهجير جماعية وصولاً إلى دفع بدل عن كل مهاجر.

بهذا نأمل أن نكون قد اختصرنا أهداف الحرب النفسية - الصهيونية والسبل المستخدمة لتنفيذها.

لننتقل بعد ذلك إلى المحاور الرئيسية لهذه الحرب وهي:

1 - الشائعات بديلة للأساطير:

ولقد فضحها غارودي في كتابه "الأساطير المؤسسة لدولة (إسرائيل)" (2)، حيث نقترح إبدال مصطلح "الأساطير" بمصطلح "الشائعات". فالأسطورة هي قناعة تاريخية لا يحتاج المؤمن بها لإثباتها. أما الشائعة فهي طرح راهن (أو حديث العهد) يمكن التحري للتحقق من صحته. ومن أبرز الشائعات التي قامت عليها الحرب النفسية، نذكر:

أ - **الهولوكوست**: ونحن بغنى عن ترداد الشكوك حول المبالغات الصهيونية بشأنه. وحسبنا التذكير بالاستغلال السيكولوجي له. إذ تعرض صورته في معارض سنوية حتى اليوم. ويستغل في تفجير مشاعر الذنب تجاه اليهود. كما يستغل في إحياء مشاعر الذعر والهلع عند يهود العالم. بما يرسخ (إسرائيل) كملاذ آمن لهم ويجبرهم على دعمها. ولعل من أبرز أسباب رواج هذه الشائعة الغاطسة التي تظهر وتختفي ثم تعاود الظهور فتستقبل بالقبول والتصديق. وعلى هذا النوع من الشائعات تركزت الحرب النفسية - الصهيونية. التي يمكن اختصارها بإعادة إحياء الأساطير على شكل شائعات غاطسة (3).

ب - **معادلة بن غوريون**: أطلق بن غوريون هذه المعادلة عقب نكبة 1948 عندما كان عدد سكان (إسرائيل) 700.000 وعدد السكان العرب 28 مليون. فرأى أن الصهيونية انتصرت بنسبة يهودي واحد إلى أربعين عربياً. وهذا المعادلة تتناغم مع أسطورة "الشعب المختار" وتفوق اليهود على الأغيار. بل إننا نلاحظ أن الشخصية اليهودية القائمة على الأساطير قد حولت هذه المعادلة إلى أسطورة. لذلك راحت (إسرائيل) تبذل جهوداً مستميتة لتأمين هجرة يهودية (روسيا، الفالاشا وغيرهم) من أجل الحفاظ على هذه المعادلة. وهم يرون في اختلالها خطراً على استمرارية (إسرائيل) (4).

ج - **شائعة "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"**: وهي شائعة تلامس أسطورة "أرض الميعاد". لكن الوقائع التاريخية تبين أن اليهود كانوا يملكون نسبة 3.5% من الأرض عند صدور وعد بلفور عام 1917 و 6.5% منها عند صدور قرار التقسيم عام 1947 ثم أصبحوا يملكون 93% من الأرض في العام 1983. وتفاوتت هذه النسب يبين كذب هذه الشائعة كما يبين حجم الاحتيال (الإسرائيلي) في مصادرة الأراضي. ولقد نشر "إسرائيل

شاحاك" قائمة بأسماء 385 قرية فلسطينية أزيلت بالجرافات من أصل 485 قرية كانت مسجلة في العام 1948. وهذا يقدم الدليل القاطع على ممارسات (إسرائيل) للتطهير العرقي في محاولة لتحويل هذه الشائعة إلى واقع (5).
د - شائعة "إسرائيل دولة عظمى": ولقد عاد اليهود الذين أقاموا مستعمرة "بتاح تكفا" ومعهم الهجرات اللاحقة لغاية العام 1947 بناء على وعد صهيوني بإقامة دولة يهودية بالتوافق مع الدول العربية المحيطة بها وبدون حروب. بل تضمن الوعد احتمال انضمام هذه الدولة إلى فيديرالية عربية. وذلك بحيث تستبدل أسطورة "إسرائيل الكبرى" بشائعة "إسرائيل العظمى" التي تستغل دول الجوار وتتحول بذلك إلى دولة صناعية عظمى (6).

ويتبدى تراجع الصهيونية عن هذه الشائعة عبر عصاباتا الإرهابية التي افتتحت إرهاب الحرب العالمية الثانية وما بعدها. وبالرغم من إقامة الدولة اليهودية على حكم زعماء العصابات والإرهاب فإن الصهيونية لم تتخل يوماً عن هذه الشائعة.

وهنا أتوقف للإشارة إلى أن الدعم العسكري المطلق الذي تلقاه (إسرائيل) يبرر تفوقها العسكري. لكن هذا التفوق لم يمكنها من تحقيق هذه الشائعة وحسب الشعوب العربية أنها تصدت لهذا الحلم (الإسرائيلي). الذي نراه اليوم وهو يعاود الظهور تحت مسميات "الشرق أوسطية" و"تطبيع ما بعد السلام" وغيرها من المسميات.

2 - تلميع صورة اليهودي:

وهي المهمة الأصعب التي واجهت الصهيونية. فقد ترسخت عورات هذه الصورة عبر قرون وأصبحت جزءاً من التراث الإنساني. وقد بلغت هذه الصورة حداً من السوء جعل اليهود أنفسهم يرفضونها وينفرون منها. وحسبنا هنا التذكير بما يقوله مؤلف موسوعة اليهودية الدكتور عبد الوهاب المسيري؛ إذ يؤكد بأن الحضارة الغربية قد نوبت اليهود فلم تبق منهم سوى أعداد ضئيلة وهم كانوا مرشحين لأن يحصوا عشرات الملايين لولا تذبذبهم في الحضارة الغربية. وبهذا يلتقي المسيري مع علماء المستقبليات الذين يؤكدون على كون الحضارة الغربية حضارة مذوبة.

مهما يكن فإن المهمة كانت عسيرة وتطلبت جهوداً غير اعتيادية. وهي تضمنت الخطوات التالية:

أ - إبراز الشخصيات اليهودية: انطلقت الصهيونية من منطلقات علمانية بما يعني أنها رافضة للصورة اليهودية التقليدية. وهذا الرفض ينسحب على الشخصيات اليهودية المعاصرة لنشوء الصهيونية. بل ربما أمكن القول إن هذا الرفض المشترك هو الذي أعطى للصهيونية إمكانات الانطلاق والتحرك.

وهكذا كانت الصهيونية في حل من اعتماد التصنيف الديني لليهود. فراحت تباهي وتبرز الشخصيات اليهودية حتى ولو كانت ملحدة ورافضة للدين اليهودي. فتمكنت عبر علمانيتها وعبر هذه الشخصيات من إظهار اليهودي بمظهر "العبري المنفوق". هذا النجاح كان أبرز انتصارات الحرب النفسية - الصهيونية. وهو أحد أخطر الشائعات الصهيونية. فهؤلاء العباقرة كانوا أبناء الحضارات التي عاشوا فيها والظروف الحضارية المتوافرة لهم. حتى أن غالبيتهم كانت رافضة لانتمائها اليهودي. وحسبنا هنا التذكير بما أورده فرويد (اليهودي) في كتابه

المعنون بـ"موسى والتوحيد" ومنه نقطف: كانت الشروط الأساسية (أيام موسى) تتنافى مع تحول الإله اليهودي (وهو قومي محض) إلى إله كوني. فمن أين تأتي لهذا الشعب الصغير البائس والعاجز صلف الادعاء بأنه الابن الحبيب للرب...؟! "

"... إنه لما يبعث على الدهشة أن يختار الإله لنفسه على حين بغته شعباً من الشعوب ليجعل منه شعبه المختار... إن هذه الواقعة يتيمة في تاريخ الإنسانية فقد يحدث أن يختار شعب من الشعوب إلهاً جديداً، ولكن لم يحدث قط أن اختار إله من الآلهة شعباً جديداً!

ب - *التشبه بالمعتدي*: وهذا التشبه هو أحد آليات الدفاع النفسي. حيث يحاول المخطوف التقرب من خاطفه والتشبه به بهدف الدفاع عن نفسه وجلب الاطمئنان لها. وهذا تحديداً ما فعلته الصهيونية منذ قيامها. حيث تشبهت بالمعتدي باعتناقها القيم العلمانية التي تتناقض مع الشخصية اليهودية وتلغيها. وعن طريق هذا التشبه تمكنت الصهيونية من طرح مفهوم "صورة اليهودي الجديد". وقد لاقى هذا الطرح نجاحاً فكان السبب في تشجيع الصهيونية على متابعة سلسلة من التشبيهات بالمعتدي، ومنها نذكر:

التشبه بالمعتدي البراغماتي: كان الأميركيون منذ مطلع هذا القرن شديداً الحذر من الخطر اليهودي. حيث قادتهم براغماتيتهم إلى تفضيل عدم قبول اليهود على قبولهم وتذويبهم فيما بعد (كما فعل الأوروبيين). لكن الصهيونية تشبهت بهذا العدو البراغماتي لدرجة إقامة دولة بدون تاريخ على غرار دولته (أي الولايات المتحدة). بل إن التشبه الصهيوني بالولايات المتحدة قد بلغ حدود اعتبار (إسرائيل) الولاية الحادية والخمسين. بما يستتبعه ذلك من اعتبار أية إدانة (إسرائيل) إدانة للولايات المتحدة نفسها. فاللاجئون الفلسطينيون يقابلهم الهنود الحمر. وملكية الأسلحة النووية تقابلها قنابل هيروشيما وناغازاكي، و نابالم بحر البقر يقابله نابالم فيتنام وقس عليه.

ج - *الكيبوتزات*: كانت هذه المستعمرات الزراعية الأداة الرئيسية لتسويق صورة لامعة لـ(إسرائيل) وللإيهودي الجديد، حيث طرحت هذه الكيبوتزات رمزاً عالمياً لتجمعات إنسانية متحضرة. فكانت (إسرائيل) تستضيف فيها عشرات الآلاف من الشبان من مختلف أنحاء العالم وتترك لسكان هذه المستعمرات مهمة إقناع هؤلاء بصورة "اليهودي الجديد". بل إن الصهيونية استعادت عن طريق هذه المستعمرات آلاف الشبان من نوي الأصول اليهودية.

3 - الحرب النفسية ضد العرب:

هنا نتساءل: "كيف تحول الجبان الدليل إلى معتد شرس"؟ إحدى الإجابات على هذا السؤال تقدمها لنا السيكلوجيا وهي الآلية الدفاعية، المذكورة أعلاه، المسماة بالتشبه بالمعتدي. والوقائع التاريخية تثبت لنا استعداد الصهيونية لمناقشة مسألة إقامة وطنها القومي في مكان آخر غير فلسطين. وفي هذا ما يثبت أن عداة الصهيونية للشعوب العربية هو عداة انتقائي واختياري. حيث انطلق هذا العداة من استعداد الحلفاء المنتصرين في الحرب العالمية الثانية ضد العرب. وذلك بناء على إغراءات متعددة أهمها:

أ - تحول اليهود إلى إرهابيين وممارستهم للإرهاب على شعوب أوروبية. وبالتالي فإنه من الأفضل تقنين إرهابهم وتحويله نحو العرب.

ب - الخلاص من حثالات الغيتو المترسبة في دول متحضرة منذ قرون والعاجزة عن التكامل في مجتمعات تلك الدول.

ج - تقديم تعويض مادي لمذابح النازي التي أثارت رعب اليهود في شتى أنحاء العالم. حيث كان للحرب النفسية دورها في إذاعة هذا الرعب.

د - الفوائد المادية على مختلف الصعد. حيث إقامة دولة تتطلب مستلزمات يقدمها أثرياء اليهود (في مقدمتها السلاح) وحيث توفير التعويضات وأيضاً الرشاوى التي دفعها الصهاينة والمتجاهلة حتى الآن.

على هذه الأسس تم اختيار الشعوب العربية لتكون كبش الفداء. وتمكنت الصهيونية من جر الجميع إلى التواطؤ وقبول هذا الاختيار. بعد أن أصبحت تهمة "معاداة اليهود" بمنزلة الفضيحة الأخلاقية الخاضعة لمحاكم نورمبرغ. وذلك دون تمييز بين عداء مبرر يأتي كردة على فعل عدوان وبين عداء غير مبرر.

وهكذا بدأت الحرب النفسية ضد العرب باختيارهم "بديلاً للنازي والتالي أعداءً لجميع الدول المنتصرة".

وبعد اطمئنان الصهيونية لإقامة دولتها بدأت الحرب النفسية ضد العرب. وهي حرب غير مرشحة للانتهاء حتى في حال حصول السلام المستحيل. وتضمنت هذه الحرب الخطوط العريضة التالية:

أ - تشويه صورة الإنسان العربي.

ب - تعزيز تمثيل (إسرائيل) للحضارة الغربية بما من شأنه تحويل أي عداء عربي تجاهها إلى عداء لهذه الحضارة.

ج - الحرب النفسية المباشرة.

4- تشويه صورة العربي:

ويعتمد هذا التشويه على أسس سيكولوجية محكمة تقوم على العناصر التالية:

أ - *التصور الغربي للإنسان العربي*: وهي صورة بشعة رسمها الغرب من رؤية المستعمر. وبالتالي فإنها صورة تغلب عليها الدوافع العدوانية. وهي تتلخص كالاتي: إن العربي هو إنسان منزوي ومنذفع وراء شهواته. وهو نزق لا يقيم وزناً إلا لعنجهية عظامية (بارانويا) وهو لا يحترم أية مثل (بما فيها مثل مجتمعه) إلا بمقدار تدعيمها لعظاميته. وهو متخلف وجاهل وعاجز عن استيعاب مبادئ المساواة لدرجة عجزه عن فهم مبدأ الطبقة الوسطى. وهو إما فقير معدم أو ثري فاحش الثراء وهو انفعالي يمكن أن يصل إلى حدود التطرف الهوسي. (لا بد من الإشارة إلى أننا مدينون للاستشراق بهذه الصفات).

ومن الطبيعي أن تستغل الصهيونية هذه الصورة وأن توظف إمكاناتها الإعلامية (السينما خصوصاً) لترسيخ قباحتها.

ب - *التضليل الإعلامي*: وقد مارسته الصهيونية لحدود الاستنفاد. وأخطر صورته:

1 - اليهودية هي قومية (بدليل أن "إسرائيل" وطن قومي لليهود) أما العروبة فهي ديانة (بدليل أن 80% من الأميركيين يعتقدون أن إيران وباكستان هي دول عربية).

2 - إن (إسرائيل) تملك تاريخاً وأنها أسبق من العرب في ملكيتها للأرض. (ولكن ماذا عن المخطوطات التاريخية التي تخفيها (إسرائيل) وتمنع المؤرخين من مجرد الاطلاع عليها؟).

3 - إن (إسرائيل) تحمي مصالح الغرب في المنطقة وهي بمنزلة الخادمة لمصالحه (ولكن ماذا عن الفقر الزاحف إلى دولنا النفطية؟).

ج - الإرهاب العربي: يقاس نجاح (إسرائيل) في تسويق صورة العربي كإنسان عدواني إرهابي عبر وقائع عديدة منها أن الإعلام الأميركي ومعه الرأي العام الأميركي وجهها التهمة إلى العرب فور وقوع انفجار أو كلاهما (الذي كان من صنع الميليشيات الأميركية البيضاء).

والخطر أن تهمة الإرهاب العربي تركزت بأبحاث أكاديمية تعتبر أن أصل الإرهاب يعود إلى جماعة "الحشاشين" العرب. وبأن هذه الجماعة هي التي اخترعت الإرهاب.

5 - الحرب النفسية المباشرة:

وهي عموماً حرب شائعات لكن صورتها الأكثر بشاعة هي تلك التي تمارسها الصهيونية ضد اليهود العرب إلى الحركات الدينية المتطرفة. ورغبتهم في الانتقام من أصولهم العربية ومن العرب عموماً (7).

أما عن الشائعات الصهيونية فحدث بلا حرج. ومنها نذكر:

أ - معادلة بن غوريون: التي تدفع بالعربي للإحساس بضآلته وبعجزه أمام اليهودي - الصهيوني. وهذا مجرد شائعة لأن الصهيونية تسلمت الأرض على طبق من فضة بسبب الموافقة الدولية وليس بسبب انتصارها المدعوم خارجياً أيضاً.

ب - شائعة اللجوء: أطلقت (إسرائيل) شائعة لا تزال تتداولها لغاية اليوم. قوام هذه الشائعة أن الفلسطينيين لم يهربوا من الإبادة في مذابح على غرار كفر قاسم ودير ياسين. بل إنهم تركوا أرضهم بناءً على أوامر الجيوش العربية التي كانت تنوي إبادة اليهود بعد خروج العرب.

ج - شائعات الخيانة: وهي شائعات جاهزة ضد أي زعيم أو مسؤول عربي يحرج (إسرائيل). أما المتعاملون معها فإنهم يحظون بلقب "المتحضر الليبيرالي".

د - شائعة التضامن اليهودي: وشقها الآخر شائعة التشرذم العربي. فالتضامن بين سكان (إسرائيل) يستند فقط إلى وجود العدو العربي وإلى تغذية الصهيونية للرغبة اليهودية بالعدوان كسبيل وحيد للشعور بالأمان. ودون ذلك فإن يهود (إسرائيل) ليسوا سوى خليط من الأعراق والثقافات التي لا يجمعها جامع. وهم متشرذمون شرذمة الشتات الذي أتوا منه.

أما عن التشرذم العربي فهو حاصل لو تم قياسه باللحظة السياسية- الاقتصادية الراهنة. لكن هذه ليست سوى لحظة. فالشعوب العربية باقية في أرضها وتمسكة بها بدخل فردي لا يتجاوز الـ 10% من مثيله في (إسرائيل). لكن الفارق بين الاثنين هو الفارق بين الأسطورة وبين التاريخ.

* * *

هوامش ومراجع الفصل الخامس

- 1 - هذا الفصل هو نص محاضرة قدمها المؤلف في ندوة اتحاد الكتاب العرب التي اقيمت تحت شعار "خمسون عاماً على الصهيونية". ونشرتها مجلة الفكر السياسي الصادرة عن هذا الاتحاد في عدد شتاء 2000 (ص 184 - 190).
- 2 - قدم المؤلف عرضاً نقدياً لهذا الكتاب في كتابه المعنون "سيكولوجية السياسة العربية - العرب والمستقبلات" - دار النهضة العربية ، 1999.
- 3 - إن مبالغة (إسرائيل) في استغلال الهولوكوست أثارت مشاعر العديد من اليهود ممن عاشوا تجربة الهولوكوست. ومن بينهم (إسرائيل شاحاك) الذي يرى أن تعرض شخص أو أمة ما للظلم ليس مبرراً للظلم الآخرين. وبأن هذه التجربة كان أحرى بها أن تدفع باليهود إلى كراهية الظلم ونبذهم. أما اليهودي الأميركي "نورمان فلنكشتاين" (كان والداه من الناجين من الهولوكوست) فقد أصدر كتاباً بعنوان "صناعة الهولوكوست" يتهم فيه الصهيونية بالتجارة في مشاعر الآخرين وعذاباتهم. كما يؤكد أن غالبية الذين يدعون النجاة من الهولوكوست هم كذابون.
- 4 - يحاول المؤرخون الجدد تخلص (إسرائيل) المعاصرة من هذه المعادلة بعد أن فقدت خزانها البشري من يهود الخارج. حيث يدحض هؤلاء هذه الأسطورة - الشائعة معترفين بتفوق التدريب والسلاح اليهوديين في حرب 1948. وهؤلاء يريدون القضاء على هذه الشائعة لإدراكهم عجز (إسرائيل) عن مجاراة معادلة 1 مقابل 40.
- 5 - لهذا السبب وللسبب السابق (نفاذ الخزان البشري) فإن (إسرائيل) تصاب بالهلع لدى مناقشة قضية عودة اللاجئين. وهي تستعد لاستقبال نوع جديد من اليهود (يعتبرون اليوم أرباع يهود بحسب قانونها الحالي).
- 6 - رشاد عبدالله الشامي: إشكالية الهوية في (إسرائيل) - سلسلة عالم المعرفة - الكويت.
- 7 - ينتمي معظم اليهود العرب إلى حزب شاس المتطرف دينياً والذي يعلن عداءً فائقاً للعرب. وهذا ما يدعونا إلى تكرار تحذيرنا من المحاولات (الإسرائيلية) الهادفة لإعادة تصدير اليهود العرب.

* * *

الفصل السادس

عقدة فيتنام (الإسرائيلية)

(إسرائيل) عاجزة عن دفع الثمن السياسي للحرب (1)

لا تخلو السياسة من النكات والقفشات التي لا يمكنها ادعاء البراءة. ومن النكات اليهودية الشائعة أن يهودياً لعب القمار مع غير يهودي فراح يغش في اللعب حتى ربح مبلغاً كبيراً حتى ملّ من اللعب. عندها انسحب اليهودي من اللعب قائلاً بأنه يأسف لتمضية وقته مع شخص غبي يترك الآخرين يغشونه.

على المنوال نفسه استعارت غولدا مائير نكتة شبيهة (وهي بالمناسبة معروفة بدمها الخفيف وبدعاباتها) إذ قالت: "لن أغفر للشبان الفلسطينيين الذين أجبروا جنودنا على إطلاق النار عليهم". لكن النكتة السياسية مرشحة دائماً للتحول إلى مأساة لمن يطلقها. فقد اجتاحت (إسرائيل) لبنان في 1982/9/16 تحت أحد شعاراتها الرومانسية-التهمكية وارتكبت أثناء اجتياحها لبيروت نكاتاً عديدة منها صبرا وشاتيلا (2)! ثم ما لبثت أن انسحبت بعد أن دفعت قسطاً من الأقساط التي لا تزال مترتبة عليها بسبب مزاحها الفج. فكان ما سمي بالشريط الحدودي الذي هدف إلى تصدير فوضى الهوية منها إلى لبنان. إذ أنها احتضنت في شريطها الحدودي قسماً من الجيش اللبناني وأسلمته هذا الشريط مكرسة تقسيم الأراضي اللبنانية بوضعها تحت نظامين مختلفين. فإذا ما جاء اتفاق الطائف احتضن الشريط معارضي هذا الاتفاق ليصبح التقسيم واقعاً ديموغرافياً. وبذلك أسست لانشطار الهوية اللبنانية معلنة أن الطائف لا يمكنه أن يكتمل بدون موافقتها. في المقابل تجاهل الطائف هذه الفوضى المفتعلة معتبراً المنطقة خارجة على القانون اللبناني منتظراً عودتها إليه.

الأحزاب الوطنية انسحبت تاركة للدولة الحرية في توقيت وسبل تنفيذ قانونها. لكن سكان الجنوب المتعرضين للإعتداءات (الإسرائيلية) المتكررة وللتهجير لم يلتزموا التصنيفات السياسية فهم في حالة دفاع عن النفس بغض النظر عن تسمية العدو أو تصنيفه السياسي.

ماذا كانت النتيجة؟ فضائية الـ (سي. إن. إن.) نقلت مقابلات مع جنود (إسرائيليين) فزعين سيكون مطالبين بالانسحاب من لبنان معلنين عدم رغبتهم بالموت على أيدي المقاومين. أمهات هؤلاء الجنود بدأن بتنظيم المسيرات المطالبة بالانسحاب. وفجأة وضع مصطلح فيتنام (الإسرائيلية) قيد التداول في الصحافة العبرية. دلالة المصطلح بالغة الخطورة بالنسبة للكيان الصهيوني فهو مقدمة لرفض القتال وللتنمرد الجماعي على الأوامر العسكرية. بما يعادل الكارثة للمجتمع العسكري (الإسرائيلي). مما جعل الانسحاب ضرورة تكتيكية ومطلباً شعبياً بلغت حدته مستوى إيصال باراك إلى الحكم بناء على وعده بالانسحاب من لبنان.

السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل يمكن اعتبار عقدة فيتنام (الإسرائيلية) قد شفيت بمجرد الانسحاب من لبنان؟ أم أن هذه العقدة ستبقى كامنة في اللاوعي (الإسرائيلي) كي تتفجر عند أية مناسبة رضية؟ ومعرفة الجواب تقتضي الإجابة على سؤال هل تخلصت أميركا لغاية اليوم من عقدة فيتنام؟ في اعتبارنا أن مثل هذه الرضوض الجماعية غير قابلة للشفاء التلقائي. كما أن فهم سيكولوجية السياسة (الإسرائيلية) لا بد له من استيعاب ظروف نشوء وتطور عقدة فيتنام (الإسرائيلية). خصوصاً بعد أن تأكد (الإسرائيليون) من قابليتها للمعاودة والتكرار بصور مختلفة. فهل كان الجنرالات (الإسرائيليون) مدركين لخطورة هذه النكته التي أسموها بالشريط الحدودي؟ الجنرالات والمحللون السياسيون (الإسرائيليون) يدركون منذ البداية وجوه الشبه بين الشريط الجنوبي وبين فيتنام. بل يمكننا التشديد على أنهم خططوا له ليكون أكثر خطورة. فهم أرادوا عبره خلق فوضى ديموغرافية وعزله بسكانه عن التكامل في أي مشروع وطني ينهي الحرب الأهلية. كما أرادوا للشريط أن يكون مختبر تجارب لطروحاتهم الكونفيدرالية والشرق أوسطية وأيضاً التقسيمية وتحريك حساسيات الأقليات العربية (3) ... إلخ من التجارب التي تستمد لا إنسانيتها من كونها تجارب تجرى على بشر.

وهذه الأسباب مجتمعة تفسر لنا إصرار (إسرائيل) على هذا الشريط وتحديدها للشرعية الدولية بسببه. وهي تفسر لنا أسباب لجوء (إسرائيل) إلى تحويل الشريط إلى "شبه كانتون" عوضاً عن الممارسة الاحتلالية التقليدية. لكن الجديد في الأمر بدأ مع تورط بيريز بمجزرة قانا (4)، واضطراره بعدها للقبول بتفاهم نيسان. وهو التفاهم الذي أخرج (إسرائيل) وعلق العمل في الشريط على أنه مختبر. أما المستجد فهو تنامي الأصوات (الإسرائيلية) الداعية للانسحاب من الشريط. حتى وصلت إلى الصحافة (الإسرائيلية) "الجادة". حيث لم يعد كتابها يتخرجون من التشبيه العلني بين الشريط الجنوبي وبين الورطة الأميركية في فيتنام. لذلك راح الجنرالات (الإسرائيليون) يسعون ما بوسعهم للانقلاب على "تفاهم نيسان" حتى ولو أدى ذلك بهم إلى مواجهة تمتد نيرانها إلى مصالح الولايات المتحدة في المنطقة. فهؤلاء لا يزالون رافضين للانسحاب وهم غير عابئين لا بعود باراك ولا بقرارات الأمم المتحدة. لأن ما يهمهم مباشرة هو تكملة تجاربهم على الشريط وامتحان مشروعاتهم المعدة بشأنه. وهذا بدوره يذكرنا بالانقسام الأميركي الداخلي حول فيتنام. حين أصر البعض على متابعتها لغاية تحقيق الانتصار على تجربة شيوعية وليدة. في حين أصر البعض على الانسحاب وانتصروا. فهل تتكرر المسألة وتنسحب (إسرائيل) من الشريط؟

1- عودة إلى البدايات:

عندما أقامت (إسرائيل) الشريط الحدودي لم يكن ذلك مجرد احتلال أو تدخل عسكري. بل كان استغلالاً مباشراً للوضع اللبناني وسعياً لإقامة كانتون يستقطب الأقلية المسيحية في الجنوب. لذلك عملت (إسرائيل) على تسليم الإدارة في الشريط إلى فرقة مسيحية ثابتة للجيش اللبناني. لذلك كان لهذا الشريط، ولما تزل، أهمية إستراتيجية فائقة بالنسبة لـ(إسرائيل) (5)، وتتجلى هذه الأهمية بالنقاط الآتية:

أ - يؤمن الشريط لـ(إسرائيل) ورقة ضاغطة على صعيد الوضع الداخلي اللبناني. وهي استخدمت هذه الورقة تمهيداً للاجتياح وانتقاماً لإلغاء 17 أيار (مايو). وفشل اجتياحها وصدور القرار (425) فرأت أن الحفاظ على هذه الورقة هدف بحد ذاته. لأنها ورقة قابلة للاستخدام مستقبلاً. وعندما حصل "اتفاق الطائف" ازدادت أهمية هذه الورقة لأنها مكنت (إسرائيل) من تجميد الزمن في الشريط عند توقيت الحرب الأهلية. وبذلك نجحت في منع الشريط وسكانه من التكامل في الجسد اللبناني. بحيث بقي هذا الشريط مجسداً لأزمات الصراع الأهلي. خصوصاً بعد لجوء معارضي الطائف والميليشيات الرافضة لإنهاء النزاع إلى هذا الشريط.

ب - حاولت (إسرائيل) عبر إقامتها للشريط أن تظهر في مظهر راعية الأقليات العربية والدولة الليبرالية المرشحة لحماية الأقليات في المنطقة.

ج - استخدمت (إسرائيل) الشريط كنموذج لإمكانية تكاملها في المنطقة وصولاً إلى إقامة كونفيدرياليات على حدودها المباشرة.

د - تمكنت (إسرائيل) من تمديد الحرب الأهلية اللبنانية بتوظيفها للشريط كميدان رمزي لهذه الحرب. حيث تدور المعارك بين المقاومة الوطنية اللبنانية (مجموعة الأحزاب الوطنية) وبين قوى مسيحية - يمينية. وازداد هذا التوظيف خطورة بعد اتفاق الطائف الذي جعل الأحزاب الوطنية مضطرة للمشاركة في مسيرة الطائف وتجاهل المتطرفين اليمينييين الموجودين في الشريط. بعد أن صنفتهم دولة الطائف كخارجين على القانون وكمعاملين مع العدو (الإسرائيلي).

هـ - استغلت (إسرائيل) تفوقها العسكري لممارسة الاعتداءات المتكررة والمجازر في الجنوب اللبناني. وعمدت إلى تهجير سكانه (نصف مليون إنسان) بصورة متكررة. وبذلك اضطر هؤلاء السكان للدفاع عن أنفسهم وإلى تنظيم مقاومة خاصة بهم لـ(إسرائيل). وكان من الطبيعي أن تركز (إسرائيل) على إظهار المقاومة بمظهر المسلمين الذين يقاتلون مسيحيي الشريط! وكان هذا الإحراج يعادل حرباً طائفية رمزية تحفظ لـ(إسرائيل) دوراً فاعلاً في البيت الداخلي اللبناني. كما شكلت هذه الحرب تهديدات حقيقية لاتفاق الطائف.

2- تفاهم نيسان:

من الناحية السيكولوجية تستمد (إسرائيل) اطمئنانها وأمن سكانها من إثبات قدرتها على العدوان. فالحاجة إلى العدوان هي حاجة سيكولوجية لدى (إسرائيل). وهذه الحاجة تكمن وراء هوس التسلح (الإسرائيلي) كما تكمن وراء هوس معظم أخطائها الإستراتيجية. ومنها خطأ بيريز الذي رأى أن نجاحه في الانتخابات مرتبط بإثبات قدرته على العدوان الذي يجلب الطمأنينة لناخبيه فيضمن له الفوز في الانتخابات! وهكذا قام بيريز بعملية عسكرية أطلق عليها واحدة من التعابير الرومانسية - (الإسرائيلية). الهادفة إلى تخفيف وقع العدوان على الرأي العام العالمي. وهو اختار لعمليته اسم "عناقيد الغضب". وكانت "مجزرة قانا" إحدى نتائج هذه العملية التي لم يتمكن الرأي العام العالمي من تجاهلها أو هضمها. الأمر الذي أجبر (إسرائيل) على توقيع "تفاهم نيسان" الذي سبب لها إحراجات عديدة أهمها:

أ - إن التفاهم يشكل اعترافاً (إسرائيلياً) مباشراً بكذب طروحات الحرب الرمزية وبأن (إسرائيل) هي المعنية بالصراع مع المقاومة وليس جيش لبنان الجنوبي. وبمعنى آخر فإن التفاهم هو اعتراف (إسرائيلي) ناجز بالمقاومة وبأن (إسرائيل) هي المعنية بالصراع مع المقاومة وليس جيش لبنان الجنوبي. وهكذا فإن التفاهم هو اعتراف (إسرائيلي) علني بالمقاومة منذ بدايتها وحتى تاريخه.

ب - إن التفاهم يضع جيش لبنان الجنوبي في موقعه الصحيح وهو موقع المقاتل المرتزق الساعي لتحقيق الأغراض (الإسرائيلية).

ج - إن تقييد المدنيين جعل (إسرائيل) عاجزة عن ممارسة حاجتها النفسية للعدوان بحرية. وتقييد هذه الحرية كفيلاً بتفجير القلق لدى الجمهور (الإسرائيلي).

د - إن التفاهم أدخل المقاومة كورقة ضاغطة في أية مفاوضات عربية - (إسرائيلية). وجلب لها الاعتراف الدولي مقابل سحب هذا الاعتراف بالجيش الجنوبي وتحويله إلى مسؤولية (إسرائيلية) أخلاقية وإنسانية (6).

3- التهديد بالانسحاب المفاجئ:

نأسف للقول إن (إسرائيل) قد تمكنت من تحويل بعض اللبنانيين من مواطنين قادرين على العودة إلى مجتمعهم والتكامل فيه أسوة بسائر اللبنانيين، إلى مرتزقة يقدمون للعدو الذرائع ليوصل اعتداءاته على وطنهم ومجازره على أهلهم (7). بل إنهم مكنوا (إسرائيل) من المساومة على انسحاب مفاجئ يحول هؤلاء المرتزقة إلى خلايا سرطانية تزرعها (إسرائيل) في الجسد اللبناني الذي لا يزال بعد في طور النفاهة. مما يجعله عاجزاً عن استيعاب الشريط المحتل ما لم تتم معالجته بصورة جذرية.

لقد طرحت (إسرائيل)، ولا تزال تطرح، هذه المعادلة الظالمة والإرهابية في آن معاً. فالانسحاب (الإسرائيلي) المفاجئ ينطوي على قائمة طويلة من أساليب المافيا (الكورنوسترا) الابتزازية. ومنها:

أ - محاولة الحصول على براءة ذمة دولية بعد ربع قرن على تحدي الشرعية الدولية.

ب - إشعال فتيل الفوضى الديموغرافية التي أسست لها (إسرائيل) في الجنوب.

ج - إظهار الجسد اللبناني وكأنه رافض لقبول عضو عزيز عليه.

د - التخلي عن جيش لبنان الجنوبي بعد توريثه.

هـ - التهديد بإعادة إحياء المشاعر السلبية لدى الطوائف اللبنانية.

و - دفع الجيش اللبناني في مسارات غير مدروسة.

ز - تشجيع المقارنات الوقحة بين الاحتلال وبين الوجود السوري.

ارتباط (إسرائيل) المباشر بالولايات المتحدة أصابها بالكثير من الإرباك خلال الفترة الأخيرة من ولاية كلينتون. ويعود هذا الإرباك إلى عدم وضوح إستراتيجية السياسة الأميركية خلال هذه الفترة مما دفع بمحللين سياسيين مرموقين من أمثال إيغور فيغدال وجاك آتالي إلى التصريح بأن كلينتون يتعامل مع الأزمات بصورة تكتيكية. وهو يعالج كل حالة على حدة (Case by case). مما يعكس قصوراً إستراتيجياً. وهذه الفوضى الإستراتيجية

الأميركية (وهي شكلية برأينا) انعكست غموضاً وإرباكاً في المواقف (الإسرائيلية). ولقد بلغ هذه الغموض قمته إبان حرب كوسوفو حيث اعتمد كلينتون التكتيك الآتي:

أ - اللجوء إلى القصف المكثف والدموي واستعراض التفوق العسكري الأميركي واستغلاله إلى أقصى الحدود.
ب - تجنب إعلان الحرب. وهو تجنب ساعد كلينتون على تخطي الكونغرس والتخلص من ضغوطاته. كما ساعده هذا التجنب على السيطرة على الإحراج أمام الأمم المتحدة (8)،
ج - تجنب الإنزال البري ومعه تجنب استخدام أسلحة ذات ثمن سياسي. فكلينتون لم يكن يوماً مستعداً لدفع هذا الثمن.

د - الحفاظ على المصالح الأميركية وحمايتها من الأخطار لغاية التأخر في التدخل مع دفع الأمور نحو التعقيد. لغاية تلقي طلب رسمي بالتدخل من قبل الاتحاد الأوروبي.

وزاد الإرباك (الإسرائيلي) بسبب تكتيكات كلينتون التالية لحرب كوسوفو حيث بدأ لا مبالياً بالملف العراقي وميلاً لتركه إرثاً صعباً للرئيس المقبل. والأهم من كل ذلك أنه بدأ يمارس ضغوطاً على (إسرائيل) لتحريك المفاوضات على المسارين اللبناني والسوري المتلازمين.

الموقف (الإسرائيلي) الضمني يتلخص باستحالة اتخاذ أية خطوة إستراتيجية إلا بالتناغم مع بوصلة التوجهات الأميركية (وهو موقف طفيلي إلى حد بعيد). وبسبب هذا الغموض باتت (إسرائيل) عاجزة عن اتخاذ أي موقف فعادت لاستخدام حيلها القديمة في المماطلة والاحتيال (9).

وتحول سوء التوجه (الإسرائيلي) إلى انعدام توجه بعد تعديلات حلف الناتو الإستراتيجية. وهي تعديلات جاءت داعمة لمستقبل المصالح الأميركية. لكنها تضمنت تراجعاً عن مبادئ "النظام العالمي الجديد" باتجاه "حلف عالمي جديد". إضافة إلى كون هذه التعديلات مضافة إلى السلوك الأوروبي خلال حرب كوسوفو تتعارض والعديد من مبادئ الاتحاد الأوروبي، الذي يبدو الآن في حالة احتواء من قبل الناتو. وما الدعوة الأوروبية لإنشاء قوة تدخل سريع سوى محاولة لتجاوز هذا الاحتواء.

لهذه الأسباب مجتمعة فضلت (إسرائيل) تأخير اتخاذها لأي قرار حاسم لغاية اتضاح عاصفة الغبار الأميركي. مما يقتضي اللعب في الوقت الضائع المتمثل بفترة الانتخابات الأميركية والمدة التي يستغرقها الرئيس الجديد حتى يعاود فتح الملفات ذات الصلة بـ(إسرائيل). في المقابل تابع كلينتون ضغوطاته على (إسرائيل) من أجل تحريك المفاوضات على مختلف المسارات. و(الإسرائيليون) على مختلف تياراتهم، لا يستسيغون مثل هذه الضغوطات، خصوصاً وأنهم يعتبرونها هادفة لتحقيق إنجازات شخصية للرئيس كلينتون. من هنا كانت الإيحاءات (الإسرائيلية) المتكررة بالاستعداد لقب الطاولة على الجميع مع البداية الفعلية للانتخابات الأميركية في حزيران (يونيو) المقبل وما إصرار باراك على تأكيد الانسحاب في تموز (يوليو) إلا واحداً من هذه الإيحاءات.

5 - انعكاسات المناخ الدولي على المقاومة:

إن الهيمنة الأميركية على العالم تجعل من الطبيعي أن تترك الولايات المتحدة بصمات مصالحتها في جميع مناطق الصراع. إذ لا يمكن تجاهل الدور الأميركي في مختلف هذه الصراعات. من إيرلندا إلى تيمور الشرقية مروراً بالبلقان وتركيا والقوقاز والشرق الأوسط بكامله. وبهذا نأتي للحديث عن انعكاسات هذا الدور على المقاومة. وللإختصار نلجأ لتعداد هذه الإنعكاسات عبر النقاط الآتية:

أ - لقد أدى السلوك الاحتياالي - التجنبي المعتمد (إسرائيلياً للأسباب المذكورة أعلاه) لإحراج كافة الأطراف (بما فيها الطرف الأميركي الذي بلغ قمة إحراجه لدى رفض باراك الاعتراف بوديعة رابين). وهذا الإحراج حول الجنوب من ميدان لدفاع الجنوبيين عن استمرارية حياتهم على أرضهم والرغبة في تحريرها إلى ميدان وجبهة مواجهة مباشرة مع (إسرائيل). مما أزال الحرج الذي كاد أن يحول المسألة إلى مشكلة لبنانية داخلية. وعلى هذا الأساس باتت هذه الجبهة قادرة على استيعاب عودة كثيفة للأحزاب الوطنية ولمقاتلين عرب من مختلف البلدان العربية (10).

ب - أدت المحاولات (الإسرائيلية) المتكررة للتخلص من تفاهم نيسان إلى تدني مستوى صدقيتها في أية تسوية مقبلة في المنطقة. لذلك اندفعت بكل قدراتها باتجاه إصاق صفة الإرهاب بالمقاومة. واستغلال طابعها الإسلامي الراهن لربطها بما بات يعرف بالإرهاب الإسلامي. وهي تحاول استغلال الإسلاموفوبيا للتهديد بضربات شديدة الوقاحة، مستغلة الانشغال الانتخابي الأميركي. مع محاولة الاتكاء على دعم بديل (مثل تصريحات جوسبان الأخيرة).

ج - إن الإحراج الذي سببه باراك للسلطة الفلسطينية جعلها في وضع العاجزة عن توجيه رأيها العام (تحرك طلاب جامعة بيرزيت والتعاطف الفلسطيني في الداخل والخارج مع المقاومة بمختلف تياراتها واتجاهاتها).

د - اضطرار باراك للاعتراف بوديعة رابين والإعلان عن التزامه بالانسحاب من الشريط الحدودي.

6 - من فييتنام إلى الشريط المحتل:

قبل تعداد وجوه الشبه بين التجربتين لا بد من تسجيل فارق أساسي بين الوضعيتين. فقد تحولت فييتنام إلى عقدة أميركية، لأنها كانت صدمة أولى في التاريخ الأميركي. أما الشريط فهو مرض (إسرائيلي). لأن الذاكرة اليهودية مملوءة بذكريات الاضطهاد المرضي والهذاء العظامي الذي يجتر المذابح اليهودية دون الاعتراف بجنون العظمة والتفوق اليهودي المؤدي لهذه المذابح.

أما عن وجوه الشبه بين فييتنام والشريط فمن أهمها:

أ - شعب يعيش رفاهية اقتصادية يواجه أصحاب أرض وعقائد مستعدين للموت بالشكل الذي تفرضه عليهم الظروف.

ب - دولة عاجزة عن دفع الثمن السياسي للحرب. خصوصاً لجهة تقديم الضحايا البشرية التي تقتضيها الحرب.

ج - رأي عام لا مبال بالمكاسب الإستراتيجية الباهظة الثمن. خصوصاً وأنها أراض واقعة خارج (بلده).

د - طابع حرب العصابات المفتوحة التي لا يمكن التنبؤ بعدد ضحاياها ولا بحجم خسائرها ولا بسيناريو منطقي لنهايتها.

هـ - التستر بالسكان المحليين وخوض الحرب من خلالهم. بحيث لا يمكن ضمان ولاء هؤلاء مع عداوتهم لأبناء جنسهم لفترة طويلة. أو على الأقل تنامي احتمالات اختراقهم مع الوقت. ونقاط التشابه هذه تبرر إطلاق تسمية "فبيتنام الإسرائيلية" على الشريط الحدودي. مع الإشارة إلى أن الولايات المتحدة اعترفت بهزيمتها هناك وهي في أوج قوتها العسكرية ومجدها الاقتصادي. وبالتالي فإن الشريط لا ينتظر تهاوي القدرات العسكرية (الإسرائيلية) حتى يعود إلى جسد الوطن. وإذا كانت الحكومة (الإسرائيلية) الراهنة عاجزة، فإنها مضطرة للانسحاب تحت ضغط المقاومة وللالتفاف على واقع استعداد أفواج جديدة من المقاومين للمشاركة في عملية التحرير (11).

* * *

هوامش ومراجع الفصل السادس

- 1 - محاضرة القاها المؤلف في ندوة "المقاومة اللبنانية" التي أقامها الحزب القومي السوري في قاعة النهضة بتاريخ 10/ 3/ 2000.
- 2 - انظر فصل: من ملفات الإرهاب الصهيوني في هذا الكتاب.
- 3 - إن (إسرائيل) تسعى لتوظيف أية تسوية سلمية محتملة في مشاريع تركز هيمنتها على المنطقة وخيراتها. ومن هذه المشاريع "الشرق أوسطية" الذي طرحه رابين. والكونغريدالية التي تضمها إلى الأردن والدولة الفلسطينية... إلخ من هذه المشاريع التي تعتبرها (إسرائيل) محطات على طريق تحولها إلى دولة عظمى في المنطقة.
- 4 - إن الشعب (الإسرائيلي) يجد طمأنينته في إثبات قدراته على العدوان. وعانى بيريز في حينه من عقدة عدم كونه عسكرياً الأمر الذي جعل الناخب (الإسرائيلي) ميالاً لرفضه للاعتقاد بعدم قدرته على العدوان. لذلك شن بيريز عملية "عناقيد الغضب" ليثبت عدوانيته وملكيته لهذه القدرة.
- 5 - أقيمت هذه المحاضرة بتاريخ 10/ 3/ 2000 أي قبل حوالي الشهر من انسحاب القوات (الإسرائيلية).
- 6 - كعادتها لم تلتزم (إسرائيل) بهذه المسؤولية الاخلاقية. فانسحبت دون إخطار عملائها المحليين في محاولة منها لإغراء المقاومة وتوريثها في مجازر ضد هؤلاء العملاء. وعلى أية حال فإن سلوك (إسرائيل) مطابق للسلوك الأميركي تجاه جيش فييتنام الجنوبية. حيث سحبت قواتها تاركة هذا الجيش تحت رحمة أعدائه الشماليين.
- 7 - وذلك باتقانها للعب على التناقضات اللبنانية الداخلية وسعيها إلى تحويل هذه التناقضات إلى علائم تفكك تفقد لبنان لحمته.
- 8 - غالباً ما يهمل العرب تأثير الكونغرس ومشاركته في قرار الإدارة الأميركية. ولعل كلينتون هو أكثر الرؤساء احتيالياً في التخلص من شراكة الكونغرس. إذ لجأ، من أجل ذلك، إلى مجموعة قرارات منها هذا القرار.
- 9 - راجع فصل "سيكولوجية الاحتلال - المفاوضات (الإسرائيلي) نموذجاً في هذا الكتاب.
- 10 - أدان ليونيل جوسبان عمليات حزب الله خلال زيارة قام بها في شباط 2000 لـ (إسرائيل). فكانت النتيجة أن طلاب جامعة "بيرزيت" رجموه بالحجارة عند زيارته للجامعة. وكان لهذا الرجم معنى رمزياً. فقد كانت التوجهات المخابراتية تسير باتجاه تفجير التناقضات بين المقاومة اللبنانية وبين فلسطينيي لبنان.
- 11 - احتفظت (إسرائيل) بعد انسحابها بمزارع شبعا وبعض النقاط الحدودية الأخرى. وهي تهدد بمواصلة مسلسل اعتداءاتها على لبنان.

* * *

القدس والنفط والمستقبل (1)

قد لا يوافقنا الكثيرون على الربط بين أزمة القدس (الناجمة عن تدنيس شارون للمسجد الأقصى) وبين أزمة أسعار النفط السابقة لها ببضعة أسابيع. ومع أن البعض قد يذهب إلى وصف هذا الربط بالمبالغة فإن مؤشرات عديدة تتقاطع لتبرير هذا الربط. أكثر من ذلك فإن النظر لهذه الأزمات من زاوية تأمين المصالح الأميركية في المنطقة يقودنا للتعمق في تحليل هذه المؤشرات. بداية بإسقاط حكومة مصدق بتدخل أميركي معن. مروراً بالتعاضدي عن دعم الشاه وتركه مشرداً بعد طرده من إيران. وصولاً إلى حربي الخليج الأولى والثانية. الولايات المتحدة من جهتها لا تنفي التدخل لحماية مصالحها في المنطقة. وهي تتحفنا كل فترة بالإفراج عن وثائق تثبت هذا التدخل. معتمدة على نعمة النسيان لدى شعوب العالم المتخلف (كان ثالثاً قبل نهاية الحرب الباردة).

ولكي أنأى بالأراء التي أوردها في هذا الفصل عن تهمة المبالغة وغيرها من التهم الجاهزة لذلك أجد من النافع أن أقدم لهذا الفصل بعرض مقتطفات من بيان القيادة المركزية الأميركية الموقع بتاريخ 1989/4/20. وموقعه نورمان شوارتزكوف (2) الذي أدلى به أمام الكونغرس الأميركي على شكل شهادة عن الأوضاع الإستراتيجية في ذلك التاريخ. من هذا البيان نقتطف:

... إن الشرق الأوسط وهو منطقة مسؤوليتي مليء بالصراعات القابلة للاشتعال والعصية على التنبؤ... إنها منطقة حيوية لأمتنا... علينا أن نظهر لأصدقائنا في المنطقة أن التزامنا بحمايتهم جاد وقابل للدوام... علينا الاحتفاظ بوجود بحري في المنطقة... هناك ضرورة لاستمرار المناورات العسكرية في الخليج وللاستمرار في تمويل المساعدات الأمنية لأصدقائنا فيه... إن العراق يشكل تهديداً للدول الأضعف والأكثر محافظة في الخليج... إن الكويت مستهدفة عسكرياً وجغرافياً والقيادة تؤيد بقوة المساعدة الأمنية الأميركية لقدرة الكويت على حماية نفسها... إن مقدرة القيادة المركزية على الاستجابة للطوارئ مرتبطة باستمرار التعاون مع سلطنة عمان... إن مصر تتطلع أكثر فأكثر إلى الدعم الأميركي... يجب تعزيز القوات الأميركية في المنطقة لتأمين قدرة العالم الحر على الوصول إلى مصادر النفط في جنوب شرق آسيا... يجب تعزيز الجسور الجوية في المنطقة لغاية بلوغها قدرة 66 مليون طن/ ميل يومياً... والبلوغ بقدرة التخزين المسبق للأسلحة مساحة 1.2 مليون قدم مربع و 6000 طن من الأسلحة وخمسة ملايين برميل نفط... كما يجب خفض سرعة الاستجابة إلى ما بين 18 و 24 ساعة.

إن هذا التقرير المنشور قبل أكثر من عام على الأزمة الكويتية يبرر لنا الربط بين مختلف أزمات المنطقة وبين إستراتيجية المصالح الأميركية فيها. ولعلنا نجد في قمة شرم الشيخ خير الأمثلة على هذا الترابط (3).

1- أزمة النفط:

لغاية العام (1971) كان سعر برمبل النفط لا يتجاوز الدولارين اثنين فقط! ولقد سيطرت الاحتكارات النفطية الغربية عبر شركة (ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا)، وذلك منذ بدايات القرن العشرين، على النفط السعودي. حتى ذلك التاريخ لم يكن حظ الدول النفطية من نفطها بأكثر من حظ الأفارقة أصحاب مناجم الماس الذين كانوا يبدلونه بزجاج ملون يحمله اليهم الرجل الأبيض! ولو نحن حاولنا تطبيق قانون "من أين لك هذا؟" على الدول المسماة اليوم بالغنية لوجدنا أن ثرواتها لا تعود إلى تفوقها العلمي بقدر ما تعود إلى الاحتيالات في الاستيلاء على مصادر المواد الأولية (من طبيعية وزراعية ومعدنية) أو أنواع الاحتيالات الأخرى التي تلخصها حرب الأفيون التي خاضتها بريطانيا ضد الصين. لتمد تجارة الأفيون إلى كافة مستعمراتها حتى سميت المستعمرات البريطانية بـ"الأفيونية".

وبغض النظر عن مدى حكمة أو مستوى جنون قرار استخدام النفط العربي كسلاح سياسي. فقد كانت هذه الخطوة مقررة في تاريخ بورصة النفط بل قل كانت فاتحة ومؤسسة لهذه البورصة. إذ أدت هذه الخطوة إلى رفع الأسعار بما يعادل عشرة أضعاف السعر الأساسي. وهذا ما يجعل الخطوة حكيمة وبالغة الأثر لتحويل النفط إلى سلعة إستراتيجية أو على الأقل تأكيد هذه الوضعية. ولكن عدم وجود تغطية عسكرية، ولو بالحد الأدنى، لمنابع النفط يجعل من هذه الخطوة مغامرة إذا لم نقل جنوناً! ولعل الحرب الباردة كانت تمثل الحماية الوحيدة لهذه المنابع.

بعد هذه الخطوة لم بعد بإمكان الاقتصاد العالمي تجاهل هذه البورصة المستجدة. خصوصاً وأنها تصب في مصلحة جميع الدول المنتجة للنفط. ومن بينه الجباران الأميركي والروسي. وكانت آلية التحكم الأميركي في هذه البورصة عبارة عن ربط أسعار جميع أنواع النفط وخاماته بنفط برنت. ومثل هذا الربط احتاج إلى نفوذ وشروط غير عادية توافرت لدى الولايات المتحدة وأهمها:

- 1 - ملكية مخزون نفطي محلي مؤثر.
- 2 - ملكية مخزون احتياطي - إستراتيجي تحصله أميركا عن طريق شراء النفط من الدول الصديقة وعدم استخراجها من آبارها إلا عندما تدعو الحاجة.
- 3 - ملكية رأسمال كاف لاستيعاب أي زيادة في العرض تدفع بالأسعار إلى التدني تحت العتبة الدنيا المحددة أميركياً.

4 - ملكية القدرة على التأثير السياسي في الدول المنتجة. وهي قدرة أميركية تصل إلى حدود تغيير الرؤساء والانقلابات وتحريك الشارع وأخيراً إيجاد واختلاق المبررات للوجود العسكري (احتلال) في منابع النفط. وهكذا عبر هذه القدرات وعبر حيلة ربط الخامات بخام برنت أصبحت الولايات المتحدة مسيطرة سيطرة مطلقة على أسعار النفط العالمية. حتى تبدو "أوبك" وكأنها واحدة من الشركات العملاقة التابعة للولايات المتحدة. ولقد

تجلت هذه التبعية بمظاهر لا تقبل الشك أو حتى التهرب بمجرد الحرج من الاعتراف. وخصوصاً خلال الأزمة الأخيرة حيث بدت قمة الأوبك وكأنها تسير بـ"الريموت كونترول" الأميركي. بعد كل ذلك ألا يحق لنا السؤال عن الدور الأميركي في أزمة النفط الأخيرة؟ فبعد أن اتفقنا على التحكم الأميركي بالأسعار لا بد من السؤال عن المصلحة الأميركية في هذه الأزمة. خصوصاً بعد أن نذكر بالملاحظات والوقائع الآتية:

- 1 - يؤكد الناطق باسم الأوبك وجود عرض نفطي أكبر من الطلب! ومع ذلك فقد اتخذنا قرار زيادة الانتاج بمعدل 800 ألف برميل شهرياً (وذلك طبعاً بضغط أميركي لا بد من تحري أهدافه).
- 2 - يصرح وزير المال الكويتي بأن بلاده وأوبك ليستا وراء الأزمة. وهم مستعدون لزيادة الانتاج إذا كان في ذلك الحل. ولكن هل توجد وسائل نقل كافية لنقل هذه الزيادات؟ (4)
- 3 - لا تزال أميركا مصرة على عدم إدراج النفط ضمن السلع التي ينطبق عليها قانون منظمة التجارة الدولية (W. T. O).

- 4 - أعلنت الولايات المتحدة عن برمجتها لضخ 30 مليون برميل من احتياطها لزيادة العرض.
- 5 - ركز الإعلام الأميركي على تحميل الأوبك مسؤولية زيادة الأسعار. وحرمها من فرص عرض الوقائع على الجمهور. فذكر ذلك بالعهد الذي كان فيه الجمهور والرأي العام ينظران لمنتجي النفط على أنهم محتكرون جشعون وشريرون.

وهكذا تتوالى التناقضات التي تظهر الولايات المتحدة كصانع للأزمة لتعود فتظهرها كعامل على حلها. ولعلنا بحاجة لاستعراض مختلف الآراء والتحليلات الباحثة في سببية نشوء الأزمة الأخيرة، لكننا قبل ذلك نود التذكير بواقعة من أخطر وقائع التوظيف الأميركي السياسي للنفط.

2 - أثرياء تكساس وحرب الخليج:

لم تكن الحرب العراقية - الإيرانية مجرد تطبيق لمبدأ الاحتواء المزدوج والبديل عن سياسة الأقطاب (انتهت بسقوط الشاه). فقد كانت هذه الحرب أيضاً موظفة في البورصة النفطية. حيث تحولت دولتان من كبار المصدرين إلى المديونية وإلى البيع الآجل والطويل الأمد لمخزونها. وهذا يعني تعزيز قبضة أثرياء النفط الأميركيين على هذه البورصة وتحكمهم المستقبلي فيها.

لكن توقف هذه الحرب بالإضافة إلى جملة ظروف مؤثرة في البورصة، أدت إلى زيادة المعروض النفطي (خصوصاً من قبل العراق الذي كان يحاول سداد ديونه وتعويض ما فاتته وتعطل التصدير خلال الحرب). ومع أن "المعدل الوسطي لسعر البرميل في العام 1990 وصل إلى حوالي الـ 20 دولاراً (يقبل قليلاً) فإنه وصل في بعض فترات من ذلك العام إلى حدود الـ 9 دولارات للبرميل. مما جعل شركات النفط الأميركية مهددة جدياً بالإفلاس. وكان جورج بوش الابن (الرئيس الحالي) في طليعة المرشحين للإفلاس. مما أصابه بحالة اكتئاب جعلته يلجأ للكحول ويدمنها ومن بعدها لجأ إلى الكوكايين. ولم يكن وضعه بأفضل من بقية أوضاع أثرياء تكساس

أو أسوأ منهم. فأتجاه الأسعار كان نزولاً إلى ما دون سعر تكلفة الاستخراج الأميركية الغالية. لذلك راح هؤلاء يضغطون على الإدارة الأميركية لافتعال "شيء ما لوقف تدفق نفط الخليج العربي". وفي حينه تسربت أنباء من مجلس الأمن القومي الأميركي إلى الصحافة الأميركية عن خطتين لوقف نفط الخليج. الأولى تتعلق بافتعال أزمة مذهبية (سنة/ شيعية) في البحرين تفتح الأبواب أمام التدخل الإيراني وتجديد لعبة الاحتواء المزدوج ولكن على مسرح آخر. والثانية تتعلق بالكويت وتم اختيار السيناريو الثاني فتوقف نفط الخليج واستعاد أثرياء تكساس ثرواتهم وقدرتهم على التحكم في السوق العالمي. لدرجة توجيه التهديدات بخفض الأسعار إلى مستوى خمسة دولارات للبرميل في حال أي تمرد نفطي عقب صدمي لكارثة الشيزوفرانيا العربية التي فجرتها حرب الخليج الثانية. والتي تجاوزت المراكز إلى الأطراف. وباتت الطريق ممهدة، عن طريق النفط السياسي. للدعوة إلى "مؤتمر مدريد". فهل يمكن بعد ذلك الشك بكون النفط سلعة سياسية يزداد تسيبها ويتنامى تأثيرها مع الوقت؟ خصوصاً في حال فوز بوش الابن في سباق الرئاسة الأميركية!؟

وبما أن التركيز على النفط في مجال السياسة مدعاة للظن بأحادية الرؤية فإننا نحاول نفي هذا الظن بطرح سؤال نرجو من معارض رؤيتنا الإجابة عنه قبل أية مراجعة. والسؤال هو: هل كانت الولايات المتحدة لتخوض مغامرة حرب الخليج لو كان سعر البرميل في حينه 37 دولاراً كما هو السعر الحالي؟

وها هي الولايات المتحدة تدرك ثغرات بورصة النفط التي كادت تؤدي بالاقتصاد الأميركي إلى الانهيار عام 1990 لو استمر تدهور الأسعار دون أن تتمكن من ضبطه بأي وسيلة (إفلاس شركات النفط يعادل انهيار الاقتصاد الأميركي عبر فقدان الدولار لوضعية العملة العالمية).

وبناء على هذه التجربة الصعبة والمأزقية كان على الولايات المتحدة أن تقوم بمراجعة شاملة للدراسات والتجارب المتعلقة بالبورصات للإفادة منها في بورصة النفط. وعلى هذا الأساس كانت الخطوات الآتية:

1 - تأكيد القدرة على التحكم بمصادر النفط وتقنين صادراته بما يوافق مستوى السوق. وذلك عن طريق الوجود الأميركي المباشر والعسكري. وهو وجود جعل الدور (الإسرائيلي) يتقلص إلى حدود تفجير الخلافات (الإسرائيلية) الداخلية وصولاً إلى الضغط لإسقاط بوش الأب. الذي أقصى (إسرائيل) من مواقع إستراتيجية تقليدية بالنسبة إليها. كما ساقها إلى مدريد وهو مأزق لا تزال لغاية اليوم تحاول تجاوزه وإلغاء آثاره.

2 - الحفاظ على الأزمات الساخنة في المنطقة وتحريك الراكد منها. وهو حفاظ بات يختصر إستراتيجية الإدارة الأميركية في الشرق الأوسط. وأهم هذه الأزمات:

- أ - الحصار على العراق وتقنين انتاجه النفطي (بالتهديب أو مقابل الغذاء).
- ب - تفجير أزمات العراق الداخلية ومع جيرانه للإبقاء على حالة الهلع الخليجي.
- ج - تحريك مشكلة الحقوق (الإنسان والمرأة والطفل) والأقليات.
- د - تصنيف دول المنطقة إلى: إرهابية - داعمة للإرهاب - عرضة لعمليات إرهابية - عرضة لأزمات داخلية/ إرهابية وإلى دول مارقة. وبمعنى آخر إنه إعلان الغضب الأميركي الشامل على دول المنطقة.

ه - إبقاء الأبواب مفتوحة أمام تحريك لعبة الاحتواء المزدوج عبر مفاتيح تفجير متعددة أهمها:

- البحرين (سبق شرحها).

- أزمة الجزر الثلاث (بين إيران والإمارات العربية المتحدة).

- التناقضات اللبنانية (خصوصاً المواقف تجاه حزب الله).

- مناطق وجود وسكن الشيعة العرب (لبنان وسوريا والعراق وشرق السعودية والبحرين والكويت).

و - الدور (الإسرائيلي) الذين يذكر بالصراع مع العرب عبر عمليات نوعية من أن لآخر. من تدمير المفاعل

العراقي إلى مجازر القدس الأخيرة مروراً باجتياح عاصمة عربية... الخ.

3 - إبقاء النفط خارج السلع المدرجة في إطار سلع منظمة التجارة العالمية.

3 - دور النفط في حرب كوسوفو:

عند اندلاع حرب كوسوفو كان حجم الاستثمارات الأميركية في القوقاز قد بلغ حدود الـ 200 مليار دولار. وكانت الطريق إلى القوقاز غير ممهدة. كما كانت المصالح الأميركية عرضة لتهديدات أوروبية (أنظمة الاتحاد الأوروبي إجمالاً وما يقترح عنها من قرارات وخطوات تتعارض مع المصالح الأميركية). وبذلك تكون حرب كوسوفو قد أجبرت الأوروبيين على الدخول في صراع بشروط القيادة الأميركية. التي استهدفت اختراق قوانين الاتحاد الأوروبي و "إضعاف اليورو" بشكل أساسي كما كانت حرب كوسوفو اختباراً لقدرة الشارين الروسي واليوناني على التحرك وأيضاً اختباراً لإمكانية احتواء تركيا والمسلمين (5). وبذلك تكون حرب كوسوفو خطوة أميركية أولى نحو القوقاز النفطي. فبالرغم من الاهتمام الأميركي بالحزام الأوراسي فإن هذا الاهتمام يحتاج إلى محرك عملي وكان اكتشاف النفط القوقازي هو ذلك المحرك. مع الإشارة إلى خيبة الأمل في هذا الاكتشاف. حيث كانت التقديرات لحجم الاحتياطي القوقازي تتراوح ما بين 600 و 800 مليار برميل في حين أن الاحتياطي الفعلي لم يتجاوز الـ 50 مليار برميل.

4 - النفط وأزمة القدس:

بعد ما تقدم هل يمكن ربط أزمة القدس الراهنة بمسألة النفط؟ أو على الأقل بأزمة أسعاره الأخيرة؟ بالرغم من أن عديدين قد لا يوافقون على هذا الربط لكننا نصر على مناقشة أية علاقة ممكنة بين الأزميتين. خصوصاً وأن مؤشرات عديدة تتقاطع لمصلحة الربط بين الأزميتين. ومن هذه المؤشرات نعدد:

أ - زيارة شارون المخطط لها والتي تمت بحماية ثلاثة آلاف شرطي وبالتالي بموافقة حكومة باراك ومعها موافقة أميركية إذا لم تكن بوحى أميركي بافتعال أزمة ما في المنطقة. وهذا يدفعنا قسراً إلى تصنيف هذه المكاسب في خانتيين؛ الأولى خانة المصالح الشخصية والثانية خانة المصالح الإستراتيجية. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن تطويع الأزمات المدروسة لخدمة المصالح الشخصية ليس بالأمر المستجد على السياسيين الأميركيين (والإسرائيليين).

ففي خانة المصالح الشخصية يمكننا أن نعدد ما يأتي:

- 1 - استمرار كلينتون في لعب دوره الرئاسي. ورفضه لوضعية "البطة العرجاء" التي توصف بها الأيام الرئاسية الأخيرة. فهذا هو يتصدر قمة عالمية في أواخر أيامه.
 - 2 - إقصاء نتنياهو وهذا هدف مشترك بين كلينتون (الذي يمقته) وبين باراك (العمل/ الليكود) وبين شارون (منافسه داخل الليكود).
 - 3 - تحقيق مكاسب مالية عن طريق المضاربة النفطية (شخصية وعامة). مع ما في ذلك من إرباك لأثرياء النفط الذين يدعمون بوش.
 - 4 - موقف كلينتون الشخصي الداعم لـ(إسرائيل). الذي مكنه أن يجلب أصوات يهود نيويورك لزوجته هيلاري. خصوصاً بعد مشاركة هذه الأخيرة في التظاهرات اليهودية المعادية للعرب.
 - 5 - الالتفاف على احتمال الخروج من دائرة التأثير السياسي (بالنسبة إلى كلينتون في حال خسارة آل غور) ومن الحكم (بالنسبة إلى باراك) حيث بدا الاثنان أصحاب قرار في سلام المنطقة والعالم.
 - 6 - تحضير كلينتون لأجواء مريحة لخروجه من البيت الأبيض. حيث يحاط هذا الخروج بجملته مشكلات ضاغطة. ودعم (إسرائيل) وممارسة التأثير الأميركي حتى اللحظات الأخيرة يجعلان هذه المشكلات أقل ضغطاً على كلينتون ما بعد الرئيس!
 - 7 - الانتقام الشخصي من بعض مظاهر التمرد العربي عبر الأوبك وعبر شافيز على الولايات المتحدة.
 - 8 - الثأر لفشل كامب ديفيد الثانية. وهو ثأر غير موجه انتقائياً إلى عرفات. بل هو موجه إلى كل الزعماء العرب المصريين على عروبة القدس. وبالنظر لمرجسية كلينتون فإنه يحول هذا الثأر إلى شخصي (وهو قد فعلها قبلاً مع نتنياهو).
- أما على صعيد المصالح الإستراتيجية الأميركية فإن علينا أن نلاحظ:
- 1 - عودة النفط العربي لاحتلال واجهة الاهتمام الأميركي بعد اكتشاف ضالة المخزون النفطي القوقازي بالنسبة إلى التوقعات. وهذه العودة تقتضي تعزيز القبضة الأميركية على المنطقة. وهنا يبرز الدور الوظيفي لـ(إسرائيل) بافتعال الأزمات المبررة لهذا التعزيز.
 - 2 - الاحتياط لإمكانية التجاوب مع دعوة العراق لاعتماد اليورو بدلاً من الدولار في بيع النفط.
 - 3 - إثارة الذعر في السوق النفطية (وخصوصاً في المناطق التي تعتمد على النفط العربي وهي اليابان وأوروبا) وكسب أرباح أميركية إضافية عن طريق بورصة النفط. حيث تحكم الولايات المتحدة بالقرار السياسي يجعلها قادرة على التحديد المسبق لاتجاه الأسعار والإفادة من هذه المعلومات في البورصة.
 - 4 - إثارة الذعر في الدول العربية والنفطية خصوصاً. حيث لا يحتاج التدخل الأميركي لأكثر من افتعال حادثة المدمرة كول (يرجح أنها من صنع الموساد) لتحويلها إلى لوكربي جديدة. فاتهم بن لادن لا يلغي احتمال اتهام دولة ما لاحقاً.

5 - تحريك التناقضات الكامنة في كل قطر عربي على حدة. ومنها ما حصل قبل بضعة أشهر من إثارة مشكلة حقوق الإنسان في السعودية. ثم التراجع عنها ومن ثم إعادة طرحها بمناسبة خطف الطائرة السعودية.

6 - استعراض الجبروت الأميركي بتعويق انعقاد القمة العربية ومن ثم الالتفاف عليها (بعد أن فرضها عليها الشارع) بقمة شرم الشيخ ولهذه القمة أهدافها الإستراتيجية المباشرة التي تشكل هدية وداع كلينتون للبيت الأبيض وهي:

أ - إفراغ القمة العربية من دلالتها المعنوية والالتفاف عليها بقرارات مسبقة.

ب - طرح مسألة حماس واعتبار المنظمات الأخرى ميليشياوية وسحب سلاحها.

ج - طرح مسألة الوجود السوري في لبنان كورقة ضاغطة.

د - طرح مسائل "الإرهاب" من حزب الله وحتى بن لادن.

ولكن سؤالاً يطرح نفسه بتلقائية شديدة وبغفوية ضاغطة. والسؤال هو هل يستأسد (يتحول إلى أسد) كلينتون في أواخر أيامه وهو الذي أمضى فترتين رئاستين وهو يرتعد خوفاً من أية مجابهة. إذ بدل الهجوم على العراق بحروب مقسطة منها "ثعلب الصحراء". وارتعدت فرائصه رعباً عندما طالبه الأوروبيون بالإنزال البري في كوسوفو. وغير ذلك من المواقف التي سجلها خلال رئاسته. حيث كان يستخدم التفوق العسكري الأميركي دون رحمة ولكنه يهرب من أي مواجهة فعلية. وهنا نأتي لطرح السؤال هل يتحول كلينتون إلى المواجهة؟ أم أنه سيكتفي على عادته بالتهويل بالقوة الأميركية؟ أم تراه لا يجد مانعاً من تحميل خليفته مشكلة إضافية إلى جانب المشكلات الأخرى التي تركها دون أن يحاول إيجاد الحلول لها. مكتفياً بتوظيفها تكتيكياً لمصلحة الاقتصاد الأميركي؟

منذ حوالي السنة تلت السفارة الأميركية في باكستان تحذيراً مباشراً من بن لادن. ويقول التحذير: "في حال قصف مواقعنا فإن الرد هذه المرة سيكون من داخل الولايات المتحدة". ويقال إن كلينتون قد أخذ هذا التحذير على محمل الجد وألغى ضربة كانت مقررة في حينه لمواقع بن لادن.

إن الموقف الأميركي لغاية الآن لا يعبر عن أية مراعاة لمشاعر العرب القومية والدينية والإنسانية. مما يجعلنا أمام خيارين فإما الإنخراط في المشروع الأميركي - (الإسرائيلي) وإما مواجهة هذا المشروع. فالشارع العربي لم يعد يتحمل المراوحة بين الموقفين!

فإذا ما نظرنا لهذا السؤال على ضوء نتائج قمة شرم الشيخ المعلنة في (2000/10/17) لوجدنا أن كلينتون قد بلغ الذروة في إجادته دور التهويل بالقوة الأميركية وتوظيفها كعنصر ضاغط.

بعد هذه النتائج المعلنة، ومعها إجهاض آمال الموت بطريقة مخالفة لسبل الموت الأميركية، نجد أن الطرف الأقوى قد حقق مكاسبه على الصعيدين الشخصي والعام وأن الطرف الأضعف قد اضطر لاستخدام كل حكمته واستنفادها. لكن الأهم ألا نفوت مناسبة التلاحم الشعبي الذي أنتجته الأزمة وأن نبتعد عن العودة إلى تقاذف تهم التكفير والتخوين.

تقرير خاص من واشنطن (6):

معهد أميركي مستقل يكشف عن خطة نالت تأييد كلينتون لتنفيذ مذبحه أكبر 2000 إلى 3000 قتيل فلسطيني... مع حد أدنى من التغطية الإعلامية!

كشف تقرير تحليلي وضعه "معهد الاتصالات الاجتماعية الثقافية" الأميركي المستقل - وينشر في شهريته الفكرية التي ستصدر في بداية نوفمبر 2000 - أن: "إيهود باراك رئيس الوزراء الإسرائيلي قد حصل على الضوء الأخضر الأميركي من الرئيس بيل كلينتون للقيام بمذبحه أوسع من تلك التي شهدناها حتى عبر الإعلام الإسرائيلي خلال الأسابيع الماضية -

ضد المدنيين الفلسطينيين". ويقول التقرير إنه: "مع ذلك فإن ما شهدناه حتى الآن لا يعدو أن يكون مجرد التمهيد، وأن الأهم هو ما سيحدث خلال الأسابيع التالية"، وأن تفاصيل الخطة الإسرائيلية التي حصلت على الموافقة الأميركية بالفعل تتضمن "اقتحام مناطق السلطة الفلسطينية بحجة مصادرة أسلحة الفلسطينيين" كما تتضمن شن غارات من الجو ضد هذه المناطق.

ويضيف التقرير - الذي وضعه فريق باحثين أميركيين و(إسرائيليين) - أن ثمة حديثاً الآن في أوساط الحكم (الإسرائيلي)، وكذلك في بعض الدوائر الأميركية، عن خطة "كوسوفو" (إسرائيلية) ضد الفلسطينيين، يقدر عدد القتلى نتيجة لها بما يتراوح بين ألفين وثلاثة آلاف من الفلسطينيين. وتقضي الخطة بالسماح بأدنى حد ممكن من التغطية الإعلامية، كما تقضي بأن تلقى مسؤوليتها من البداية على عاتق الفلسطينيين.

وقد بدأ بالفعل وبطريقة شبه سرية - وحسب هذا التقرير - جانب من تنفيذ هذه الخطة بالقيام بعمليات هادئة لإجلاء الفلسطينيين من عدد من مواقعهم التي يطلق عليها العسكريون (الإسرائيليون) وصف "مناطق صراع"، وهي المناطق القريبة من (مستوطنات) لليهود. وقد تلقى معظم سكان هذه المناطق من الفلسطينيين إنذارات بضرورة إخلاء مناطقهم وبيوتهم "خشية على حياتهم". وقد تمت بالفعل عمليات إخلاء في البيرة وبيت جالا ومخيم عسكر قرب نابلس. "وهذه هي مجرد البداية".

ويصف التقرير هذا الجانب من خطة "كوسوفو" هذه بأنه تنفيذ لعمليات نقل للسكان بذريعة الحرب. بل يؤكد التقرير أن عمليات الإعداد العسكري وتدريب القوات (الإسرائيلية) على الهجمات المخططة كانت قد بدأت بالفعل في حزيران (يونيو) الماضي، وقتها كان باراك قد صرح للصحافة (الإسرائيلية) بأنه "ثمة خطر من وقوع قلاقل فلسطينية في أعقاب كامب دايفيد الثانية وعلى غرار ما جرى في جنوب لبنان. إلا أنه كان من الضروري، وفقاً لهذه الخطة، أن يبدي باراك اهتماماً غير مسبوق "لهفة" على تحقيق السلام.

ويعتقد الباحثون الذين وضعوا هذا التقرير - تحت إشراف أستاذة في جامعة أوترخت الألمانية - أن "البروفة الدبلوماسية" لهذه الخطة كانت قد "جرت في وقت سابق من هذا العام مع سوريا: محادثات سلام مكثفة في نهايتها أعلن باراك أنه لا يجد شريكاً في مسعى السلام. وبعد ذلك كانت جولة محادثات كامب دايفيد الثانية كافية

لإقناع (الإسرائيليين) بأن الأمر نفسه الذي ينطبق على السوريين (أي كونهم لا يشكلون شريكاً في مسعى السلام بسبب تشددهم) ينطبق على الفلسطينيين. وكان كل ما تبقى بعد ذلك هو الحصول على الموافقة الأميركية".
"وقد انتظر باراك ثلاثة أسابيع كاملة - وهو ماضٍ في تنفيذ خطته - الحصول على الضوء الأخضر الأميركي. وقد كتبت نشرة "وورلد تريبيون" بالفعل يوم 9 تشرين الأول (أكتوبر) 2000: إن إيهود باراك يناشد الولايات المتحدة أن توافق على هجوم كثيف ضد لبنان والمناطق الفلسطينية. وحتى الآن فإن الولايات المتحدة تناشد باراك أن يتيح مزيداً من الوقت".

"وربما نكون قد خدعنا بالظن بأن الموافقة الأميركية لن تأتي هذه المرة. فهناك قدر كبير من المعارضة لأفعال (إسرائيل) في أنحاء العالم. والعالم العربي تسوده تظاهرات عاصفة، والسفارات الأميركية كان لا بد من أن تغلق مؤقتاً، وانفجار المدمرة الأميركية في اليمن كان مؤشراً إلى أن الأرض تحترق.

ولقد أظهرت الولايات المتحدة في البداية حرصاً حتى أنها لم تستخدم الفيتو كما هو مألوف ضد قرار مجلس الأمن... ولكن مداوات الأسابيع الثلاثة انتهت بضوء أخضر. لقد أقيمت دبلوماسية مكثفة من التهديدات والوعود الولايات المتحدة بأن النظم العربية لا تزال نظماً يمكن الاعتماد عليها للوقوف بوجه الضغط الشعبي. وكما كان المتوقع فإن القمة التي عقدها جامعة الدول العربية انتهت كما ينتهي حفل لا ضرر منه. وهكذا يصبح بإمكان الدبابات أن تبدأ في الكلام دون أن يقاطعها أحد. ويصف التقرير التحليلي لمعهد الاتصالات الثقافية الأميركي ما يجري بأنه لعبة خطيرة. ومكمن الخطر هنا ليس فقط هذه المساندة التلقائية لـ(إسرائيل). إن الغضب العربي المتفجر موجه الآن إلى الولايات المتحدة بدرجة لا تقل عن توجيهه ضد (إسرائيل). وقد كان التحرك العقلاني من جانب الولايات المتحدة يقتضي أن تهدئ الأمور الآن بأن توقف باراك. لكن هذه لم تكن أبداً الإستراتيجية الأميركية. إنهم (المسؤولين الأميركيين) لا يسمحون بأضعف درجة من العصيان من جانب الخدام المواليين. إنهم يريدون دائماً أن يبينوا من هو السيد هنا.

ويتعرض التقرير بعد ذلك لموقف رئيس السلطة الفلسطينية ياسر عرفات فيقول إن عرفات قد رضخ مرة أخرى في شرم الشيخ. وربما خدعنا الظن بأنه هذه المرة - وتحت ضغط شعبه سيتغير. ولكن تأخر الوقت عليه كثيراً لكي يتغير. إن مأساة الشعب الفلسطيني هي أن الشخص الذي كان في الماضي يرمز إلى نضاله في عيون العالم قد تحول إلى جلال لدى الاحتلال (الإسرائيلي).

"إن المسألة الجوهرية التي دبرت في قمة شرم الشيخ - خلف العرض العام المتعلق بوقف إطلاق النار - كانت الاتفاق الأمني الذي يضمن استمرار التزام عرفات بالقيام بالمهمة الأمنية لمصلحة (إسرائيل)، أي منع الفلسطينيين من الانتقام مما يلحق بهم بتوجيه ضربات داخل (إسرائيل) ...".

وهكذا فإنه بعد يوم واحد من شرم الشيخ قامت وحدة سرية (إسرائيلية) بإلقاء القبض على ثمانية فلسطينيين كانوا بين الجموع التي أعدمتم جنديين (إسرائيليين) قبل أسبوع. لقد تمت هذه العملية بتواطؤ بعض أعضاء قوى الأمن الفلسطينية، الذين يبدو أنهم دلوا (الإسرائيليين) على المكان الذي يمكنهم أن يجدوا فيه الفلسطينيين الثمانية.

ويعتبر التقرير أن الدعايات الرسمية التي تتردد في (إسرائيل) بأن عرفات مسؤول عن الانتفاضة وأنه ليس شريكاً حقيقياً في السلام تخدم هدفين (إسرائيليين): "إنها لا توفر فحسب التبرير المستمر للمذابح المخططة، إنما هي أيضاً تقدم الخدمة الأكبر التي تستطيع (إسرائيل) تقديمها مقابل التزام عرفات. إن عدم رضى (إسرائيل) المستمر عن عرفات هو المصدر الوحيد لصدقيته. وحينما كانت (إسرائيل) تكثف قتلها للمتظاهرين العزل من السلاح - يوم الجمعة 20 تشرين أول حين سقط 20 قتيلاً في يوم واحد - كان الناطق باسم عرفات، صائب عريقات، يناشد الولايات المتحدة، لا أحد غيرها، لكي تحقق في الأمر وتحمي الفلسطينيين. وقد جاء هذا بعد تنازل آخر قدمه عرفات في شرم الشيخ وهو ألا يعود إلى توجيه نداءات إلى المجتمع الدولي".

وينتهي التقرير التحليلي إلى القول إنه "إذا كان هناك شيء - أي شيء - يمكن أن يمنع إراقة مزيد من الدماء فهو تدخل دولي. مفتشون دوليون، قوات من الأمم المتحدة، أو متطوعون من المنظمات غير الحكومية يحضرون إلى المنطقة لعلهم يستطيعون أن يبطنوا حركة القوات (الإسرائيلية). لهذا فإن من المهم للغاية الآن أن يفهم جيداً دور المتواطئ الذي يقوم به عرفات، وأن نتذكر أن (إسرائيل) - وليس الشعب الفلسطيني - هي التي تنظر إلى الولايات المتحدة باعتبارها الوسيط المحايد".

* * *

هوامش ومراجع الفصل السابع

- 1- محمد أحمد النابلسي: مقالة منشورة في جريدة الكفاح العربي بتاريخ 23/10/2000.
- 2 - تقرير نشرته مجلة الكفاح العربي بتاريخ 1998/5/8 لمراسلها من واشنطن.
- 3 - هناك تقرير أميركي نشرته الكفاح العربي بتاريخ 2000/10/26، أي بعد ثلاثة أيام فقط على نشر هذه المقالة. والتقرير يشير إلى موافقة كلينتون المسبقة على مجزرة الأقصى. لذلك رأينا أن نضيف هذا التقرير إلى الفصل هذا في فقرة إضافية.
- 4 - مقابلة تلفزيونية مع محطة M.B.C الفضائية العربية.
- 5 - محمد أحمد النابلسي: كوسوفو تخلف عالماً متعدد الأقطاب، مقالة منشورة في جريدة الكفاح العربي بتاريخ 1999/ 6/26.
- 6 - تقرير جريدة الكفاح العربي منشور بتاريخ 2000/ 10/ 26.

* * *

خدعة التدوين المشترك للتاريخ (1)

"التدوين المشترك للتاريخ" دعوة أطلقتها جماعة المؤرخين (الإسرائيليين) الجدد الذين يؤلفون حركة لتجديد الصهيونية. مع طموح بعضهم لتسميتها بـ "ما بعد الصهيونية". لكن المراقب يتساءل عن مصادر قوة ونفوذ هذه الحركة؟ فهي أولاً تتحدى المتشددين (الإسرائيليين) وتعيد النظر في التاريخ (الإسرائيلي) بشكل يستفز الصهاينة التقليديين. فمن أين تأتت القوة لجماعة من المثقفين لا يتجاوزون العشرة لمواجهة هذه التيارات؟ بل إنهم توصلوا لفرض تدريس كتبهم وقراءاتهم للتاريخ في المدارس الرسمية (غير الدينية)!

هل يمكننا أن نسلم بعد ذلك باستقلالية هذه الحركة عن النظام السياسي (الإسرائيلي)؟

إن المسألة لا تحتاج إلى طويل بحث إذ تكفي مراجعة كتاب يوسي بيلين "موت العم الأميركي" كي نتبين علاقة هذه الحركة بمحاولات إخراج (إسرائيل) من مأزقها الراهن. حيث بدأت الأساطير الصهيونية تشكل خطراً مباشراً على استمرارية الدولة. مما يطرح ضرورة الخلاص من هذه الأساطير. وهو إنذار مبكر يوجهه بيلين وقسم من الإستراتيجيين (الإسرائيليين). الذين يرون خلاص (إسرائيل) باعتماد الخطوات التالية:

1 - استبدال تعريف اليهودي الأورثوذكسي المعتمد بتعريف علماني يفتح الأبواب أمام من يعتبرون أنفسهم يهوداً للتحويل إلى اليهودية. وبذلك تتمكن (إسرائيل) من ملكية خزان بشري إضافي بعد نفاذ خزانها اليهودي - الأورثوذكسي (2).

2 - التمهيد لفتح قنوات اتصال مع الباحثين والمثقفين العرب ولكن من مبدأ دبلوماسية الأبواب الخلفية. وهو أميركي استخدم لمواجهة الشيوعية (3).

3 - الخلاص من الأساطير المستحدثة مثل ربط استمرارية (إسرائيل) بالمحافظة على معادلة بن غوريون (يهودي واحد مقابل 40 عربياً) التي باتت صعبة التحقيق.

4 - التنبيه من احتمال أن يؤدي التخلي عن شائعات الصهيونية إلى عودة السيطرة للأساطير التوراتية بما يهدد بتحويل (إسرائيل) إلى هيمنة المتشددين. خصوصاً مع بداية الصعود الفعلي لهؤلاء (4).

هذه الأهداف من شأنها أن تفسر لنا بؤادر الانفتاح اليهودي المشروط بأن يقوم المثقفون العرب بالضغط لتحقيق الشروط (الإسرائيلية). كما تبين لنا هذه الأهداف أسرار قوة المؤرخين الجدد ودعوتهم للتدوين المشترك للتاريخ. وهذا يستتبع بضعة أسئلة سنحاول الإجابة عليها بشكل مختصر فيما يلي. أما عن الأسئلة فهي:

1 - هل يصل المؤرخون الجدد ومن هم وراءهم يوماً إلى نضج التساوي الذي يدعو إليه أدوار سعيد (5) وإسرائيل شاحاك (6) ونعوم تشومسكي (7) وغيرهم؟

2 - إلى متى سيستمر (الإسرائيلي) في الاعتقاد بقدرته اللامتناهية على النصب. إذ أن ما يقدمه هؤلاء المؤرخون معروض في كل مكان. فكل ما كتبوه تمكن قراءته مثلاً في كتاب بول فنديلي "خبيات مؤجلة". ومع ذلك فإنهم يريدون مشاركة المؤرخين العرب في معلوماتهم.

3 - إن المؤرخين العرب، وليد الخالدي نموذجاً لهم، لا يعانون سوى من شبح اللامساواة التي تجبرهم أحياناً على الإعلان عن معلومات في غير الوقت المناسب لهذا الإعلان. في حين يجد المؤرخ (الإسرائيلي) من يحدد له ما يجب إعلانه ويحمي ما لا يجب إعلانه.

4 - إن اختراق المجتمع العربي عن طريق الأبواب الدبلوماسية الخلفية هو اختراق مستحيل. دون أن يعني ذلك العجز عن إيجاد بعض الباحثين عن التمويل المشبوه بقصد أو دون وعي. فالأبواب الخلفية العربية أشد حماية من الأبواب الأمامية. وما جرى في انتفاضة الأقصى لا يتعدى كونه ترجمة لأصداء "أغنية الحلم العربي" وقصيدة "عابرون في كلام عابر". وغيرها من التعويذات التي تحمي الأبواب الخلفية فتكسبها مناعة تجعلها عصية على الدعوات المشبوهة من كوبنهاغن إلى بدعة التدوين المشترك للتاريخ. فكل ما لدينا هم من أمثال وليد الخالدي الذي سنتحدث عن أحد أعماله في الفقرات التالية.

تقويم حيادي لأعمال وليد الخالدي:

الكاتب (الإسرائيلي) افرايم كارش هو أشد الكتاب (الإسرائيليين) معارضة للمؤرخين الجدد. وهو قد خصص كتابه المعنون "فبركة التاريخ" لشن الهجوم عليهم. حيث نجده يركز على بني موريس ويمطره بوابل من التهم والشتم. أما إعلان بابي، وهو الأكثر جرأة بين المؤرخين الجدد لغاية إعلان عدائه للصهيونية وتجربته في الإعلان عن استنتاجات يتهرب رفاقه منها، فإن مجرد إيراد ذكره يصيب كارش بفقدان الأعصاب. ونراه يبحث له عن إساءات تناسب تجرؤه وصراحته. ولا يجد كارش سبباً للإساءة إلى بابي سوى وصفه بأنه أكثر تطرفاً من وليد الخالدي! وهذه شهادة لا بد أن الخالدي يعتز بها.

أما بول فنديلي (صاحب كتاب تجرأوا على الكلام) فإنه يقيم مقارنة غير مباشرة بين أعمال وليد الخالدي وبين الواقع الذي كشفتها الوثائق المفرج عنها مطلع التسعينيات. فيجد القارئ أن أعمال هذا المؤرخ مطابقة للحقائق التي لا يعلن عنها إلا بعد حين. وفنديلي لا يشير إلى ذلك بل يتركك تستنتج من خلال قراءتك لكتابه "خبيات مؤجلة" (Deliverate Deceptions). ويأتي دور شيمون (أو شمعون) شمير (أو شامير) الأكاديمي (الإسرائيلي) "أغلب الظن أنه أستاذ علم النفس الذي عمل لفترة سفيراً لـ(إسرائيل) في مصر وتولى بعدها رئاسة مركز الأبحاث (الإسرائيلي). وهو يقيم علاقات وثيقة أكثر من اللازم مع بعض التقنيين العرب لينشر بدعة جديدة عبر طرحه مبدأ "التدوين المتشابه للتاريخ" بحيث يدونه مؤرخون جدد عرب ويهود. وبالرغم من إسهاب شمير في شرح وجهة نظره فإنه لم يورد اسم الخالدي وهذا يعني تصنيفه له كمؤرخ تقليدي. وبطبيعة الحال فإن الخالدي لا يسعى لنيل لقب جديد ولكنه يريد أن يتكسر كمؤرخ معاصر. وهو تكريس حصل عليه نتيجة جهوده ودأبه المتواصلين. حتى يبدو لك وكأنه لا يعرف الكلل أو التراجع.

2- الخالدي يثبت ملكية العرب لأرض السفارة الأميركية في القدس:

أحدث بحوث وليد الخالدي وتنقيباته التاريخية تتعلق بقطعة الأرض التي أجرتها (إسرائيل) للولايات المتحدة كي تقيم عليها سفارتها في القدس، حيث يبين الخالدي أن هذه القطعة المقدسية تعود ملكيتها إلى العرب، حيث 30% منها ملك للأوقاف الفلسطينية في حين تتوزع ملكية الباقي منها على 133 فلسطينياً من ورثة ملاكها الأصليين الذين هجروا من فلسطين إبان حرب 1948. ويتوزع هؤلاء الورثة على بلدان عدة منها الولايات المتحدة حيث يقيم 90% من هؤلاء الورثة.

رحلة التنقيص والمتابعة هذه استغرقت ست سنوات كاملة من التحري والبحث. وتجدر الإشارة إلى أن استئجار الأرض قد تم في العام 1989.

وهذه النتائج مدعومة بوثائق الملكية وبايصالات إيجار هذه الأرض للانتداب البريطاني. وهي وثائق كافية لإثبات اغتصاب (إسرائيل) لهذه الأرض (من ضمن مساحات شاسعة صادرة باعتراف بعض المؤرخين الجدد). وكون 90 شخصاً من ملاك هذه القطعة يحملون الجنسية الأميركية يخلق واقعاً مربكاً. ففي هذه الحالة تكون الولايات المتحدة مشاركة لدولة أجنبية في الاعتداء على حقوق مواطنين أميركيين. وبالطبع فإن هؤلاء الحق بمقاضاة الحكومة الأميركية لاعتدائها على أملاكهم وحقوقهم. وفي مثل هذه الحالة لا بد من الخضوع لأحكام القضاء. وبهذا تكتمل سلسلة من التعقيدات القانونية والسياسية. فالإصرار الأميركي على هذه الأرض يعكس تواطؤها مع (إسرائيل) على مصادرة الأراضي العربية. وبالتالي شهادة زور أميركية على حق (إسرائيل) بالقدس ومعها الإصرار على إرضاء قسم من مواطنيها (اللوبي اليهودي) على حساب حقوق قسم آخر منهم.

عند هذا الحد تنتهي مهمة وليد الخالدي ودراسته الداعمة للحقيقة ولتاريخ الأرض. وهو قد استوفى هذه المهمة حتى

نهايتها. وهي الآن بين أيدي المعنيين سواء أصحاب الحقوق أو السياسيين. لكن السؤال الذي يطرح بهذه المناسبة هو: "هل كانت (إسرائيل) لتعلن عن مثل هذا الكشف لو كانت مكاننا؟". المؤكد أن (إسرائيل) ما كانت لتكشف مثل هذه الورقة بهذه الصورة المبكرة والمشوشة. بل كانت تبقئها سراً مع العمل على دعمها بالأسانيد والحجج. وتسهيل الاتصال والتفاهم بين الملاك مع وضع خطة مدروسة لتحركهم. حيث تبدأ بحملة إعلامية مكثفة تبدأ بعد نهاية بناء السفارة وقبل افتتاحها. ثم تصعد الأمور حتى تبلغ بها درجة المواجهة مع الحكومة الفيديريالية (بعد اطمئنانها إلى موقف الكونغرس). حتى تصل في النهاية لأن تصنع منها محرقة جديدة لليهود! وهذا الكشف المبكر يفسر لنا دعوة شمير إلى التدوين المتشابك للتاريخ.

3- التدوين المشترك وديبلوماسية الأبواب الخلفية:

لقد أثبت فندي في كتابه، المشار له أعلاه، أن المؤرخين الجدد لا يكشفون عن أية أسرار، فهم يرددون ويكررون المعلومات التي تعلنها الوثائق السرية التي يسمح بإخراجها للعلن بعد مدة معينة. وبمعنى آخر فإن المعلومات الموجودة لدى المؤرخين (الإسرائيليين) لا قيمة لها. في حين أن معلومات مثل تلك التي كشف عنها الخالدي

غير موجودة سواء لدى أصحاب الأرض. وكما رأينا فإن من مصلحة (إسرائيل) الاطلاع عليها بأقصى ما يمكن من سرعة، خصوصاً وأنها تجنبها مفاجآت غير سارة محتملة على نحو ما أشرنا له أعلاه. والواقع أن دعوة التدوين المتشابك ليست سوى تقليد للسياسة الأميركية التي تسمى بـ"الدبلوماسية الموازية"، والتي أوحى بها النتائج الناجحة للمنظمة العالمية لحرية الثقافة، التي أنشأتها المخابرات الأميركية لاحتواء الماركسيين المعادين للسوفييتية، وتمكنت هذه المنظمة من احتواء واستقطاب قطاعات واسعة من المثقفين ودفعتهم باتجاه الحياد ومن ثم وظفتهم ضد الاتحاد السوفياتي وبالتالي لمصلحتها، حتى دون وعي منهم، فقد استقال برتراند راسل من رئاسة المنظمة عندما علم بحقيقتها، ثم جاء مبدأ الدبلوماسية الموازية الذي طرحه الدبلوماسي الأميركي "جوزيف مونفيل" في العام (1981). في حين كانت هذه الدبلوماسية ممارسة بصورة واقعية وحقيقية منذ الستينات وتحديداً منذ أزمة "خليج الخنازير"، التي وضعتها قيد التنفيذ، وكان دور مونفيل هو تعريف هذا الدور.

هذه الدبلوماسية الموازية تعني تجنب الرسميين (من سياسيين ودبلوماسيين) حرج البحث في الأمور الإشكالية ووضعها في عهدة مؤسسات أو مراكز بحثية أو مجموعات مثقفين. بما يتيح مناقشة هذه الأمور تحت رداء العلمية والتقنية. في حين تبطن هذه النشاطات خلفيات سياسية أكيدة.

وبالانتقال إلى العلاقات العربية - (الإسرائيلية) بحساسياتها الفائقة، نجد أن الولايات المتحدة تدعم هذه الدبلوماسية الموازية. وتشجع على دخول الحل من الباب الخلفي للدبلوماسية، وفي هذا الإطار تصنف الدعوة إلى "التدوين المتشابك للتاريخ". لكن المثال الأوضح هو ذلك الذي مثلته "جماعة كوبنهاغن". والتي أنيط فشلها بعجز الجماعة عن الحصول على قبول شعبي. وفي هذا ظلم بين لهذه الجماعة التي أنصفها إسرائيل شاحاك بقوله إنهم كانوا يتصلون بجماعات السلام (الإسرائيلية) التي تحاول دفعهم للضغط لكي يقدم العرب كل التنازلات من دون مقابل. وبمعنى آخر فإن (إسرائيل) تكرر في دبلوماسية الباب الخلفي أسلوبها في المفاوضات. وهكذا لم يبق للمثقفين العرب الداخليين في هذه اللعبة سوى الدعوة إلى دور رسولي لـ(إسرائيل)، يجعلها أمل العرب الوحيد في التحضر والتطور! بل إن هؤلاء يضيفون بشماتة، يخجل منها (الإسرائيليون) أنفسهم، بأن علينا أن نتعجل بمراسم دفن القومية العربية حتى لا يفوتنا القطار!

من بعيد يأتيك إدوارد سعيد ليصرخ إما المساواة وإما لاشيء! وهو يجد من يشاركه الصرخة بين المثقفين (الإسرائيليين).

باختصار فإن دبلوماسية الأبواب الخلفية أكثر خطورة من المفاوضات نفسها. ولا بد من اختيار جيد لدبلوماسيين في هذا المجال. حيث لا بد من استبعاد أصحاب الطموحات الشخصية من مادية وندرجسية، كما الراغبين بالانتقام بسبب سرعة تهميشهم بعد سقوط قنواتهم الخارجية. وبغض النظر عن كل هذه الدبلوماسية فإن مراسم الدفن ستبقى مؤجلة لغاية الإعلان الرسمي للوفاة ولمن يهمله معرفة هذا الموعد فإنه يوم إبادة كل الذين صفقوا لأغنية الحلم العربي. ورثوا قسطنطين زريق وتعاونوا مع وليد الخالدي وأحبوه. وما دما نردد قصيدة أدخلها

"المؤرخون الجدد" للتدريس في المدارس (الإسرائيلية): "عابرون في كلام عابر... اخرجوا من جرحنا... اخرجوا من أرضنا... إلخ.

ولكن التحدي يبقى مطروحاً عبر سؤال هو: إلى متى سنستمر بتوظيف الشعر والأغاني توظيفاً تحريضياً؟ إن الاستجابة العفوية لهذه المثيرات تعكس واقع الشارع العربي، الذي يتحول إلى موضوع تحريض بسبب نقص المعلومات. وهو نقص لا تجوز استمراريته. فهذا الشارع يجب أن يستوعب ويفهم وقائع أساسية ومفصلية فيما يتعلق بالعلاقات بين العرب و(إسرائيل). ودينامية هذه العلاقة فنحن مثلاً عاجزون عن تأجيل الإعلان عن نتائج دراسة الخالدي، لأننا لا نملك نفوذاً في الكونغرس وفي الداخل الأميركي. لذلك فإن تأجيل هذا الإعلان سيحول المسألة إلى مشكلة عقارية وقضية تعويضات مادية لملاك الأرض. وبمعنى آخر فإن هذه الدراسة لا تملك قيمة سياسية إلا في حال عرضها الفوري. فإذا ما تأجلت فإنها ستتحول إلى خلاف مالي.

هذا المثال على اختلاف قدرات التوظيف السياسي لقضية ما بين العرب و(إسرائيل) يجب أن يتم شرحه للشارع العربي. مع إعطاء أمثلة عليه منذ العام 1948 وحتى الآن. فهذه المعلومات تدعم هذا الشارع في مواجهة لم تعد بعيدة. وهي مواجهة محاولات الاختراق (الإسرائيلية)، والتي يشير التقليد اليهودي بأنها تبدأ بإثارة الخبايا والخفايا وتوظيفها بشكل فضائحي. من هنا وجوب تلقیح الشارع العربي بتعريفه إلى هذه الخفايا، كي نمنع إساءة توظيفها، وإن كنا نعلم أن لهذا اللقاح آثاراً جانبية لا بد من المخاطرة بتحملها.

* * *

هوامش ومراجع الفصل الثامن

- 1 - محمد أحمد نابلسي: منشورة في الكفاح العربي بتاريخ 8/ 9/ 2000.
- 2 - للتعمق في هذا الموضوع انظر فصل "نهاية (إسرائيل)" في هذا الكتاب.
- 3 - فرانسيس ساوندرز: وكالة المخابرات الأميركية والحرب الثقافية الباردة - من يدفع للمزمرين؟ وقد عرضنا لهذا الكتاب بقراءة نقدية في الكفاح العربي.
- 4 - تصاعد نفوذ المتشددين في الكنيسة عقب انتخابات 98 حين حصد حزب شاس المتطرف 17 مقعداً بدلاً من 10 مقاعد كانت له في الكنيسة السابق. إضافة إلى تنامي نفوذ الأصولية اليهودية في المجتمع (الإسرائيلي) بسبب عدم قدرة المشروع الصهيوني على تطوير نفسه.
- 5 - إدوار سعيد: إما المساواة وإما لا - عرضنا قراءة له في الكفاح العربي.
- 6 - إسرائيل شاحاك: التاريخ (الإسرائيلي) وطأة 3000 عام.
- 7 - نعوم تشومسكي: إعاقة الديمقراطية، مركز دراسات الوحدة العربية. وقد عرضنا له في مجلة "النقاد".

* * *

من ملفات الإرهاب الصهيوني

منذ بداية الهجرة اليهودية إلى فلسطين وإقامتهم لمستعمرة "بتاح تكفا" واليهود يؤمنون أرض فلسطين إما هرباً من فوبيا المجتمعات التي عاشوا فيها ومن الذل الذي تعرضوا له فيها وإما متدينون يريدون العيش على مقربة من النظم الرمزية لديانتهم. وهذه الفئة من اليهود استقبلت بترحاب من قبل العرب. حتى أن هؤلاء اليهود لم يقبلوا المشروع الصهيوني بإقامة دولة يهودية إلا بشرط أن يكون ذلك بالتفاهم والتعاون مع المحيط العربي. وخذعت الصهيونية هؤلاء بالتظاهر بقبولها لهذا الشرط. لكن الإخلال بالوعد لم يتأخر في الظهور. فقد كانت تصرفات المنظمات الإرهابية الصهيونية خلال الحرب العالمية الثانية كافية للتأكيد على لامبالاة الصهيونية بهذا الوعد. خصوصاً بعد تأكدها من القدرة على استثارة مشاعر الصبار (يهود فلسطين ما قبل 1948 المولودين فيها) واستقطابهم إلى الصهيونية. وقس عليه بالنسبة لليهود العرب. هذا وتمكنت (إسرائيل) من إسكات أصوات بقية اليهود المعارضين لقيامها واستقطاب معظمهم لاحقاً عبر الانتشار السرطاني للمنظمات الإرهابية الصهيونية. التي ما لبثت أن تولت قيادة (إسرائيل). انطلاقاً من مسلمة أنها هي التي خاضت الحرب وهي التي أسست الدولة.

لذلك كان من الطبيعي أن يتولى الإرهابيون السابقون الواجبة السياسية للدولة - الخديج. الأمر الذي كرس طابعها العدوانية. مما تظاهر في نظامها السياسي حيث رئاسة الدولة هي منصب فخري وحيث رئاسة الوزراء تتولى السلطة التنفيذية خارج الأزمات. فإذا ما حلت الأزمات انتقلت هذه السلطة إلى الجنرالات. وهذا يستتبع أن الأخيرين هم الحكام الحقيقيون للدولة. ولقد تبدت هذه الحقيقة في مواقف عديدة ومفصلية. فقبل إعلان باراك عن نيته الانسحاب من الشريط الحدودي اللبناني، أعلن أنه تمكن من إقناع الجنرالات بهذا الانسحاب. كما أن العدوان الذي حصل على لبنان غداة تسلم باراك لمنصبه حصل في غياب السلطة التنفيذية. ولم يجرج باراك من الاعتراف بذلك لكي يبرر موقفه ويتجنب تهمة بداية حكمه بالعدوان. وإن كان لن يجرج لاحقاً من إنهاء هذا الحكم بعدوان أكثر وحشية بدءاً بمجزرة الأقصى مروراً بتداعياتها الشرسة والمتحدية للشرعية الدولية تحت غطاء الفيتو الأميركي المعتاد.

وإذا كانت الاعتداءات (الإسرائيلية) مستمرة دون انقطاع نظراً للطابع العنصري لـ(إسرائيل) لأن الاعتداءات الأكثر دموية هي التي استوقفنا أكثر من غيرها. لأنها تشكل كوارث جماعية يمتد أذاها إلى النواحي المعنوية وإلى الإذلال والقتل الجماعيين. وهذا لا يعني بحال تجاهل الأثر الصدمي للمعيشة الفردية للاحتلال. الذي يخلق ظروفاً تتنافى مع أبسط حقوق الإنسان. حيث التمييز سيغال العرب بصفتهم أبناء إسماعيل مما يستتبع تشريع الاحتقار والاستهتار بأبسط حقوقهم. إلا أن التمييز (الإسرائيلي) لا يقتصر على العرب وحدهم بل هو يمتد إلى

داخل المجموعات اليهودية نفسها. حتى أمكن القول إن (إسرائيل) تقدم نموذجاً غير مسبوق عن تصنيفات التمييز العنصري.

ومن ملفات الإرهاب الصهيوني نكتفي باستعراض المجازر التالية: 1 - دير ياسين، 2 - قبية، 3 - كفر قاسم، 4 - بحر البقر 5 - الأقصى 90، 6 - الحرم الأبراهيمي، 7 - صبرا وشاتيلا، 8 - قانا. لعننا نجد في استذكار هذه المجازر والربط بينها ما يؤكد بأن الضحية الذليلة قد انقلبت إلى طاغية على أيدي جنرالات الإرهاب الصهيوني. حيث الرؤية العادلة تقود إلى الجزم بضرورة محاكمتهم كمجرمي حرب. وحيث معارض الهولوكوست العالمية يجب عليها أن تفسح المجال أمام عروض الهولوكوست (الإسرائيلي) متعدد المراحل. ونبدأ عرضنا بـ:

1 - مجزرة دير ياسين 9 / 4 / 1948:

على الرغم من أنها قرية صغيرة تقع على بعد كيلو مترات من القدس.. لكنها دخلت التاريخ وظل اسمها محفوراً في الصدور لأكثر من خمسين عاماً والعالم كله يتحدث عنها! إنها قرية دير ياسين.. والسبب مذبحه بشرية ارتكبتها قادة الصهاينة! وهي قرية عربية صغيرة يقطنها 400 شخص يتعاملون تجارياً مع (المستوطنات) المجاورة ولا يملكون إلا أسلحة قديمة يرجع تاريخها إلى الحرب العالمية الأولى.

في فجر يوم 9 أبريل عام 48 وبينما السكان لا يزالون نائمين دخلت قوات الأرجون التي كان يتزعمها مناحم بيجين - رئيس وزراء (إسرائيل) فيما بعد - من جهة الشرق، ودخلت قوات شترن التي كان يتزعمها إسحق شامير - رئيس وزراء (إسرائيل) فيما بعد أيضاً - من جهة الشمال ليحاصروا القرية من كل جانب ما عدا الطريق الغربي ويفاجئون السكان وهم نائمون.. دافع أهل دير ياسين عن ديارهم ونسائهم وأطفالهم بشدة ولم يستطيعوا الهرب تحت وابل الرصاص من الطريق الوحيد المفتوح لديهم من الغرب وكلما ازداد عدد الضحايا اشتدت حدة المعركة ويبدو أن للدم عشاقاً!

فقد قررت قوات الأرجون بقيادة مناحم بيجين استخدام أسلوب يعرفونه جيداً وهو الديناميت وهكذا استولوا على القرية كلها عن طريق تفجيرها بيتاً بيتاً بعد أن انتهت المتفجرات لديهم قاموا بتنظيف المكان من آخر عناصر المقاومة عن طريق القنابل والمدافع الرشاشة، حيث كانت قوات الأرجون وشترن يطلقون النيران على كل ما يتحرك داخل المنزل من رجال ونساء وأطفال وشيوخ.. أكثر من هذا ، فقد سمحوا لأنفسهم أن يتحولوا إلى "جزارين" وسافكي دماء يقتلون بقسوة وبرودة ونظام وكانت النتيجة أن سقط قتلى من العرب خلال ساعات 254 مدنياً!

وتصل البشاعة حدتها لدرجة أن قوات الأرجون كانت تقوم ببتير أعضاء الموتى والتمثيل بجثثهم.. ثم ألقت بالجثث في بئر القرية بعد المراهنة بينهم على من يلقي بالأكثر.

واقْتيد 25 من الرجال الأحياء في حافلات ليطوفوا بهم داخل القدس طواف النصر على غرار الجيوش الرومانية القديمة.. ثم تم إعدامهم رمياً بالرصاص.. ثم أرسل منحيم بيغين برقية تهنئة إلى "رعنان" قائد الأرجون المحلي قال فيها: "تهنئتي لكم لهذا الانتصار العظيم وقل لجنودك إنهم صنعوا التاريخ في إسرائيل!" وفي خلال شهور قليلة من المذبحة استقبلت دير ياسين المهاجرين الجدد من يهود بولندا ورومانيا وسلوفاكيا.. وفي خلال عام صدحت الموسيقى على أرض القرية العربية وأقيمت الاحتفالات التي حضرها مئات الضيوف من أعضاء الحكومة (الإسرائيلية) وعمدة القدس وحاخامات اليهود وبعث الرئيس (الإسرائيلي) حاييم وايزمان ببرقية تهنئة لافتتاح مستعمرة "جيفات شاول بيت" في قرية ديرياسين!

ومع مرور الزمن توسعت القدس إلى أن ضمت أرض دير ياسين إليها لتصبح ضاحية من ضواحي القدس.. ليؤكد التاريخ أن (إسرائيل) دولة قامت على أشلاء الضحايا.

وفي 28 أكتوبر عام 48 ارتكبت القوات (الإسرائيلية) مذبحة بشرية جديدة وراح ضحيتها أكثر من مائة فلسطيني ما بين أطفال وشيوخ ونساء.

المعركة وقعت في قرية تسمى "الدوايمه" جنوب شرقي القدس وهي غير موجودة على الخريطة في الوقت الحالي بعد أن تم تسويتها بالأرض وبنى مكانها (الإسرائيليون) مستعمرة اسمها "أماتسيا".

نفذت المذبحة الكتيبة المدرعة التاسعة والثمانون ومؤسسها موشي ديان واشترك فيها أعضاء من منظمة شترن الإرهابية. وبدأ السيناريو البشع للمجزرة صباح يوم 28 أكتوبر 48 عندما استيقظ أهل القرية من نومهم يستعدون للخروج إلى أعمالهم وخرجت النساء لسوق القرية لشراء احتياجاتهم وخرج الأطفال للهو أمام بيوتهم.. ومع دقائق الساعة العاشرة صباحاً فوجئ الأهالي بحوالي 10 عربات مدرعة (إسرائيلية) تتبعها فرقة مشاة تقتحم القرية بوابل من النيران على الأبرياء.. ثم اتجهت العربات المدرعة صوب المنازل وسوتها بالأرض بمن فيها وعندما حاول بعض الشيوخ الاحتماء بالمسجد اقتحمته القوات (الإسرائيلية) وقتلتهم بداخله.

2 - مجزرة قبية - أكتوبر 1953:

"قبيه" قرية أردنية تقع على بعد 32 كيلومتراً من شمال شرق القدس وعلى بعد كيلو مترين داخل الأردن من حدود الأراضي المحتلة من فلسطين.. هذه القرية التي يبلغ عدد سكانها 1500 نسمة شهدت مذبحة (إسرائيلية) يندى لها جبين البشرية!

في أكتوبر 53 وفي الساعة السابعة والنصف مساءً ودون سابق إنذار باغتت قوة (إسرائيلية) نظامية مسلحة بزعامة الإرهابي أرييل شارون هذه القرية الآمنة وأمطروها بوابل من نيران المدفعية أعقبته بزحف شامل من المشاه الذين طوقوا القرية من جميع الجهات.

ولم يكتف إرهابيو (إسرائيل) بهذا وإنما قامت هذه القوات بدك بيوت القرية بالمدفعية على من فيها قبل أن يتقدم المشاه إلى داخل القرية، فقتلت من قتلت تحت الأنقاض وطارت أشلاء من حاول النجاة. أما من بقى على قيد الحياة فاعتقله الوحشية وأجهزوا عليه.

وقد شهد بعض شهود العيان بأن نساء وأطفالاً ورجالاً ذبحوا أمام البيوت التي كانت لا تزال قائمة كلها أو بعضها.. فقد اقتحمها الجنود الغادرون وقتلوا من فيها.. أما التي احتفى أصحابها وراء ما بقي من أبوابها فقد قذفهم الجنود بالقنابل اليدوية على هذه الأبواب ومع انفجارها وتطاير حطام الأبواب كانت تنصب على المداخل نيران المدافع الرشاشة حتى لا يترك مجالاً أمام أحد للنجاة. وسقط ضحية للمجزرة 69 فلسطينياً ما بين نساء وأطفال وشباب وشيوخ أبرياء.

3 - مجزرة كفر قاسم:

في يوم 29 أكتوبر 56 ارتكبت (إسرائيل) جريمة بشعة حاولت أن تخفيها وتتستر عليها، ولكن ضمير العالم يأبى أن تظل طي الكتمان - وهي مذبحه كفر القاسم.. اغتال فيها الجيش (الإسرائيلي) فلاحين عرباً مسالمين كانوا عائدین من حقولهم إلى بيوتهم! وكفر قاسم قرية عربية داخل (إسرائيل) على بعد 25 كيلومتراً من (تل أبيب) ويقیم فيها عدة مئات من العرب الذين يكسبون رزقهم من الأعمال الزراعية في أراضيهم الواقعة على مسافة قريبة من المستعمرات اليهودية.. وجوار قرية كفر قاسم تقع عدة قرى عربية يطلق عليها المثلث الصغير ويسكن قرية قاسم حوالي أربعة آلاف عربي.

وفجأة نامت القرية فوق صفيح ساخن وأهلها لا يدرون ما تخبئه لهم قوات الاحتلال! في يوم 29 أكتوبر 56 صدرت الأوامر إلى قوات الجيش وحرس الحدود بفرض نظام منع التجول على القرى العربية القريبة من (تل أبيب) اعتباراً من الساعة الخامسة مساءً وإطلاق النار على كل من يخالف الأمر.

وتلقت قوات الوحدات هذه الأوامر في الساعة الرابعة بعد الظهر وذهب كل منهم إلى القرية التي كلف بتنفيذ منع التجول فيها.. وتتصاعد الأمور أكثر حيث يصل قائد الوحدة العسكرية الرابعة من لواء المنطقة الوسطى إلى قرية كفر قاسم واستدعى مختار القرية وشيخها وأبلغه نظام منع التجول من الساعة الخامسة مساءً وأنه سيقتل كل من يخالف الأمر ونظر شيخ القرية إلى ساعته فوجدها تشير إلى الرابعة و45 دقيقة. وانزعج الرجل فمعظم السكان يعملون الآن في المزارع بعيداً عن القرية.. وظل يلح على قائد الوحدة العسكرية أن يمدد الوقت ربع ساعة بعد المهلة - خلالها يرسل من يستدعيهم ليلزموا بيوتهم.. واتصل قائد الوحدة بقائد الكتيبة - فرفض واتصل الأخير بقائد اللواء الذي أمر بتطبيق الأمر دون مناقشة!

وخرج أفراد الوحدة العسكرية إلى الطريق المؤدي إلى القرية وكانوا "11" جندياً وضابطاً وجاءت سيارة تحمل أربعة من سكان القرية كانوا يعملون في مستعمرة بتاح تكفا ومعهم تصاريح تسمح لهم بذلك وأمرهم قائد الوحدة بالنزول من السيارة وقال لهم: "ألا تعلمون أن منع التجول فرض على القرية؟!... فنقدم أحدهم واسمه علي جابر وقال: "لم يخبرنا أحد بذلك وعموماً معنا تصاريح رسمية".

ويأمرهم القائد بأن يصطفوا وأصدر أمره إلى جنوده - فأطلقوا الرصاص عليهم وسقطوا على الأرض - ولم يكتف القائد بذلك فبدأ يقلب الجثث بقدميه وظهر له أن الرصاص لم يقتلهم، فأمر الجنود أن يجهزوا عليهم بطلاقات الرصاص التي اخترقت أجسادهم وتأكد من موتهم.

هل توقف الأمر عند هذا الحد؟!

وجاءت سيارة أخرى فيها سبع فتيات وأربعة أولاد صغار وكانوا ينشدون الأغاني بعد أن أصابوا رزقاً بسيطاً من الأرض التي حصدها. فأمرهم القائد بالنزول وأطلق رجاله النار عليهم حتى أسلموا الروح. وتوالى ورود السيارات واستمرت عملية القتل حتى امتلأ المكان بالجثث وبلغ عددها 64 جثة واستغرق قتلهم خمس ساعات ثم انصرف رجال الوحدة مع قائدهم بعد أن تأكدوا من أنه لم يبق أحد خارج القرية.

4 - مجزرة بحر البقر 1970/4/8:

ولن ينسى التاريخ هذه المذبحة البشرية!

الزمان: الثامن من شهر أبريل عام 1970.. تحديداً الساعة التاسعة صباحاً.

المكان: مدرسة بحر البقر الابتدائية بمحافظة الشرقية بمصر.

المشهد: داخل فصول المدرسة تلاميذ صغار.. أعمارهم لا تتعدى الثانية عشرة.. البراءة تملو وجوههم.. يجلسون على دككهم منتبهين لكل كلمة تقولها المدرسة لهم.. وفجأة يتبدل الحال داخل مدرسة بحر البقر بالشرقية! أصوات الطائرات تملو تلقي الرعب في قلوب الأطفال والمدرسين والمدرسات. يترك التلاميذ دروسهم وقبل أن يخرجوا من فصولهم مطلعين على الأمر كان دوي الانفجارات يملأ كل ركن داخل المدرسة الابتدائية وعبثاً يحاول الأطفال الهروب، ولكن إلى أين؟!

الجدران تنهوى والأدوات المدرسية تتبعثر والأجساد تتطاير والدماء تغطي الوجوه.. والأمل في العثور على أحياء ضرب من الخيال.. والسؤال من الذي ارتكب هذه المجزرة؟!

فقد أغارت طائرات الفانتوم (الإسرائيلية) على مدرسة بحر البقر الابتدائية فأصابتها بخمس قنابل وصاروخين إصابات مباشرة فنسفت عن آخرها واستشهد في الحال 16 تلميذاً تحت الأنقاض بينما نقل باقي التلاميذ إلى المستشفى مصابين بحروق خطيرة وكسور.. حيث توفي 11 تلميذاً آخرين وأحد المدرسين.. ثم ارتفع عدد الضحايا بعد ذلك وحسب التقارير الرسمية إلى 46 شهيداً من أطفالنا الأبرار. ولن نجد كلمات مؤثرة تصف هذه المذبحة الوحشية إلا بعضاً من أبيات الشاعر صلاح جاهين حينما قال:

"وا. ها. با. خا. ذا"

قا.. ذا.. قا.. تالا

قتلا

إيه رأيك في البقع الحمراء.. يا ضمير العالم.. يا عزيزي..!

دي لطفلة مصرية وسمره كانت من أشطر تلاميذي..!

دمها راسم زهرة.. راسم رايه ثورة.. راسم نار.. راسم

عار عالصهيونية والاستعمار

الدرس انتهى.. لموا الكراريس.

5 - مجزرة الأقصى 1990/10/8:

مذبحة الأقصى كانت داخل المسجد الأقصى بالقدس.. ففي يوم 8 أكتوبر سنة 90 هاجمت قوات الاحتلال الفلسطينيين وقتلت 31 فلسطينياً وأصيب المئات.. وقعت المذبحة إثر محاولة أعضاء جماعة "أمناء الجبل" اليهودية المتطرفة اقتحام المسجد الأقصى ووضع حجر الأساس لبناء هيكل سليمان في حرم الأقصى.. وتصدى الشباب الفلسطيني لليهود المتطرفين ووقعت اشتباكات بينهم وتدخلت قوات الاحتلال بإطلاق النار على الفلسطينيين مما أدى إلى مقتل 31 وإصابة أكثر من 300 من الفلسطينيين العزل.

6 - مجزرة الحرم الإبراهيمي 1994/2/25:

مذبحة الحرم الإبراهيمي كانت داخل الحرم الإبراهيمي بالخليل! بدأت فجر يوم الجمعة الموافق 25 فبراير 94 حينما ارتكب جنود الجيش (الإسرائيلي) بقيادة (مستوطن) متطرف يدعى "باروخ جولد شتاين" وهو (مستوطن) يهودي من أصل أمريكي وينتمي إلى منظمة كاهانا العنصرية المتطرفة، مجزرة بشعة، حيث كان يحمل بندقية آلية سريعة الطلقات يمكنها إطلاق 900 رصاصة في الدقيقة الواحدة ثم أمطر المصلين بوابل من الرصاصات مما أدى إلى مقتل 31 وإصابة أكثر من 300 من الفلسطينيين العزل.

7 - مجزرة قانا 1996/4/19:

مجزرة قانا! لم تتوقف جرائم ونذالة الصهاينة عن ارتكاب المذابح الوحشية ضد الأطفال والنساء والشيوخ الأبرياء العزل.. ففي يوم الخميس 19 أبريل 96 ارتكبت (إسرائيل) مذبحتين مروعتين ضد الأطفال والمدنيين اللبنانيين عندما فتحت المدفعية والطائرات (الإسرائيلية) نيرانها المكثفة على مواقع قوات الطوارئ الدولية - حيث كان هناك المئات من المدنيين يحتمون بها - وهيئات أن يتوقف القصف المجنون! وكانت الحصيلة 120 قتيلاً و95 مفقوداً و77 جريحاً. وفي نفس اليوم أغارت الطائرات (الإسرائيلية) على منزل من طابقين في النبطية وقتلت 13 مواطناً بينهم تسعة من أسرة واحدة وأربعة أطفال.

8 - مجزرة صبرا وشاتيلا 1982/9/19:

في صباح يوم 19 سبتمبر عام 82 استيقظ العالم كله على أشنع جريمة في التاريخ الإنساني.. سمّها مجزرة أو مذبحة، فالكلمات حتماً تعجز عن وصفها.. انها مذبحة صبرا وشاتيلا حينما دخلت ميليشيات الكتائب اللبنانية - تحت حماية الجيش (الإسرائيلي) بقيادة السفاح أرييل شارون وزير الدفاع وقتها- معسكري صبرا وشاتيلا الفلسطينيين وعلى مدى ثلاثة أيام قاموا بقتل وذبح النساء والشيوخ والأطفال والشباب بلا هوادة ثم خرجوا تاركين خلفهم نحو 1500 قتيل!

والحكاية تفاصيلها محزنة إلى حد البكاء.. بدأت يوم 15 سبتمبر عام 82 عندما غزت القوات (الإسرائيلية) بيروت الغربية كان هدفها الأول والأخير من هذا الغزو هو القضاء على مخيمي صبرا وشاتيلا ووقتها ادعى شارون أنه تلقى من جهاز المخابرات معلومات تؤكد أن داخل هذين المخيمين ما يقرب من 2000 إلى 3000 إرهابي.. ولكن كانت توجد مشكلة أمام السفاح شارون.. فلم يكن القضاء على المخيمين بالأمر الهين أو السهل.. فأمرت القوات (الإسرائيلية) ميليشيات الكتائب القيام بتلك المهمة تحت إشرافها وحمايتها! وتم تنفيذ الخطة الشيطانية!

حاصرت القوات (الإسرائيلية) المخيمين يوم 16 سبتمبر عام 82 بينما دخلت الميليشيات المخيمين يوم 19 ولمدة ثلاثة أيام متتالية قتلت خلالها 1500 امرأة وشيخ وطفل وشاب وفتاة.

وقد وصف صحفي يهودي هذه المجرزة قائلاً: "في الداخل رأيت امرأة وقد قطع صدرها بسكين حاد، ومقبرة خرجت من رمالها أيادي وأقدام موتى.. حتى الحيوانات لم تنج من المذبحة.. وفي ركن آخر مجموعة من الشباب في العشرينات وربما الثلاثينات وقد وقفوا في صف واحد عند الجدار صفدت أقدامهم وأيديهم معاً ثم قام المسلح برشهم بوابل من النيران، ورأيت نساء أنصاف أحياء يجبن الطرقات بين الموتى يبحثن عن أبنائهن وأزواجهن". ويواصل الصحفي اليهودي في تقريره قائلاً: "ولم يشر أي شيء داخل صبرا وشاتيلا على وجود إرهابيين فلسطينيين.. فلم يكن هناك ما يشير إلى وجود مقاومة بأسلحة حقيقية".. وبسرعة نقلت وكالات الأنباء والصحف وشاشات التلفزيون في أنحاء العالم الصور والتقارير حول المذبحة.

* * *

معادة السامية والدلالات المستعارة (1)

اللاسامية أو معاداة السامية تسميتان لمصطلح واحد وضع حيز التداول ابتداءً من العام 1881 حيث ترافق ظهوره مع بداية رسوخ الحركة الصهيونية. كما اقترن هذا الظهور مع قرار روسي بترحيل الألمان واليهود من أواسط روسيا إلى غربها حفاظاً على العرق الروسي.

اللافت أن الكراهية المتبادلة بين اليهود والشعوب الأوروبية تعود إلى حقبات زمنية سحيقة، فلماذا تأخر ظهور المصطلح؟ هل تراه انتظر ظهور الصهيونية؟ (2)

أم أنه استغل التناقضات الأوروبية - الروسية ليعلن عن نفسه؟

وربما وجد اليهود في هذا التهجير تعاطفاً من أثريائهم اليهود فاتخذوا منه حجة لتبرير كراهيتهم للآخر. انطلاقاً من الآلية التحليلية القائلة بصعوبة الإعلان عن كره الآخر (أنا أكرهه). مما يستتبع البحث عن براهين كراهيته والاستناد إليها لتتحول المسألة إلى معادلة: "هو يكرهني إذاً أنا أكرهه!"

إن مراجعة بسيطة لأساليب توظيف الصهيونية لهذا المصطلح تبين لنا اجتماع كل هذه الأسباب وكمونها وراء إطلاقه بدءاً من العام 1881 .

لكن اللاسامية لم تكن بحال مرشحة للعب هذا الدور السياسي المؤثر لولا سلوك النازي الذي أحسنت الصهيونية توظيفه لدرجة المبالغة والإسفاف. فها هي الشعوب تكره اليهود وتؤذيهم بما يعطيهم حق كراهية الآخر وإيذائه! في سياق هذا المنطق كانت فلسطين قربان الأوروبيين للتكفير عن مظاهر لاساميتهم. وكذلك كانت محاكم نورمبرغ الجامعة بين رغبات انتقام كل من الحلفاء واليهود. وعلى هذه الأرضية الانتقامية قامت أرضية التفاهم بين اليهود وبين الغرب عموماً والحلفاء خصوصاً. وتعمق التواطؤ عبر اعتبار قرارات نورمبرغ غير قابلة للمراجعة. فهذه من شأنها أن تحاكم المنتقمين!

وهكذا تحولت تهمة اللاسامية إلى سيف مشهور ومسلط على رقبة أي مراقب يحاول أن ينظر ببعض من الموضوعية إلى السلوك العدوانى (الإسرائيلي). حتى فقد هؤلاء المراقبون جرأتهم على الكلام فاستحقوا كتاب بول فيدلي "من يجرؤ على الكلام". ومع ذلك فقد تجرأ البعض على الكلام فدفعوا الثمن غالباً لأن الكلام هنا يعني إصاق التهمة الخطيرة التي تسد الأبواب والمنافذ في وجه المتكلم؛ إنها تهمة "اللاسامية"!

بعض اليهود تجرأوا على بعض الكلام فألصقت بهم تهمة "اللاسامية الأنا" وترجمتها: اليهودي الذي يكره نفسه! وهي التهمة التي أصبحت جاهزة برسم أي يهودي يجرؤ على انتقاد السياسة (الإسرائيلية). لكن الطريف في الأمر أن هذه التهمة باتت قابلة لتوجيه الاتهام بأثر رجعي. فبعد حوالي القرن من المباشرة بيهودية فرويد، اكتشفت الصهيونية في كتاباته ما يدل على عدائه لها فأعلنته يهودياً كارهاً لنفسه.

السؤال الذي نحاول الإجابة عليه فيما يلي هو: هل يستطيع هذا المصطلح الحفاظ على دلالات العام 1881 أم أن عصر البنيوية سوف يتدخل لإبدال هذه الدلالات بأخرى أكثر موضوعية وأقل إرهاباً؟

أول ما يلفتنا في التاريخ اليهودي هو تلك القطيعة الممتدة ما بين العام 70 ميلادي (تاريخ تدمير الهيكل واحتلال الرومان للقدس)، وبين نهايات القرن التاسع عشر (بداية إنشاء اليهود للمستعمرات الأولى في فلسطين). وهذه القطيعة، مثلها مثل أي قطيعة تاريخية، تتضمن قراءات سردية - تاريخية متضاربة أو على الأقل غير دقيقة لاعتمادها على الروايات غير المثبتة والمثيرة للجدل. والعديد من هذه الروايات يتحول مع الزمن إلى أساطير يؤمن بها البعض ويدحضها البعض الآخر. لذلك فإن من الوقائع التاريخية التي يمكن الاستناد إليها واحدة تتعلق بإصدار المجمع المسكوني الأول، المنعقد عام 325 م. قراره بتكفير اليهود واعتبارهم هراطقة وقتلة المسيح. وكان من الطبيعي أن يجلب هذا القرار معه الكراهية لليهود في العالم المسيحي. ثم كان ظهور الإسلام بعد ذلك بأكثر من قرنين ليبين لنا وجود قبائل يهودية عربية تعاملت مع الإسلام وقبلها في إطار تسامحه. حتى بقي اليهود العرب لغاية يومنا هذا ولم يذوبوا في المجتمع الإسلامي - العربي لأن هذا المجتمع غير مذوب. فهو بطبيعة جهازه القيمي لا يسعى للتذويب (3).

فاعتراف الإسلام بالمسيحية واليهودية هو اعتراف ناجز. وهو بالتالي يقبل اتباعهما ولا يفرض عليهم الذوبان. من هنا فإن المتابعة التاريخية لليهود السفارديم (الأندلس والعرب) هي متابعة متاحة بتفصيلاتها. وهذه المتابعة تتضمن قائمة من اليهود الذين برزوا واشتهروا في ظل الحضارة العربية - الإسلامية. لكن هذه المتابعة غير متاحة بالنسبة لليهود الأشكيناز. فما هو متاح من أخبارهم يقتصر على تسربهم إلى أوروبا خلال القرنين التاسع والعاشر. وفي حينه غض الملوك نظرهم عن تسرب هؤلاء الهراطقة رغبة بزيادة عدد السكان. لكن الحروب الصليبية ما لبثت أن اندلعت نهاية القرن الحادي عشر. وكان من نتائجها تعرض يهود أوروبا للاضطهاد. مما جعلهم ينزحون باتجاه البلاد العربية وتركيا. ولا شك بأن قيام حركة الإصلاح الديني البروتستانتي، في القرن السادس عشر، قد لعب دوراً إيجابياً بالنسبة إلى يهود أوروبا، لكنه لم يمهضهم. إلا أن الإصلاح البروتستانتي بيّن أن العداء لليهود لم يكن دينياً بحتاً (باستثناء فترة محاكم التفتيش) بل كان اجتماعياً. ويتبين ذلك مثلاً من خلال الثورة الكبرى ضد اليهود في روسيا. والتي بدأت كتمرد لمجموعة من الضباط القوقاز بزعامة خميلنسكي ضد الإقطاعيين البولنديين ووكلائهم اليهود. وكانت هذه الثورة في العام 1648. ويذكر المؤرخون قيام فتن متلاحقة ضد اليهود، خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، في كل من روسيا وأوروبا الوسطى. ويعتبر هؤلاء المؤرخون بأن سبب هذه الفتن هو استغلال اليهود للفلاحين والفقراء عن طريق الربا الفاحش. ويوافق المؤرخ (الإسرائيلي) "إسرائيل شاحاك" (4) على هذا الربط بين اضطهاد اليهود وبين الظلم الذي كانوا يلحقونه بالسكان عن طريق الربا. ويضيف شاحاك: "أن الامتيازات التي كان يحصل عليها اليهود عن طريق رشوة النخبة الحاكمة في الممالك والدول أثار نقمة السكان عليهم. ولم يكن ذلك لمجرد كونهم يهوداً بل لسيطرتهم على سوق المال وابتزازهم لصغار الفلاحين عن طريق الرهن والربا وهكذا نجد أن الغيتو (حارة اليهود) تمكن

من الاستمرار، بالرغم من استجلابه لكرهية العامة، لقيامه بدور وظيفي هام وداعم لصعود الرأسمالية في الغرب. وهذا الدور هو دور المرابي - التاجر الذي يلعب لعبة السوق والمصالح دون التقيد بمبادئ". ولكن متى تحولت كراهية العامة إلى مصطلح سياسي - اجتماعي وهو تحول يعكس انتظام هذه الكراهية وخضوعها للتقنين؟

ظهر المصطلح في نيسان/ أبريل العام 1881 عقب إصدار وزير الداخلية الروسي أغانتيف لمجموعة قوانين هدفت لإبقاء العنصر السلافي الروسي نقياً. مما اقتضى إبعاد اليهود والألمان وتجميعهم في 25 ولاية تقع غرب روسيا. وقد أدى هذا التهجير القسري إلى اضطراب اليهود للعيش في ظروف قاسية في أماكن سكنهم الجديدة فكان ظهور مصطلح "معاداة السامية" (نيسان 1881). وتحوله إلى مصطلح سياسي - اجتماعي ذي دلالات محددة.

ويشير المؤرخون للصهيونية إلى تزامن ظهور هذا المصطلح مع بداية ترسخ الصهيونية ودعوتها للهجرة إلى فلسطين، مما يشير إلى وجود علاقة بين توليد هذا المصطلح وبين الصهيونية. وهذا ما يؤكد روجي ياسين الخالدي في دراساته عن اليهود في فلسطين. ويتأكد هذا الاتجاه بقيام الملياردير اليهودي موشيه مونتي فيوري بشراء ضيعة قرب يافا في العام 1855 مخصصاً إياها لليهود المضطهدين وللمتدينين منهم. كما يتأكد هذا الاتجاه بهروب بعض اليهود الروس في العام 1881 إلى فلسطين وتأسيسهم لمستعمرة أسموها رشون لوزيون (راس صهيون). لكن هذا المصطلح يبقى مديناً بشهرته للزعيم النازي أدولف هتلر الذي قدم فرصة ذهبية للصهيونية كي تستثمر المصطلح في سبيل إقامة اتحاد الحارات اليهودية (الغيتوات) في فلسطين. حتى أن الشكوك تحوم بجدية حول التواطؤ بين الصهيونية وبين النازية.

بقي البعد الديموغرافي للمسألة اليهودية. حيث يفترض أن يكون قيام (إسرائيل) ناظماً له وموضحاً. إلا أن الواقع هو عكس ذلك تماماً. ولنستعرض معاً بعض الأرقام:

يبلغ عدد اليهود المعاصرين 13 مليون يهودي. ولكن من المستحيل تحديد أعداد أتباع الديانات الأخرى المتحدرين من أمهات يهوديات والذين يحق لهم العودة إلى اليهودية. أو اليهود الذين غيروا ديانتهم وقد يرغبون في مثل هذه العودة.

فإذا ما قصرنا الحديث عن هؤلاء الـ 13 مليوناً من اليهود فإننا نجدهم خاضعين لتصنيف عاملي شديد التعقيد. ومن عوامله نذكر:

1 - (إسرائيل) - الشتات: ستة ملايين منهم يعيشون في (إسرائيل) ضمن حالة حرب ورفض. في حين يهدد الذوبان السبعة ملايين الباقين. حيث يقيم أغلبهم في الغرب ذي الحضارة المذبذبة والتي ذوبت ملايين اليهود خلال القرون السابقة.

- 2 - أشكيناز - سفارديم: تبلغ نسبة الأشكيناز بين اليهود حدود الـ 90% وهم يمارسون الشريعة بصورة مخالفة للسفارديم الذين يشكون في يهوديتهم؛ إذ تتوافر معطيات جادة حول تحدر الأشكيناز من قبائل الخزر المتهودة. وهذا يعني أن حوالي 12 مليوناً (من أصل 13 مليون يهودي) من اليهود مشكوك بيهوديتهم!
- 3 - المهاجرون الجدد والروس منهم خصوصاً مشكوك بأصولهم حيث توجد تقارير بأن 65% منهم هم من غير اليهود. وهم يدعون اليهودية للخلاص من الفقر الروسي.
- 4 - المتدينون - العلمانيون: حيث السيطرة للعلمانيين. لكنها سيطرة مهددة بصعود الأصوليات الدينية ومنها اليهودية. وفي حال تصاعد سيطرة المتشددين فإنه يستحيل على العلمانيين البقاء في (إسرائيل).
- 5 - بلدان المنشأ: في المؤلف التاريخي تتعرض الديانات لتعديلات وإضافات عند دخولها إلى بلدان أو حضارات أخرى.
- أما في حالة (إسرائيل) فإن يهودها يحملون معهم التعديلات والإضافات من البلدان التي يأتون منها. وهذا يعني أنهم يحملون معهم أدق تفصيلات الحياة اليومية في تلك البلدان. مما يجعل من المجتمع (الإسرائيلي) مجتمع جزر ثقافية وحضارية متنافرة.
- وهذه التناقضات التفكيرية (Dissociatives) تحتم السؤال عن المادة اللاصقة لهذا الموزايك البشري المتناقض؟ وبمعنى آخر كيف تستطيع (إسرائيل) التوفيق بين تناقضات سكانها؟ خصوصاً وأن هذه التناقضات تبدو كافية لإندلاع حرب أهلية - (إسرائيلية).
- لكن الواقع يشير إلى لحمة متينة للموزايك (الإسرائيلي). ولعل أبرز ملامح هذه القوة تتمثل في المرونة التي تتعاطى فيها (إسرائيل) مع المتغيرات الإقليمية والدولية. بحيث يلاحظ أن طروحات الهوية فيها تختلف وتتنافس لتعود فتعترف بصدارة الطرح الأكثر ملاءمة للواقع (الإسرائيلي). فمعتدو الطروحات الكنعانية والعبرية يتراجعون عندما يجدون أن (إسرائيل) بحاجة إلى يهود الشتات ودعمهم. حتى أمكن القول إن (إسرائيل) قد نسخت قدرة الولايات المتحدة على صهر تناقضات سكانها. وبالتالي فإن إمكانية اندلاع حرب أهلية - (إسرائيلية) لها ذات حظوظ إمكانية اندلاع حرب أهلية أميركية! بل إن سياسة الرفاه الاجتماعي، التي تنقلها (إسرائيل) عن الولايات المتحدة، أدت إلى قدوم أعداد هائلة من الروس مدعية زوراً أن لها أصولاً يهودية. كما استطاعت (إسرائيل) أن تجذب أعداداً كبيرة من الشبان العرب للعمل فيها بالرغم من خلفيات العداء المتبادل.
- وتصل هذه المرونة (الإسرائيلية) إلى قمتها مع قدرة المجتمع (الإسرائيلي) على إنتاج "حركة المؤرخين الجدد" التي تعارض المبادئ الصهيونية وتعمل لإدانة أساطيرها السياسية بكشف بطلانها. وإذا كان مصطلح "اللاسامية" أو "معاداة السامية" قد دخل في القاموس السياسي العالمي، لوصف غير اليهود المعادين للصهيونية، فإن مصطلح "اليهودي الذي يكره نفسه" قد دخل بدوره في هذا القاموس. ودلالة المصطلح الأخير هي:

"اليهودي المعادي للصهيونية". لكن حركة "المؤرخين الجدد" أدخلت تغييرات جذرية على هذه الدلالة. فهي تعادي الصهيونية إلا أنها تخدم (إسرائيل) ومستقبلها. وبذلك تجتذب هذه الحركة بعض العرب (كونها معادية للصهيونية) لكنها عجزت لغاية الآن عن اجتذاب "معادي السامية".

وبغض النظر عن مدى تماسك الوضع الداخلي (الإسرائيلي) وعن الأثر السياسي - العالمي لـ(إسرائيل) وأيضاً بغض النظر عن قدرتها العسكرية فإن هناك أعداداً كبيرة من اليهود ممن يرون أن اليهودية ليست ديانة مستقبلية (بمعنى أنها عاجزة عن الاستمرار). وذلك بسبب جمودها وانعدام مرونتها الفقهية. خصوصاً وأن العديد من تعاليمها المتشددة لم تعد قابلة للممارسة. وعندما يسأل هؤلاء أنفسهم عن سبب استمرار عائلاتهم في اعتناق اليهودية فإنهم يقعون على جواب واحد وهو "نعمة الولادة اليهودية". حيث تتضمن هذه النعمة أفضليات الانتماء إلى "شعب الله المختار" والدخول في لوبي المصالح اليهودي ومتفرعاته. ولكن ماذا عن القناعات الدينية؟

إن اليهود الذين يعيشون الحضارة الغربية تأثروا بماديتها وبتأوا ينظرون للأساطير الدينية عامة (واليهودية أكثرها مبالغاً) نظرة ناقدة. بل إن هذه الانتقادات لاقت انتشارها الكبير بين اليهود. ومن هنا استمرارية ذوبانهم في المجتمعات التي يعيشون فيها.

مما تقدم نجد أن "لا سامية الأنا" أو "كره اليهود لأنفسهم" قديم لدرجة أنه يشكل جزءاً من التراث اليهودي نفسه. لذلك استمر اليهود بالإصرار على انتماء اليهود الذين يكرهون أنفسهم إلى اليهودية. بل هم يستمرون بالتفاخر بهؤلاء اليهود. يساعدهم على ذلك أن "نعمة الولادة اليهودية" تجعل من انتماء الشخص إلى اليهودية مسألة إلهية بما يمنع تكفير أي يهودي. إلا أن قيام (إسرائيل) قد ساعد على نشوء بديل للتكفير يتجلى بتهمة "اليهودي كاره نفسه". وتتولى مهمة تصنيف هؤلاء الكارهين رابطة مكافحة التشهير اليهودية التي تعتبر هذه التهمة جريمة. ولعل سيغموند فرويد هو أحد أهم اليهود الناقدين لليهودية. وهو أصر على إعلان إحداه وإن لم ينجح في الخلاص من آثار

تربيته اليهودية. ومع ذلك فإن فرويد شكل في رأينا عينة أمينة من اليهود ناقدى اليهودية ورمزاً من رموز "عقلنة اليهودية" قبل قيام (إسرائيل)! وبالتالي قبل دخول مصطلح "اليهودي كاره نفسه" إلى التداول في القاموس السياسي. وبمعنى آخر فقد حقق فرويد شهرة عالمية جعلت اليهود يفخرون بانتمائه للديانة اليهودية. ويعتبرونه أحد الخدام المخلصين للخاصية اليهودية (اليهودية الاجتماعية) بالرغم من إحداه المعلن.

وتوفي فرويد عام 1939 وبقي يهودياً يحب نفسه واليهودية. وبعد قيام (إسرائيل) عام 1948 تحول فرويد بعد حياة كاملة من حب اليهودية وبعد تسع سنين كاملة على وفاته إلى "يهودي يكره نفسه". وهذه المفارقة سوف تدعونا للتركيز على هذه الشخصية بهدف استخدامها كدليل على فقدان المصطلح "لا سامية الأنا" للمعايير الموضوعية. وبالتالي كون هذا المصطلح مجرد تهمة أو شائعة تستخدمها الصهيونية ضد كل من يتجرأ على مناقشة أساطيرها المؤسسة لدولة (إسرائيل). حتى عندما يكون هذا المناقش بطلاً يهودياً سابقاً على غرار فرويد! لكن هذا البطل يتحول اليوم إلى بؤرة جراثومية خطيرة. فهو قد أجرى تحليلاً نفسياً لرواية موسى في التوراة

فعارض المرويات التوراتية معارضة نظرية أجبرته على ترداد واقعة عدم ملكيته للأدلة التاريخية الداعمة لطروحاته. وعندما كان يقدم أدلة من هذا النوع فإنه كان يستند فيها إلى مؤرخين يهود (جدد في حينه). وإذا كانت الصهيونية والأصولية اليهودية تخشيان حركة المؤرخين الجدد (الإسرائيليين) فإن هذه الخشية تتحول إلى كارثة لو قام أحدهم باستخدام المعطيات التاريخية الجديدة (من مؤرخين إسرائيليين وغيرهم) لتفتيح كتاب فرويد، حول موسى، ولإضافة هذه المعطيات كأدلة داعمة لآراء فرويد. فالأدلة التاريخية المتوافرة راهناً جديرة بملء الثغرات النظرية التي تتخلل عمل فرويد "موسى والتوحيد" (5)، وبذلك يضاف التحليل النفسي كميدان جديد لدحض الأساطير اليهودية وهذا ما تخشاه الصهيونية المعاصرة. ولكن هل ننتظر قيام الآخرين بهذه المهمة أم نباشرها بأنفسنا على غير عادة!

* * *

هوامش ومراجع الفصل العاشر

- 1 - محمد أحمد النابلسي: منشورة في جريدة الكفاح العربي بتاريخ 3/ 7/ 2000.
- 2- وهو التفسير الذي يقدمه التحليل النفسي لحالات البارانويا. حيث الإحساس بالكراهية يكون عبئاً على الشخص، وهو يتخفف منه بإقناع ذاته بأن الآخر هو الذي يكرهه وبالتالي فمن حق الشخص كرهه بدون الشعور بالذنب.
- 3 - وذلك على عكس الحضارة الغربية المذوبة.
- 4 - إسرائيل شاحاك: التاريخ الإسرائيلي – وطأة 3000 عام.
- 5 - سيغموند فرويد: موسى والتوحيد. وله عدة ترجمات عربية. منها ترجمة دار الطليعة - بيروت ، 1983.

* * *

نهاية (إسرائيل) واستمرار لعبة الأمم

"نهاية إسرائيل": من الأفكار التي شهدت تحولات عميقة الدلالة لارتباطها بجملة وقائع أحدثت تغييرات جذرية في العقل العربي. حتى أمكن القول أن هذه الفكرة أصبحت من ضمن الهوامات العربية الكثيرة. والهوام هو رغبة ما قبل واعية تظهر إلى حيز الوعي ثم تختفي لتكمن في ما قبل الوعي من جديد. مما يجعل الهوام خاضعاً لمبادئ الحلم. ومعظم هؤلاء يعتبرونه حلماً غير قابل للتحقيق. ولهذه الاعتبارات أسبابها الوجيهة والواقعية التي تضع هذه الفكرة في مصاف الأماني غير القابلة للتحقيق، ومن هذه الأسباب نقدم التالية على غيرها:

- 1 - الصدمة الإحباطية المترتبة على نكسة 1967.
 - 2 - خروج مصر الدرامي من مسرح المواجهة.
 - 3 - الاحتواء الأميركي للخليج وحربيته الأولى والثانية من مظاهر هذا الاحتواء الذي بلغ قمته من خلال شكله الراهن.
 - 4 - تفوق (إسرائيل) العسكري مقروناً بحاجتها لإثبات قدرتها على العدوان الاستعراضي كونه الوسيلة لجلب الاطمئنان (للإسرائيليين).
 - 5 - تحالف (إسرائيل) الإستراتيجي مع القطب الأوحده وانحيازه التام لمصلحتها.
- هذه الأسباب كافية لتعقيل الهوام وإعاقة التفكير بكونه قابلاً للتنفيذ والاعتماد. لدرجة أصبحت الواقعية معها تعني التسليم بنهاية القومية العربية وما أصبح يسمى بالزمن الجميل. وباتت تهم اللاعقلانية والرومانسية جاهزة لرمي أية دعوة عربية جامعة مهما كان طموحها متواضعاً. وبذلك غاب عن وعينا أن فكرة النهاية (الإسرائيلية) هي فكرة في غاية المنطقية ولها أسانيدها وبراهينها الاستقرائية التي تختلف عن السيناريو الذي تصورناه يوماً لهذه النهاية. بذلك يصبح الخلل محصوراً بالسيناريو وليس بالفكرة بحد ذاتها. ولنستعرض معاً المبررات المنطقية الداعمة لفكرة النهاية (الإسرائيلية).

1 - الكيان المزروع:

إن (إسرائيل) هي كيان دخيل ومزروع في المنطقة العربية. إذ يستحيل تجاوز الفروقات الإنثروبولوجية بينها وبين جيرانها العرب. فهذه الفروقات كفيلة بالقضاء على أية محاولة (إسرائيلية) للتكامل في المنطقة. إلا إذا اتخذت القرار بتجاوز منطلقاتها الإنثروبولوجية بالتحول إلى التسامح والانفتاح. ويمكن التأكيد أن (إسرائيل) عاجزة عن تحقيق هذا التحول.

2 - اقتصاد المعونات:

بعد أكثر من نصف قرن على قيامها فإن اقتصاد (إسرائيل) لا يزال اقتصاد معونات. وهذا يعود لجملة أسباب في مقدمتها الطابع العسكري الصرف لهذه الدولة. حيث الإنفاق العسكري يتجاوز كل طموحات الدخل القومي. وحيث الإنتاج موجه في الاتجاه العسكري. إضافة لاضطرار (إسرائيل) لتحقيق وفرة اقتصادية لسكانها حيث أن معظم هؤلاء يفضلون الرحيل من (إسرائيل) إذا ما انخفض مستوى الرخاء فيها. وهنا تجدر الإشارة إلى أن قيام (إسرائيل) اعتمد على اليهود الفقراء في حين فضل الأغنياء الولايات المتحدة. دون أن يتخلوا عن دعم (إسرائيل) اقتصادياً. لذلك خاضت (إسرائيل) محاولات عديدة لتجاوز هذا الواقع فكان لجوؤها إلى الصفقات السوداء وإلى تجارة المخدرات وزراعتها وتبييض الأموال السوداء وغيرها من العمليات المدانة قانونياً والمربحة مالياً. وهي تدرك عدم قدرتها على الاستمرار في هذه العمليات كون معظمها يتعارض مع المصالح الأميركية.

3 - إشكالية الهوية:

وتبدو واضحة في تركيبة الأحزاب (الإسرائيلية). وهي قد ازدادت وضوحاً مع قدوم اليهود الروس الذين أنشأوا أحزابهم وتجمعاتهم وإعلامهم الخاص بهم. في حين يشكك (الإسرائيليون) بيهودية ثلثي اليهود الروس. لكن اشتراك القادمين الروس في ثقافة مشتركة برهن على كونه عاملاً أكثر جذباً وفاعلية من العامل الديني. وفي ذلك تهديد للهوية (الإسرائيلية) المعتمدة رهنياً. والتي يحاول العلمانيون تجاوزها بقبول أي شخص ذي أصول يهودية مهما كانت بعيدة. وقبول اليهود الروس لم يكن سوى ترجمة عملية لهذا التوجه الذي استشعر الخطر المائل أمام استمرارية (إسرائيل) وهو الناجم عن نفاذ الخزان البشري اليهودي خارج (إسرائيل) وليس عن التهديدات العربية. وهنا علينا ألا نتعجل بطرح فرضية صراع (إسرائيلي) داخلي. فقد أتقن اليهود عبر تاريخهم لعبة تقاسم الأدوار ومن ثم الاشتراك في جني النتائج. من هنا يمكن القول إن للمتشددين دورهم في منع نوبان يهود الخارج. وللعلمانيين دورهم في البحث عن إمدادات بشرية جديدة. أما الصدام بين الفئتين فهو مستبعد بسبب الخلاف العقيدي. لكنه غير مستبعد بسبب خلاف المصالح. وحتى في هذه الحالة فإن الصراع سوف يكون من نوع النبذ وليس صداماً. بمعنى أن الطرف الذي يجد نفسه متضرراً لا يصادم وإنما ينسحب بالهجرة من (إسرائيل). وهذا الانسحاب يعجل نهاية (إسرائيل). وهو قد بدأ ولو محدوداً. إذ تشير الإحصاءات (الإسرائيلية) إلى هجرة 25.000 (إسرائيلي) سنوياً. فإذا ما جمعنا هذه الهجرة مع التقلص الديموغرافي "نقص معدل التكاثر" ومع نفاذ الاحتياطي البشري اليهودي فإننا ندرك حجم الأزمة (الإسرائيلية).

4 - وطن أم اتحاد حارات؟

إن يهود (إسرائيل) يعيشون في داخلها ضمن تجمعات تحدها بلدان المنشأ. أي البلد الذي قدم منه المهاجرون. وبسبب عمق الاختلافات الثقافية بين هذه المجموعات نجد أن هذا الانقسام يحول (إسرائيل) من وطن إلى اتحاد للغيتوات أو للحارات اليهودية. وهذا الانقسام يجد جذوره في التاريخ اليهودي. حيث اختلاف القبائل. وبالعودة إلى نظرية الاستقرار التاريخي نجد أن التاريخ يميل إلى إلغاء الانصهارات حديثة العهد مع إحياء الخلافات القديمة.

5 - وهم القوة (الإسرائيلية):

إن (إسرائيل) هي دولة قوية للغاية إعطاء الأمان لسكانها بتأكيد قدرتها على العدوان على تخومها. وفيما عدا ذلك فهي دولة لا تملك ولا حتى مقومات الاستمرار. فبالإضافة لاعتمادها على المعونات فهي دولة خارجة على الأعراف الدولية والإنسانية. ويكفي أن نراجع الفيتوات الأميركية وحجم الدعم الأميركي لها كي نستنتج مقدار اعتماديتها. أما بالنسبة لأسلحتها الذرية فهي أيضاً غير مقبولة دولياً. كما أن استخدام هذه الأسلحة معاق جغرافياً. إذ يمتد خطر استخدام هذه الأسلحة إلى الداخل (الإسرائيلي). وهذا كاف لاستنتاج وهم القوة وكمون هذه القوة في الدور الوظيفي الذي تلعبه في خدمة المصالح الأميركية. وبالتالي فإن الخضوع العربي يكون للقوة الأميركية وحدها، وللمارقين عقابهم.

6 - هوام الموت في (إسرائيل):

عندما قامت (إسرائيل) عام 1948 اعتبرت نموذجاً للدولة القومية. وهي تمكنت في حينه من جلب متطوعين للقتال فيها من يهود العالم. أما اليوم فإن استعداد اليهود للموت لم يعد مطروحاً. وذلك أسوة ببقية دول الرفاه في العالم. التي تريد أن تستمتع بالرفاه دون تقديم ضحايا بشرية. حتى يبدو هوام الموت حالياً وكأنه حكر على الشعوب الفقيرة. وهذا الفقر هو الذي يجعل من الحروب الراهنة صغيرة ومحدودة مع تضخم أعداد ضحاياها. هذه الأسباب كافية لتوقع نهاية (إسرائيل) دون أن تكون كافية لتوقيت هذه النهاية المرتبطة في جميع الأحوال بحدوث تغيرات أميركية من نوع ما. وهذه النهاية تحتمل سيناريوهات عديدة. وإذا كان المنطق يفرض تحري عوامل المناعة (الإسرائيلية) فإنه يقودنا لاستنتاج انتماء هذه العوامل إلى جهاز المناعة اليهودي الذي حال دون ذوبان اليهود بالرغم من تخطيطهم المتكرر تاريخياً لشروط الاستمرار الطبيعية. ولكن هل من الممكن الاعتقاد بلا نهائية هذه المناعة؟

إن نهاية (إسرائيل) مرتبطة بضعف المناعة اليهودية. هذا الضعف الذي بدأت علائمه بالتبدي بصورة واضحة مع بداية الصهيونية. التي حولت التعصب اليهودي المعتاد من الصعيد الديني إلى الصعيد الاجتماعي. حتى بدت الصهيونية وكأنها جمعية اجتماعية لليهود. مما شجع ذوبان اليهود في مجتمعاتهم. بحيث اقتصر تأثير الحلم الصهيوني على الفقراء وعلى المذعورين من دعايات الهولوكوست. لكن الانتكاسات الحديثة كانت أكثر أثراً وعمقاً. حيث البحوث الأركيولوجية تدحض المرويات التوراتية وتحمل معها الشك بكل الأساطير اليهودية. وهنا قد يفيدنا استعراض تحليل فرويد اليهودي لأسطورة الآباء الأوائل إذ تقول: "... لقد كانت نسبة دين يهوه الجديد إلى الآباء الأوائل هدف إشهار ارتباط اليهود بالأرض واتقاء الكراهية التي تلاحق الفاتحين الأجانب...".

مما تقدم نجد أن طرح "نهاية إسرائيل" هو طرح لا يفتقر إلى الموضوعية وله مبرراته المنطقية الداعمة. خصوصاً وأن جهات نظرية مختلفة تتبنى هذا الطرح وتدعمه بحجج نظرية لا يمكن تجاهلها. حتى أن جهات (إسرائيلية) تتبنى هذا الطرح مع الدعوة للعمل على تأجيل هذه النهاية. وهذا يقودنا إلى مناقشة المنطلقات النظرية لهذه الطروحات.

(إسرائيل) - نظريات النهاية:

ينتمي طارحو فرضية النهاية (الإسرائيلية) إلى مذاهب نظرية متباينة. وهم ينطلقون من خلفيات شديدة التعارض. لذلك نجد ضرورة تصنيفهم وفق تياراتهم ونبدأ بـ:

1 - التيار المستقبلي:

يتفق المستقبلون على تصنيف (إسرائيل) في خانة الكيان المزروع في محيط معاد. حيث يشير الاستقراء التاريخي إلى ثلاثة احتمالات مستقبلية لهذا الكيان هي:

أ - أن تحتوي البيئة هذا الكيان الجديد وتصهره كي يصبح جزءاً منها. وذلك على غرار ما جرى للأريين الذين استعمروا الهند.

ب - أن يندمج الغزاة مع الشعوب المحلية. على غرار ما جرى في أميركا اللاتينية مثلاً.

ج - أن يملك الغزاة قدرة الانفتاح وأن يتمكنوا من إغراء الشعوب المحلية لإقامة مشروع سوسيو - إنثروبولوجي مشترك.

ويبقى احتمال رابع يستبعده المستقبلون لسبب ديموغرافي. فأعداد اليهود غير كافية لتذويب الشعوب الأصلية على غرار ما فعله الأريون مع الهنود الحمر.

بعد هذا الاتفاق يبدأ خلاف المستقبلين في تحليلاتهم لمستقبل (إسرائيل)؛ إذ يربط بعضهم زوالها بأزمة أميركية قادمة. في حين يذهب بعضهم الآخر إلى احتساب متوسط أعمار الاحتلال التي شهدتها فلسطين التاريخية مع نزع صفة المستعمر عن العثمانيين الذين حكموا المنطقة من داخل ثقافتها. كما أن تياراً آخر يؤكد على انبعاث الفاشية بعد جيلين على اختفائها. وهذا يعني عودتها حوالي عام 2020 ويرى هذا التيار أن اليهود سيكونون أوائل المتضررين من هذا الانبعاث.

2 - اليهود التوراتيون:

وهؤلاء يعتبرون أن إقامة (إسرائيل) في شكلها الحالي هي مخالفة لمشينة الرب الذي لا بد له من الانتقام ممن يخالف إرادته. فظهور المخلص ضرورة مقدمة ومؤسسة لهذا القيام. وهذه الفئة من اليهود هي الوحيدة التي يمكنها أن تعجل في تحقيق نهاية (إسرائيل). وإن كانت أعداد أتباعها ضئيلة.

3 - الإسلاميون:

وهم يعتمدون منطلقات إيمانية مع إسنادات منطقية قوامها أن السلوك اليهودي قد جلب هزائم ومذابح متكررة لليهود. واستمرارية هذا السلوك لا بد لها من أن تقودهم إلى هزائم جديدة. مع اختلاف أساسي قوامه اعتقادهم بأن نهاية (إسرائيل) ستكون على أيدي المسلمين. ويذهب بعضهم إلى تحديد العام 2020 تحديداً كتاريخ لنهاية (إسرائيل). متفقين بذلك مع بعض المستقبلين!

4 - التيار العربي:

وينطلق هذا التيار من رفضه لفرضيات موت القومية ويصر على الانبعاث القومي دون أن يحدد له زماناً. إلا أنه يربطه بالقدرة على مواجهة (إسرائيل) وتعجيل نهايتها. انطلاقاً من اعتبار (إسرائيل) مستعمراً مثلها مثل باقي المستعمرين. مع رفض مبدئي لأية ادعاءات (إسرائيلية) أركيولوجية.

(إسرائيل) وسيناريوهات النهاية:

بات زوال (إسرائيل) موضوعاً مطروحاً بقوة ولم يعد ينظر لهذه النهاية على أنها أحد أحلام اليقظة لدى أعداء (إسرائيل) والعرب منهم خصوصاً. حتى وصل الأمر إلى مستوى محاولة تخيل هذه النهاية والسيناريو المفضي إليها.

هذا ويكتسب الموضوع أهمية مضاعفة مع استشعار الإستراتيجيين (الإسرائيليين) لهذه النهاية محاولتهم اقتراح الحلول للأزمات التي يمكنها أن تعجل هذه النهاية. وفيما يلي نعرض لنماذج من السيناريوهات المقترحة لزوال (إسرائيل). حيث نقدم السيناريوهات المقترحة من قبل الإستراتيجي (الإسرائيلي) ووزير العدل يوسي بيلين ومن قبل المستقبلي الفرنسي جاك آتالي كما نعرض للسيناريو المقترح من قبل الليبيراليين العرب.

1 - سيناريو جاك آتالي:

لخص آتالي تصوره لزوال (إسرائيل) في مقالة نشرها في مجلة الإكسبرس الفرنسية حيث رأى أن (إسرائيل) تعيش حالياً في عزلة غير مسبوقة وغير معهودة بالنسبة إليها. وبأنها تواجه التهديد بالزوال أكثر مما واجهته في يوم من الأيام.

وهذا التهديد لا يعود إلى تمكن أعدائها من ملكية الأسلحة والوسائل العسكرية القادرة على تهديدها بالدمار. إذ تستمر (إسرائيل) صاحبة أقوى جيش في المنطقة وهو الرابع في العالم.

لكن السبب يعود إلى أن (إسرائيل) تواجه كيفما اتجهت تهديدات تطل مستقبلها ووجودها نفسه. فإذا ما اندلعت الحرب في المنطقة حالياً فإنها لن تكون حرب جيوش نظامية تخوض معارك كلاسيكية. بل ستتحول إلى نوع من الحرب الأهلية يتقاتل فيها الشبان الفلسطينيون والمستوطنون (الإسرائيليون). الذين سيخوضون مواجهات دموية في شوارع وقرى فلسطين و(إسرائيل).

أما إذا حدثت المعجزة - السلام فإن حلول السلام سوف يستتبع قيام سوق مشتركة تضم جميع بلدان المنطقة. بما فيها لبنان ومصر وسوريا وفلسطين والعراق والأردن. وهذه السوق ستكون مشابهة للسوق الأوروبية المشتركة. وهي ستدوب الهويات القومية بصورة تدريجية. وبذلك تصبح (إسرائيل) أقلية ديموغرافية وثقافية في هذه السوق. خصوصاً بعد أن تستوطن في أراضيها الشعوب التي تعادىها اليوم. مما سيفقدتها صفة الدولة اليهودية. وفي حالي الحرب والسلام فإن الحلم الصهيوني كما وضع قبل قرن يبدو محكوماً بالفشل. وفي مواجهة هذا المأزق المزدوج تبدو النخب (الإسرائيلية) منزوعة الإستراتيجية وفاقدة للرؤية أو المرجعية الواضحة فمأزق (إسرائيل) الإستراتيجي الراهن يتمثل في أنها لا تريد أن تخوض حرباً مكلفة لجيلها الحالي كما أنها تخشى من نتائج السلام على أجيالها المستقبلية.

2 - سيناريو يوسي بيلين:

ويتخذ شكل الاستشراف المستقبلي والاقتراح الوقائي حيث يتوقف عند التحذير من وجود تهديدات غير عربية لبقاء (إسرائيل). إلا أن هذا السيناريو يتبدى واضحاً من خلال كتاب بيلين المعنون "موت العم الأميركي" حيث يقدم مراجعة للمشروع الصهيوني. فيجد أن التيار المركزي في الحركة - المنحاز إلى هرتزل هو الذي فشل في تحقيق الحلم الصهيوني. فقد قصد هرتزل منح يهود أوروبا ملجأ من المطاردات. ومن هنا استعداده لمناقشة أي اقتراح يؤمن هذا الهدف في أي مكان من العالم وبسرعة. وفي حينه لم تكن فلسطين خياراً أولياً لليهود أوروبا. لذلك هاجر أغنياؤهم إلى الولايات المتحدة. وهنا يصرح بيلين: "إني أشعر بنوع من الهيستيريا والخوف إزاء ذوبان الشعب اليهودي خارج دولة إسرائيل. فالיום وبعد 51 سنة على قيام إسرائيل يوجد 13 مليون يهودي يعيش 10 ملايين منهم في الولايات المتحدة وإسرائيل، أما شرق أوروبا فإنه سيخلو من اليهود لأن معظمهم يحلم بالهجرة إلى الولايات المتحدة و60% منهم يعقد زيجات مختلطة. وكذلك يفعل يهود أميركا مما يؤدي إلى التناقص المستمر لأعداد اليهود في الخارج. مما يحرم إسرائيل من الخزان البشري للدم اليهودي".

ويستخدم بيلين هذا التحذير كمدخل لطرح إشكالية تعريف اليهودي. حيث التعريف المعتمد حالياً في (إسرائيل) يقول إن اليهودي هو المولود لأم يهودية وأصبح يهودياً بحسب الشريعة اليهودية وبمصادقة الحاخامين الأورثوذكس. ويرى بيلين أن هذا التعريف يحصر بالمحافل الدينية مسألة ذات طابع قومي. وهو يحرم ملايين الأشخاص الذين يعتبرون أنفسهم يهوداً من اليهودية (الإسرائيلية). ويبلغ عدد هؤلاء المحرومين في الولايات المتحدة وحدها ما بين 2 - 3 مليون يهودي. ويخلص إلى التأكيد بان الإصرار على هذا القانون هو نوع من الانتحار الجماعي.

بمعنى آخر فإن بيلين يجد نهاية (إسرائيل) في هذا القانون لذلك يدعو لاستبداله بقانون علماني يعتمد على الرغبة الشخصية. حيث تقبل (إسرائيلية) الشخص إذا رغب في ذلك مهما كانت أصوله اليهودية بعيدة. هذا التساهل يدعو إلى التساؤل حول قدرة (إسرائيل) على تحمل الانشقاق الجديد في الهوية الذي سينجم عن قبولها لأنصاف وأرباع اليهود؟ والجواب أن إستراتيجياً مثل بيلين يفضل هؤلاء على العرب الذين ستجبر (إسرائيل) على قبولهم إن هي سلمت بنفاد الخزان البشري اليهودي.

هنا تحديداً تتبدى أزمة المشروع الصهيوني الراهنة. فهو أمام خيارين صعبين. فإما القبول طوعاً بفوضى ديموغرافية - داخلية بقبول هؤلاء اليهود وإما القبول بالانفتاح على المحيط العربي الذي سيحول (إسرائيل) إلى سوبر ماركت عربي بحسب المصطلح الدارج في الصحافة (الإسرائيلية). والعلمانيون أمثال بيلين يفضلون الخيار الأول لا بسبب تسامحهم ولكن بسبب قناعتهم بأن التعصب اليهودي لا يأتي من الديانة بل من الانتماء إلى شعب الله المختار. وعليه فإن قبول أرباع اليهود في عداد هذا الشعب لا يعني بحال قبول مجموعات أقل تعصباً. بل على العكس، وهذا ما يؤكد التحليل النفسي عبر آلية التوحد، فإن هؤلاء قد يصبحون أكثر تعصباً وتطرفاً.

وهذا الرأي يجد دعمه في مثال اليهود العرب الذين أصبحوا أكثر عداوة لبلادهم الأصلية من الصهاينة الأشكناز. بل إنهم أصبحوا أكثر صهيونية من هؤلاء الأشكناز بالرغم من التمييز العنصري الذي يلحق بهم من قبل هؤلاء. مهما يكن فإن (إسرائيل) تعي أن خطورة التهديد الديموغرافي هي الخطورة الحقيقية التي تهدد مستقبلها وليس الخطورة العسكرية. لذلك فهي تفضل المخاطرة بفوضى داخلية على الانفتاح. لأن هذا الأخير يعادل الاعتراف بنهاية الحلم الصهيوني.

3 - السيناريو العربي - الليبرالي:

يعتبر اتفاق أوسلو بداية نهاية التفكير بإزالة (إسرائيل) بفعل عربي. فقد كرس هذا الاتفاق تحول المقاومة الفلسطينية من العمل العسكري إلى التفاوض الدبلوماسي. وهو الأمر الذي ينظر إليه الرأي العام العربي بحذر شديد. خصوصاً وأن سرية هذا الاتفاق والمفاوضات الموازية له لم تترك لهذا الرأي العام فرصة تقبل الفكرة. وكما هو معلوم فإن فصائل فلسطينية عديدة عارضت ولا تزال هذا الاتفاق. إلا أن بداية السيرورة العملية لتنفيذه والدعم الأميركي له جعل هذا الاتفاق كحكم الأمر الواقع الأميركي الذي تحتكر (إسرائيل) حقوق عرقته والانتفاف عليه. أما على الصعيد العربي فقد تحول هذا الاتفاق إلى عنصر إضافي للخلافات العربية. حتى بات من المفضل تجنب ذكره في المفاصل الحساسة. وبدا الأمر وكأننا ننتظر حرب الخليج الثانية لنفقد في آن معاً العميقين الإستراتيجي والاقتصادي. هذا فقدان الذي حول التيار العربي إلى الكمون وسط شائعة نهاية القوميات. ومعها شائعة وفاة القومية العربية. مع اعتبار أي تفكير في مواجهة (إسرائيل) نوعاً من أحلام اليقظة الرومانسية. التي تلامس الجنون بعد السماح بإعلان (إسرائيل) عن ملكيتها لـ 200 رأس نووي ولقدرة تدميرية غير قابلة للمواجهة.

في هذه الظروف تحولت مناقشة مستقبل (إسرائيل) من الخطاب التعبوي إلى الخطاب الأكاديمي - النظري. ولا يسعنا هنا إهمال الجهد العظيم الذي قدمه الدكتور عبد الوهاب المسيري عبر موسوعته "اليهود واليهودية والصهيونية"، حيث تم تسجيل ملاحظات مبدئية - تاريخية قوامها ارتباط قيام (إسرائيل) بدور وظيفي محدد في خدمة المصالح الأجنبية. فكانت منذ تأسيسها دولة اعتمادية (تعتمد على الدعم الخارجي في جميع المجالات) لذلك فإن اقتصادها لا يزال اقتصاد معونات ومجتمعها لا يزال عسكرياً (يعتبر الشعب الإسرائيلي جيش احتياط تتم تعبئته عندما تدعو الحاجة) كما أن آمالها في التكامل مع محيطها تزداد انحساراً مع الوقت. خصوصاً مع اعتمادها أسلوب تفاوض الطرف الأقوى ونقيضه الأكثر حاجة للشخصية اليهودية عبر تاريخها. وهذه السمة تجبر صاحبها على الكذب والاحتيال فبدونهما يستحيل تحقيق الأهداف المتناقضة.

ويختتم هذا السيناريو تحليله بتوقع زوال (إسرائيل) مع زوال الحاجة إلى دورها الوظيفي ومع حلول الوقت لطرح السؤال عن مدى إمكانية استمرار زراعة قسرية لعضو غريب في جسم رافض له؟

ملاحظات ختامية:

بداية نذكر أن الطروحات المعروضة أعلاه كتصورات لنهاية (إسرائيل) هي طروحات نظرية وليست أيديولوجية. وهذا النوع من الطروحات لا يتعزز إلا من خلال طرحه للنقاش وإخضاعه للمقارنة مع الطروحات الأخرى سواء الداعمة أو المعارضة له.

ولقد رأينا أن طرح يوسي بيلين هو طرح تحذيري يتضمن الدعوة لإصلاح ما يعتبره نوعاً من الخلل الطارئ على المشروع الصهيوني. فلو نحن راجعنا مقولات المتطرفين (الإسرائيليين) لوجدنا أنهم يقترحون اعتماد التطرف البالغ كحل لأزمات (إسرائيل) الراهنة. وهذا الاقتراح يجتذب أعداداً متزايدة من (الإسرائيليين). وذلك بدليل تنامي نفوذ المتطرفين في الكنيست وحصولهم على نسب متزايدة من أصوات الناخبين (الإسرائيليين). بما يعكس رفض هؤلاء لفكرة معاناة (إسرائيل) من أزمة حقيقية تستوجب المراجعة التي يدعو إليها العلمانيون. وخصوصاً لجهة إعادة النظر في القانون الذي يعرف اليهودي صاحب حق العودة إلى (إسرائيل) والحصول على جنسيتها. في المقابل نجد أن المتطرفين قد غضوا النظر عن توطين 650 ألف روسي من المشكوك بيهوديتهم. مما يعكس استشعارهم للأزمة مع رفضهم الإعلان عن ذلك.

مهما يكن فإن (إسرائيل) تستمد قوتها واستمراريتها من الدعم غير العادي الذي ترفدها به الولايات المتحدة بصورة خاصة والدول الأوروبية بصورة فرعية. واستمرار هذا الدعم يعني استمرار (إسرائيل) قوية وقادرة. فهو يعني ضمناً استمرار قدرة (إسرائيل) على لعب الدور الوظيفي المطلوب. وعليه فإن المنطق يفرض علينا مناقشة مستوى القدرة الوظيفية لهذه الدولة من وجهة نظر المستفيدين من هذا الدور. مما يعني ضرورة التركيز على مواقف ثلاثة أقطاب أساسية هي: الإدارة الأميركية والكونغرس الأميركي وأوروبا.

قبل هذه المناقشة لا بد لنا من الإشارة إلى جملة متغيرات كان لها دور في إعاقة الوظيفية (الإسرائيلية). على ألا نبالغ بتحميلها ما لا تحمله. بداية فإن نهاية الحرب الباردة أثرت في دور (إسرائيل) كقاعدة متقدمة في مواجهة الشيوعية. إلا أن محاولات الاتحاد الروسي لإقامة تحالفات جديدة (مع دول السوفييات السابقة أو مع الصين أو عبر دعمه لأحلاف جديدة في المناطق المحيطة بالاتحاد) أعطت لـ(إسرائيل) دور الجهوزية المستقبلية لمواجهة مثل هذه الاحتمالات. أما على صعيد حماية منابع النفط وتأمين سهولة الوصول إليها فقد بات ذلك مضموناً عبر التواجد العسكري الأميركي المباشر في المنطقة. لكن هذا التواجد محاط بمحيط معاد له. الأمر الذي يعيد لـ(إسرائيل) جزءاً من دورها على هذا الصعيد. أما عن رغبة الولايات المتحدة في التخلص من أعباء إعانة (إسرائيل) لأن الطرفين يعملان على إيجاد البدائل ومن بينها توكيل (إسرائيل) بالعمليات السوداء التي تريد الولايات المتحدة تجنبها. ومن هذه العمليات عضوية المافيا وكرتيلات المخدرات وتبييض الأموال وصفقات الأسلحة المشبوهة والحصول على حصة من الخيرات العربية عبر تسوية سلمية مؤقتة مع العرب... إلخ من العمليات المربحة التي يمكن لـ(إسرائيل) الخوض فيها دون خشية أي جهة كانت ما دامت تتمتع بالغطاء الأميركي.

مما تقدم يحق لنا تأييد الطروحات المعروضة أعلاه لجهة عدم معاناة (إسرائيل) من تهديدات إستراتيجية حقيقية أقله على المدى المنظور. إلا أننا في المقابل لا نستطيع تجاهل التهديدات البنينة الضاغطة على هذه الكيان والمهددة لدوره الوظيفي من جملة ما تحمله من تهديدات. فصعود الأصوليات اليهودية أخرج (إسرائيل) من مصاف الدولة التي تتطابق معتقداتها وقيمها مع تلك الغربية. بحيث باتت شبيهة بنظام جنوب أفريقيا العنصري. وبما أن حاسة النقد لدى الأوروبيين أكثر تطوراً منها لدى الأميركيين فإن الأوروبيين بدأوا يدركون حقيقة لا ديموقراطية (إسرائيل) وخضوعها لحكم الجنرالات العسكري. وهنا أيضاً لا بد من ملاحظة أن حزب العمال البريطاني يعتمد مواقف صهيونية ويلعب أدواراً مؤثرة لمصلحة (إسرائيل). كما أن لدى ألمانيا ورطة الهولوكوست التي تعيقها عن إعلان فتاعات من هذا النوع. وأخيراً فإن الدور الوظيفي (الإسرائيلي) لا يزال فاعلاً بالنسبة للأوروبيين. الذين يرحبون بدور اقتصادي (إسرائيلي) فاعل في مسيرة العولمة الاقتصادية. أما على صعيد الإدارة الأميركية فإن هذه الإدارة لا تزال تدرك أن تفاعلات الشرق الأوسط لا تسير في الاتجاه المناسب لها. لذلك فهي متمسكة بـ(إسرائيل) كحليف إستراتيجي لمواجهة أية مفاجآت محتملة في المنطقة. ونأتي إلى الكونغرس الأميركي الذي تعود العرب إهمال أهميته وفعاليته لنجد أن (إسرائيل) قد فشلت في تحقيق سيطرة تامة عليه. إلا أنها في المقابل أثبتت قدرة اللوبي اليهودي على استبعاد السيناتورات الذين يظهرون معارضة صريحة لـ(إسرائيل). حيث كلمة السر التي تسقط هؤلاء السيناتورات هي "معاداة السامية" التي كانت كفيلاً بإخراج عشرات السيناتورات من الحياة العامة.

على أن تحليل عوامل النفوذ اليهودي في أميركا غير ممكن الاختصار بشعار الرفاه والمصالح الأميركية. بل إن هنالك عوامل نفسية - اجتماعية لا يمكن تجاهلها. فالمواطن الأميركي يكاد يفقد حاسة النقد ومن هنا خضوعه المطلق لإيحاءات الإعلام (حيث تحافظ إسرائيل على حصة لا بأس بها في هذا الإعلام). كما أن النظام الانتخابي الأميركي (على صعيد الرئاسة والكونغرس وغيرها) يجعل من النظام الأميركي أكثر أنظمة العالم تأثراً (وأحياناً خضوعاً) لمجموعات الضغط. وهذا ما أدركه اللوبي اليهودي منذ البداية واستغله أفضل استغلال.

وهكذا يمكن التأكيد على عدم وجود خطر حقيقي مهدد بزوال (إسرائيل) في المدى المنظور ولكن يمكن القول إن المشروع الصهيوني في طريقه للترهل ومعه الدولة التي تجسده. ويمكننا اختصار مظاهر هذا الترهل كما يلي:

1 - إن الجيل الحالي من اليهود يختلف عن الجيل الذي عايش الحرب العالمية الثانية. وأهم نقاط هذا الاختلاف هي فتور حماسة الجيل الحالي للصهيونية. وانغماسه في الراهن السياسي (الإسرائيلي) المتحول إلى ميدان صراعات الهوية.

2 - تنامي متطلبات الدور الوظيفي بما يضطر الحكم (الإسرائيلي) لاتخاذ قرارات غير شعبية. وهي قرارات غالباً ما تؤدي إلى تصعيد حدة الصراع على الهوية. حيث يتمرد الأصوليون اليهود مثلاً على الخضوع التام من قبل دولتهم للأوامر الأميركية. هذا التمرد الذي لم يجد متنفساً للتعبير السياسي إلا عبر نتنياهو. ومن بعده عبر احتجاجات حزب شاس على ما سماه بتنازلات باراك. مما أدى إلى انسحاب شاس من الحكومة.

3 - صعوبات الجمع بين شراكة الولايات المتحدة في العولمة وبين توجهات الأصولية اليهودية التي ترى في العولمة تهديداً مباشراً للتراث اليهودي.

4 - تنامي وعي الرأي العام العالمي بعدم موضوعية شروط السلام (الإسرائيلية). الأمر الذي يهدد قدرة الحكومات في الاستمرار بتقديم مستويات الدعم الحالية لـ(إسرائيل).

مهما يكن فإن المنطقة مستمرة في ملكيتها لأهم مخزون نفطي عالمي. فهذا يؤدي لاستمرارية أهميتها الإستراتيجية ومعها الحاجة لـ(إسرائيل). في المقابل فإن المشروع الصهيوني عاجز عن الاستمرار في شكله الحالي حيث لم يعد قادراً على اجتذاب الأجيال الجديدة. كما أن اقتصاد المعونات (الإسرائيلية) يجعل (إسرائيل) عرضة لتقلبات اقتصاد وسياسات الدول الداعمة لها. وهكذا فإن هذه الدولة غير مهددة في المدى المنظور إلا أنها آيلة للسقوط وفق جميع النظريات المستقبلية. ومن جهتنا نرجح الطروحات القائلة بسقوطها من الداخل كون مؤشرات هذا السقوط هي الأسبق في التبدلي والقابلية للقراءة المبكرة. ولعل أولى هذه القراءات كانت "اغتيال رابين".

* * *

لنا المستقبل

الانتفاضة

لنا ما ليس يرضيكم... لنا المستقبل:

هل سمعتم يوماً عن قدرة الشعر على الانتماء إلى حقل الدراسات المستقبلية - السياسية؟ السؤال يبدو ناشراً مع شيوع مقولة موت الشعر. إلا أن ذلك لا يمنعه عن المطالبة بالجواب!
هل تذكركم انتفاضة الأقصى بقصيدة تقول: منكم السيف ومنا الدم/ منكم الفولاذ والنار ومنا لحمنا/ منكم دبابة أخرى ومنا حجر/ منكم قنبلة الغاز ومنا المطر... إنه المقطع الثاني من قصيدة محمود درويش "عابرون في كلام عابر".

بعد أن تحدثنا في الفصل السابق عن سيناريوهات النهاية (الإسرائيلية) هل تعتقدون بإمكانية إدراج هذه القصيدة ضمن هذه السيناريوهات؟ وهل تفقد هذه القصيدة - النبوءة طابعها المستقبلي لمجرد كتابتها شعراً؟
لقد أثبتت انتفاضة الأقصى أن هذه القصيدة لم تكن مجرد مجموعة أبيات شعرية بل إن الواقع بين كونها تحليلاً نفسياً متعمقاً للذات العربية ولمكونات العقل الجمعي. الذي حرم درويش من صورته الشعرية لأنه حولها إلى حقائق معيشة ثمنها الدم واللحم وأدواتها الحجر والمطر من سقف السماء ومن عيون الأمهات. إن التوظيف السياسي لهذه القصيدة تم في اتجاهين؛ الأول وهو الطبيعي أي مخاطبة العقل الجمعي العربي، والثاني كان إدخالها للتدريس في المدارس (الإسرائيلية) لتوعية التلامذة اليهود بخطر العرب على ذلك يوقظ في لا وعيهم بعض النكوص إلى المشروع الصهيوني. بل علمهم يتعلمون أن للموت دروب أخرى غير التي يتصورونها. وبأنّ هنالك من هو مستعد لسلوك هذه الدروب وهو يصرخ... لنا الدنيا هنا... والآخرة.

كنت قد نشرت هذه القراءة النفسية لقصيدة درويش بمناسبة الجدل الذي قام في الكنيسة (الإسرائيلي) بسبب إدخالها في مناهج التدريس (الإسرائيلية). وكان نشرها بتاريخ 31/ 3/ 2000، في جريدة الكفاح العربي البيروتية. وبالنظر لاعتقادي بأنها تلخص سيكولوجية السياسة (الإسرائيلية) وردود الفعل العفوية على هذه السياسة فقد رأيت ضرورة إفراد هذا الفصل لها.

حيث نبدأ بتعريف القارئ على نص القصيدة لننتقل بعدها إلى تحليلها وفق المبادئ التحليلية للأدب:

- 1 -

أيها المارون بين الكلمات العابرة

احملوا أسماءكم، وانصرفوا

واسحبوا ساعاتكم من وقتنا، وانصرفوا.

واسرقوا ما شئتم من زرقة البحر ورمل الذاكرة
وخذوا ما شئتم من صور، كي تعرفوا
أنكم لن تعرفوا
كيف يبني حجر من أرضنا سقف السماء.

- 2 -

أيها المارون بين الكلمات العابرة
منكم السيف - ومنا دمنا.
منكم الفولاذ والنار - ومنا لحمنا
منكم دبابة أخرى - ومنا حجر
منكم قنبلة الغاز - ومنا المطر
وعلينا ما عليكم من سماء وهواء
فخذوا حصتكم من دمنا وانصرفوا
وادخلوا حفل عشاء راقص... وانصرفوا
وعلينا، نحن، أن نحرس ورد الشهداء
وعلينا، نحن، أن نحيا كما نحن نشاء!

- 3 -

أيها المارون بين الكلمات العابرة
كالغبار المر، مروا أينما شئتم ولكن
لا تمروا بيننا كالحشرات الطائرة
فلنا في أرضنا ما نعمل
ولنا قمح نربيه ونسقيه ندى أجسادنا
ولنا ما ليس يرضيكم هنا.
حجر... أو خجل
فخذوا الماضي، إذا شئتم، إلى سوق التحف
وأعيدوا الهيكل العظمي للهدهد، إن شئتم.
على صحن خزف.

فلنا ما ليس يرضيكم. لنا المستقبل
ولنا في أرضنا ما نعمل.

- 4 -

أيها المارون بين الكلمات العابرة
كدّسوا أو هامكم في حفرة مهجورة، وانصرفوا
وأعيدوا عقرب الوقت إلى شرعية العجل المقدس
أو إلى توقيت موسيقى مسدس!
فلنا ما ليس يرضيكم هنا، فانصرفوا
ولنا ما ليس فيكم، وطن ينزف شعباً ينزفُ
وطناً يصلح للنسيان أو للذاكرة...
أيها المارون بين الكلمات العابرة،
آن أن تنصرفوا
وتقيموا أينما شئتم ولكن لا تقيموا بيننا
آن أن تنصرفوا
ولتموتوا أينما شئتم، ولكن لا تموتوا بيننا
فلنا في أرضنا ما نعملُ
ولنا الماضي هنا
ولنا صوت الحياة الأولُ
ولنا الحاضر، والحاضر والمستقبلُ
ولنا الدنيا هنا... والآخرة
فاخرجوا من أرضنا
من برنا... من بحرنا
من قمحنا... من ملحنا... من جرحنا
من كل شيء، واخرجوا
من ذكريات الذاكرة
أيها المارون بين الكلمات العابرة!

هذا هو نص القصيدة التي أثارت مناقشة حادة في الأوساط (الإسرائيلية) وفي الكنيسة بالذات، فكانت ردود الفعل عليه مؤكدة على كذب مقولة "موت الشعر" وعلى كون هذه المقولة مجرد شائعة منسوخة عن بقية شائعات الموت "الأيدولوجيات" و"القوميات" و"التاريخ"... وغيرها من شائعات عصر المعلومات الذي يبدو وكأن غاية مآربه نشر الشائعات والترويج لها، باعتبارها أقصر طرق تحقيق الفائدة والفاعلية الداعمة لمكاسب

مالكي وسائل الاتصال وتكنولوجياته. فهل يمكن للشعر أن يستمر في الحياة متحدياً الشائعة المعلوماتية وتكنولوجيا العصر؟

في عودة إلى الأصول نجد أن الشعر كان يمثل ولعصور طويلة قناة الاتصال المثالية. وتتأكد لنا أهميته الإعلامية - المعلوماتية من خلال وجوه استعماله التاريخية. حيث نلاحظ أن الشعر لم يقتصر على إبداعية التعبير عن المشاعر الإنسانية وعن وجدان المبدع. فقد استعمل الشعر لتسهيل حفظ الشعائر الدينية. حيث تحويل هذه الشعائر إلى ترانيم يسهل حفظها ويشجع على تراددها بصورة جماعية. مما يحول التراتيل الجماعية إلى نوع من السيكودراما الموظفة دينياً ولاحقاً سياسياً. مع ظهور قصائد المدح والهجاء ولاحقاً مع امتزاج الشعر - الترنيمة مع الموسيقى وتدخل هذه الأخيرة في تلحينه. لغاية تحول القصيدة إلى أغنية سياسية.

عبر هذه المتابعة السريعة نلاحظ أن البشرية لم تتقدم كثيراً! أو هي لم تستطع التنصل من بدائيتها، فالإنسان لا يزال يمارس الجنس بذات الطريقة التي مارسه فيها الإنسان الأنثوليتي، بل إنه لم يستطع أن يضيف أي شيء إلى تلك المعروفة تاريخياً. كما أن هذا الإنسان المعاصر لا يزال يربط إقباله أو عزوفه، عن موقف ما، بغرائزه البدائية.

لعل الإنسان المعاصر يملك قدرة إرضاء هذه الغرائز بصورة أكثر مباشرة وأكثر استجابة لهواماته الغريزية. وقد يكون ذلك مدعاة له كي يتجنب إرضاء هذه الهوامات عن طريق التوحد بالشاعر أو بمعاني القصيدة أو الأغنية. فعصر المعلومات يمكنه من تجسيد رغباته الخاصة - بل بالغة الخصوصية - بصور حسية ملموسة. لكن هذا كله لا يستطيع أن ينزع من الإنسان رغبته في الحصول على الاعتراف (قبول الآخر له)، وهذا الاعتراف لا يمكن الحصول عليه من تكنولوجيا الاتصالات. التي لا تخرج عن كونها آلات مبرمجة في اتجاهات محددة تجلب الاعتراف لشريحة معينة وتنزعه عن شرائح أوسع وأكثر اقتداراً وحاجة للاعتراف.

وفي عودة إلى قصيدة "عابرون في كلام عابر" نجد أن الصهيونية، التي تدعي ملكية السيطرة الإعلامية وتكنولوجيا الاتصالات، قد اهتزت لهذه القصيدة. وهذا الاهتزاز يدحض شائعة موت الشعر ومعها بدائية القصيدة وموت المؤلف وإمكانية التحكم بسلوك المجموعات البشرية ونزع هويتها من طريق منحها اعترافاً إبحائياً ووهيمياً.

فهذا الشاعر الفلسطيني يسخر عبر هذه القصيدة بكل مقولات العصر الجديد ويدعو شعبه إلى عدم الانسياق وراء "الاعتراف الوهمي" الذي يعرض عليه معلباً على شكل "دولة موهومة". بل هو يدعو للنكوص إلى عصر استخدام الحجر لبناء سقف السماء. فالسماء ترحم وتظلل أولئك الذين عايشوا الحجارة التي تحتها والتي استخدمت في بناء سقفاها. وهذا النكوص إلى حجارة السماء يتطلب وقفة اختصاصية تجمع بين التحليل النفسي والإثنروبولوجيا والتاريخ بالإضافة إلى معطيات الراهن بالغة التعقيد. وهذا التحليل قد يكون اختصاصياً أكثر من اللازم لكننا نعتبره حاجة لتبيان فعل الشعر وحيوية القصيدة وإظهار بعدها الثالث وهو البعد الفكري الذي يكمل البعدين اللغوي والانفعالي العاطفي.

والقصيدة التي بين أيدينا هي قصيدة نكوصية. والنكوص بحسب التحليل النفسي هو عودة إلى الماضي تهرباً من حاضر (راهن) لا تستطيع الأنا تحمله. أو أنها ترغب في تجنبه على الأقل. هذه العودة إلى الماضي تعتبر خطوة على طريق العودة إلى الصفر (العودة إلى بطن الأم التي تعكس فكرة ليتني لم أولد كبديلة لفكرة ليتني أموت). ومن هنا فإن النكوص يعتبر علامة من علائم الموت، وذلك تهرباً من راهن لا يحتمل ومستقبل يفترض أنه أكثر سوءاً. لكن هذا النكوص يتحول إلى علامة حياة عندما يكون مدروساً كي يتم تسخيره لفهم الحاضر واستيعابه بغية تجاوزه إلى مستقبل أفضل والعلاج بالتحليل النفسي يعتمد على تداعي الذكريات (نطلب من المتعالج أن يعود إلى الماضي وينذكر أحداثه المؤثرة) وهي تحديداً ما يسمى بالنكوص المدروس (تحت قيادة وتوجيه المعالج) الذي يهدف إلى تنقية أحداث الماضي من انعكاساتها السلبية على الشخصية وتحويل هذه الأحداث لخبرات شخصية تساعد على مواجهة الخبرات الحاضرة والمستقبلية الشبيهة.

وها هو محمود درويش يتبدى محلاً نفسياً - إنثروبولوجياً في هذه القصيدة فنراه ينكص إلى الحجر (الأرض وهي رمز الأم فائقة القوة والقادرة على حماية أبنائها والاستجابة لرغباتهم). وهذه الأم قوية بحيث تبني سقف السماء وتحول الموضوعات السيئة إلى مجرد عابرة. وفي تاريخ جبروت هذه الأم قدرتها على إلقاء حجارة تسقط من السماء على هذه الموضوعات السيئة (العابرون) فتتغلب على قوتهم العسكرية. وبذلك يصبح السيف والفولاذ والنار والدبابة وقنبلة الغاز... إلخ أدوات عديمة الجدوى أمام اللحم والحجر والمطر والسماء والهواء... إلخ. والافتقاد للجدوى يدفع بدرويش إلى طلب: "اسحبوا ساعاتكم من وقتنا" وهو طلب ينطوي على منحي وجودي بالغ الدلالة. فدرويش وجماعته يعايشون الوقت والزمن بطريقة مختلفة تمام الاختلاف عن معايشة العابرين لهما. فزمن أصحاب الأرض مرتبط بتاريخ عيش على هذه الأرض ومعايشة لحجارتها وارتباط بها لا يختلف بحال عن تعلق رضيع بثدي أمه. أما العابرون فلهم بعض التحف مع هيكل عظمي للهدهد وأشياء أخرى يمكن تكديسها في حفرة مهجورة. كيف لا وقد امتد حفظ هذه الأوهام، على مدى قرون عديدة، في الحفر المهجورة. حتى باتت القطيعة التاريخية (الممتدة من سنة 70 ميلادية لغاية أواخر القرن التاسع عشر) كافية حتى لمنعهم من العبور!

وبما أننا نتكلم عن مبادئ التحليل النفسي فلا بد لنا من استعادة بعض ما كتبه فرويد (مؤسس التحليل وهو يهودي) في كتابه موسى والتوحيد. حيث يقول: "... اعتمد اليهود حيلة ادعاء النسب بينهم وبين الشخصيات الكنعانية الشهيرة، وذلك بهدف التخفيف من وطأة معاملة السكان المحليين لهم بصفة مستعمرين...".

أما التحليل النفسي ومعه علم اجتماع المعرفة فإنهما لا يقبلان مقولة "التاريخ تأليه معكوس" لما تحتويه هذه المقولة من تكريس لدور الأسطورة. وهو الدور الذي تقوم عليه (إسرائيل) المبنية على غرار الأساطير، حتى تبدو هي نفسها مجرد أسطورة. والأساطير لا تبقى. فالتاريخ الذي يحميها هو نفسه الزمن الذي سيفضحها في وقت لاحق. ومن هنا قول درويش "... فلنا ما ليس يرضيكم، لنا المستقبل".

وهكذا وعبر قصيدة، يعلن درويش طلاقاً بانناً لحوار اللامعقول - الأسطورة وينتقل إلى مقارعة ميثولوجية تنقل الصراع من مسرحيات التفاوض من أجل الاتفاق على لا شيء، إلى حقل القناعات الماورائية والوعود المستقبلية المتضاربة. لكن درويش يستند إلى وعود الأم - الأرض والحجر وهي أمومة عالمية بعيدة عن احتكار يحتاج لدعم الأساطير ولفبركة مقولات أسطورية ملائمة لأجواء الراهن، يعقبها التراجع عن الأسطورة لمصلحة تاريخ جديد يمكنه مواجهة الجينزا (مكنوزات المعابد اليهودية) والاكتشافات الأثرية التي تعيد للتاريخ موضوعيته فتتقده من أسر الأساطير.

ونجاح هذه القصيدة لا يستند فقط إلى الإسقاطات التي يستثيرها لدى رأي عام عربي، عاشق للأرض متعلق بسقف السماء منتظر لعودها بعد أن خيبه الراهن، بل هو يستند أيضاً إلى الإسقاطات التي أثارها لدى الجمهور (الإسرائيلي) الذي يتحول من مارد جبار إلى رعديد عندما يفقد قدرته على العدوان. فالعدوان هو حامي الأسطورة ومصدر فرض شرعيتها، ومن دونه تزول الأسطورة ويتحول هؤلاء إلى مجرد عابرين في كلام عابر.

ولعل المقطع الأخير في القصيدة "فاخرجوا من أرضنا..." يشكل تحدياً للمتحولين العرب أكثر منه (للإسرائيليين) أنفسهم. فهؤلاء يعرفون أن تراب الأرض المحتلة لا يحوي رفات آبائهم ولا يضم بقاياهم في تكوينه. أما المتحولون فقد صفتهم معاني القصيدة خصوصاً لجهة تشكيكها بالمستقبل، الذي يراه المتحولون استقراراً وتوسيعاً لنفوذها الاقتصادي وأيضاً توسيعاً لمفهوم اليهودي - البدوي المتنقل بحرية وبدون شروط في البوادي العربية. وهم يرهبون قول درويش "لنا المستقبل" بما فيه من رفض للبدوة اليهودية. هذا الرفض الذي كرسه نجاح القصيدة لدى الجمهور العربي والرهاب الذي ولدته لدى (الإسرائيليين)!

أما لماذا نتناول هذه القصيدة وقد انقضت سنوات على نشرها فالسبب في ذلك يعود إلى نهاية فترة حضانتها في المجتمع (الإسرائيلي) وبداية ظهور تأثيرها الخوافي المعمم في هذا المجتمع. وفترة الحضانة هذه لازمة لكل عمل إبداعي أو فكري. وهي الفترة التي يستغرقها العمل حتى يصل إلى المعنيين بخطابه، وتزداد هذه الفترة عندما يحتاج العمل للترجمة كونه منشوراً بلغة غير لغة المهتمين. كما تتأثر هذه الفترة بعوامل التوزيع والرقابة وقنوات الاتصال. ومجموع هذه العوامل يذكرنا بالمثل الفرنسي القائل "خير لك أن تصل متأخراً من ألا تصل أبداً"! وما هي القصيدة قد وصلت ولكن ماذا عن الشاعر؟ ماذا عن محمود درويش وعن قصيدته الجديدة التي تعكس مرارة المفاوضات المتصلة وأعداد اللاجئين والمستوطنين المتزايدة بما يضعنا على مشارف اليأس من الحصول على الاعتراف ويجعلنا نصدق شائعة "نهاية التاريخ" فندفن تاريخنا ونتخلى عن مستقبلنا لنتحول إلى كائنات معلوماتية دنيا؟ لكن الموت سينقذنا من هذه المتاهة كونه يذكرنا بأن نهاية التاريخ بالنسبة للأفراد هي نهاية حياتهم. ولكن التاريخ نفسه لا يقف عند هذه النهاية. لذلك فهو يروح يتابع دورته فارضاً على الزمان تقسيماً اعتبارياً قوامه ماض وحاضر ومستقبل. وهذا التقسيم اعتباطي لأنه لا يراعي نسبية الساعات (كآلات لقياس الوقت). وهي نسبية يصير عليها درويش. كما أصر عليها دالي في لوحته "الزمن السائل" وفيها ساعات مختلفة.

وإشارة درويش لنسبية الساعة رمز لنسبية الزمن والتاريخ ودعوة لمحاربة الأساطير بأساطير مضادة، كما أنها دعوة لاعتبار المفاوضات والاتفاقات مع (إسرائيل) مجرد كلمات عابرة. فـ(إسرائيل) تعتبرها كذلك (أي كلمات عابرة) بحكم تعاليمها ومبادئها وتاريخها. لكنها لا تريد أن تفهم بأنها هي نفسها عابرة مع هذه الكلمات. فهل نحن بحاجة بعد كل ذلك لقراءة تفسيرية وتوضيحية وإسقاطية لهذه الأبيات التي تعني حياة الشعر والشاعر وتدحض نهايات التاريخ والشعر وتؤكد سعي الإنسانية الحديث نحو "الاعتراف" وهو السعي الذي أكده هيغل وترجمته الشعوب على مر تاريخ البشرية!

الاقتصاد (الإسرائيلي) في ظل الانتفاضة:

ارتبط النجاح الاقتصادي لليهود بتركيزهم على ميادين الربح غير التقليدية. فمن الربا إلى السمسرة فالبورصات وأخيراً التكنولوجيا الحديثة. وهذه الميادين ترتبط ببعضها البعض بخصائص مشتركة. إذ تتطلب مقداراً من المهارة الشخصية المستعدة لإطلاق عدوانيتها دون رادع. كما تتطلب توظيفاً لمقدار أكبر من المال لكنه توظيف قصير الأمد. وهذه الصفة الأخيرة هي الأهم بالنسبة لليهود الذين يسعون دائماً للاستثمار السريع لأنه يتيح لهم استرداد أموالهم بسرعة في حالات الطوارئ. إنها نوع من التجارة البدوية الحديثة. وفيها يشترط التوظيف إمكانية الاسترداد السريعة لرأس المال. هكذا أبدع اليهود وتصدروا هذه المجالات الاقتصادية. وهي تنسجم مع قناعتهم بعدم رفض الكسب مهما كان نوعه أو مصدره وتحت أي رادع كان. وهذا ما يشير له نوبسنر (أستاذ اللاهوت اليهودي/ وهو يهودي بدوره) بقوله: "من المعروف أنه في حال تعارض مصلحة اليهودي مع مصلحة الرب فإن اليهودي يغلب مصلحته".

بالانتقال إلى الاقتصاد (الإسرائيلي) نجد أنه يلتزم بمبادئ المصلحة اليهودية ومبادئها. فإذا ما نحينا المساعدات الهائلة التي تتلقاها (إسرائيل) لوجدنا أن مداخلها الأخرى تتوزع على النحو التالي:

1. الصفقات المشبوهة: التي تتضمن تدريب جنراتها المتقاعدين لرجال كارتيل المخدرات ولرجال العصابات والمتقاتلين في الحروب الأهلية (التي ازدهرت وغيرها من أشكال الحروب الصغيرة بسبب سياسة النظام العالمي الجديد). وتقديم الخدمات الاستخباراتية وبيع الأسلحة والأسرار العسكرية. وغيرها من الصفقات التي لا تنتفع للأخلاقيات ولو بصورها الشكلية.

2. تجارة المخدرات: منذ نهاية الثمانينيات دخلت (إسرائيل) شريكاً كامل العضوية في تجارة المخدرات الشرق أوسطية. بصورة تتجاوز ثوابتها السياسية عداك عن فقدان الوازع الأخلاقي.

3. السياحة السوداء: حيث غالبية السياح القادمين إلى (إسرائيل) لا تنطبق عليهم صفات السائح العادي. إذ يتوزع هؤلاء السياح على الفئات التالية:

أ. **السياحة الدينية:** وفيها حائط المبكى وعظام الهدهد وأساطير أخرى تجذب يهود العالم نحو ما يشبه الفولكلور اليهودي. حيث غالبينهم لا يؤمنون بتفاصيل هذا الفولكلور.

ب. السياح الهامشيون: حيث تعمل (إسرائيل) على تشجيع الحركات الهامشية بين غير اليهود. وتعمل على استقطابهم والإفادة منهم. مثال ذلك الترويج لصورة (إسرائيل) كجنة للشواذ. وتشجيع تجمعات الهامشيين في الكرمل لقناعتهم بنهاية العالم في العام 2000 عداك عن حركات المسيحية الصهيونية... إلخ.

ت. السياحة السياسية: التي بدأت بدعوة طلاب العالم لقضاء الصيف في الكيبوتزات. ومرت بدعوة أولاد اليهود لزيارة (إسرائيل) مجاناً وصولاً إلى دعوات الزيارة الموجهة إلى الذين يقدمون خدماتهم لـ(إسرائيل).

ث. السياحة الجنسية: التي وصلت إلى أوجها مع قدوم اليهوديات الروس ونشوء عصابات تخصصت باستغلالهم في سوق البغاء (الإسرائيلي) الذي أعلنت صحيفة جيروزايم بوست عن بلوغه حد الـ 500 مليون دولار سنوياً. في مقابل ملياري دولار كدخل سنوي إجمالي للسياحة (الإسرائيلية). (ارتفع إلى 3.5 مليار مع قدوم مهووسي الألفية (1999/2000)، لينخفض إلى 1.4 مليار بسبب الانتفاضة).

4. تجارة الإلكترونيات الحديثة: التي تحتاج إلى توظيفات مالية كبيرة لكنها قادرة على الانتقال بسرعة فائقة في حال تهددتها الأخطار.

لجملة هذه الأسباب والمكاسب التي يحققها الاقتصاد (الإسرائيلي) عبرها وجدنا العديد من المثقفين العرب يعارضون مقولتنا، التي ضمناها كتابنا المعنون "النفس المغلولة - سيكولوجية السياسة الإسرائيلية"، حول كون الاقتصاد (الإسرائيلي) اقتصاد معونات. وتندعم هذه المعارضة بمستوى النمو الذي حققه الاقتصاد (الإسرائيلي) في العام 1999 حيث وصلت هذه النسبة إلى حدود الـ 8% (مع توقع نمو 4.5% للعام 2001). عداك عن توجه ثلث الصادرات (الإسرائيلية) إلى الولايات المتحدة وثلث آخر إلى أوروبا. في حين يتوزع الثلث الباقي على بقية دول العالم (بما فيها الدول العربية).

في المقابل استند إصرارنا على صفة اقتصاد المعونات إلى عدم ثبات المداخيل (الإسرائيلية) وإلى بداوتها. فصانع المعلوماتية مطلوب في أنحاء عديدة من العالم ومصنعه لا يتجاوز حاسوبه النقال الذي يحمله معه أين ذهب. وها هي الانتفاضة تأتي لتؤكد بداوة المصادر الاقتصادية (الإسرائيلية). وهو تأكيد تدعمه التقارير الاقتصادية الصادرة حول وضع الاقتصاد (الإسرائيلي) تحت وطأة الانتفاضة.

الحالة الراهنة للاقتصاد (الإسرائيلي):

يشير تقرير صندوق النقد الدولي إلى وقوف معدل نمو الاقتصاد (الإسرائيلي) هذا العام عند حدود الـ 2% في حين كان متوقفاً له بلوغ عتبة الـ 4.5%. وهذا التراجع يلخص الآثار الاقتصادية للانتفاضة. ويتدعم هذا التقرير بتكذيب بعض رجال الأعمال (الإسرائيليين) له بالقول إن الوضع على الأرض (الواقعي) أسوأ من ذلك بكثير. وهذا ما تؤكد الجيروسايم بوست بإعلانها تراجع النمو إلى 1% بما يوحي أن هذا التراجع قابل للتفاقم.

وبالعودة إلى يومية غلونر الاقتصادية (الإسرائيلية) نجد أن أشغال الفنادق قد تراجع بنسبة 25%. أما الدخل السياحي فقد انخفض بنسبة 58% مما انعكس ببطالة في قطاع السياحة طاولت 77000 شخص لغاية الآن. وبدأت بعض الفنادق تغلق أبوابها بسبب عجزها عن الاستمرار في ظل موسم سياحي كاسد بسبب الخوف من

الانتفاضة. وهو الخوف الذي لجأت (إسرائيل) إلى مختلف السبل المتاحة لتجاوزه. ومن هذه السبل دعوتها للسياحة المجانية عدداً من كبار الصحفيين الأجانب (الأميركيين خصوصاً) على أن يكتبوا مقالات، لدى عودتهم إلى بلادهم، تبدد هذا الخوف. وهذا ما حصل فعلاً مع صحفيي كبار اليوميات الأميركية ولكن دون نتيجة. وتبقى الدراسة الميدانية للوضع هي الأصدق بالواقع. حيث تصدت يومية غلوزر لهذه المهمة فقابلت بعض كبار رجال الأعمال (الإسرائيليين). ونعطي مثلاً على الحالة الاقتصادية التصريح الذي أدلى به شيمي بيريز (ابن وزير الخارجية شمعون بيريز) الذي يتاجر بالإلكترونيات الحديثة إذ يقول: إن التراجع الحاصل في بورصة الإلكترونيات الحديثة يخفض تدفق المستثمرين فيها. وأنا شخصياً لم أعد مهتماً بالربح بقدر اهتمامي بالمحافظة على أساس شركاتي ورأسمالي. ولهذا التصريح دلالة غاية في الخطورة لأن غالبية الصادرات (الإسرائيلية) المعلنة تنتمي إلى هذا الحقل. الذي يعني تراجع المنتظم تراجعاً منهجياً لخطط التنمية (الإسرائيلية). وهذا ما يجعل (الإسرائيليين) شديدي الخوف على وضعهم الاقتصادي. لإدراكهم واقعة قيامه على التبعية متعددة الصعد. بدءاً من اليهود الأميركيين وصولاً إلى المساعدات الأميركية المباشرة.

الأسباب الموضوعية للتراجع الاقتصادي (الإسرائيلي):

إن تحميل الانتفاضة مسؤولية تدهور الأوضاع الاقتصادية في (إسرائيل) ينطوي على مبالغة لا يقبلها الحس السليم. خاصة وأن الفلسطينيين يعانون في المقابل من حصار يهدد بانتشار سوء التغذية بينهم. دون أن يعني ذلك بحال تجاهل مساهمتها في تعقيد الظروف السيئة للاقتصاد (الإسرائيلي) (خصوصاً على صعيد السياحة، حيث من الطبيعي أن يهرب السائح من المناطق الساخنة، وعلى صعيد قطاعي الزراعة والبناء اللذين يعتمدان على اليد العاملة الفلسطينية الرخيصة). ففي المقابل لا نستطيع تجاهل انعكاسات الأزمة الاقتصادية الأميركية على دولة تابعة لها مثل (إسرائيل). فقد كان تراجع النمو (الإسرائيلي) متوقعاً ومبرمجاً قبل اندلاع الانتفاضة. ولما حدثت فإن الإعلان الأميركي الوحيد الواضح كان تطمين (إسرائيل) باستمرارية أميركا في دعمها لتخطي أزماتها والاقتصادية ضمناً بالطبع. ولعلنا لا نحتاج إلى التذكير بالتعويضات الأميركية لـ(إسرائيل) عن خسائرها وأضرارها من حرب الخليج.

إلا أن كل ذلك لا يعني بدوره إلغاء دور الانتفاضة الوظيفي على الصعيد الاقتصادي. إذ كانت مناسبة لإطلاع الراي العام العالمي على جملة بديهيات كانت موهة إعلامياً وأهمها التالية:

1. الشقاء والفقر الذي يعيش فيه الفلسطينيون.
2. اعتماد (إسرائيل) لسياسة الحصار (لغاية التجويع) كوسيلة ضغط سياسية. بما يتنافى وحقوق الإنسان.
3. الدعم الأميركي، غير المشروط، للاقتصاد (الإسرائيلي).
4. إدراك السياح والمستثمرين في (إسرائيل) لوجود ظلم يدفع بالفلسطيني إلى حدود تفجير نفسه. بما يعكس أقصى درجات اليأس ويجعل من (إسرائيل) دولة غير آمنة على المدى المتوسط والبعيد. وهو توقع يتدعم بمراقبة حجم الهجرة اليهودية من (إسرائيل) أثناء الانتفاضة.

5. ارتباط الاقتصاد (الإسرائيلي) بالمعونات الأميركية المباشرة وغير المباشرة (استثمارات، شراكة صناعية، معاملة خاصة... إلخ). وكذلك مشاركتها في الأموال السوداء (تجارة المخدرات وغسيل الأموال وتجارة الأسلحة والأسرار التقنية وغيرها).
 6. إن (إسرائيل) تدفع ثمناً لحصارها للفلسطينيين لكونهم يشكلون اليد العاملة الرخيصة لمختلف صناعاتها ونشاطات الحياة اليومية فيها.
 7. قدرة (إسرائيل) (عبر الضغط الأميركي) على تقنين المساعدات العربية للفلسطينيين.
 8. قدرة الفلسطينيين على شل نشاطات الحياة اليومية في (إسرائيل) ولو بتفجير أجسادهم.
 9. استعداد اليهود لمغادرة أرض ميعادهم في حال الأزمات وانخفاض الدخل فيها. في مقابل الفقر الفلسطيني المرتبط بالأرض ضمن ظروف اقتصادية بائسة.
 10. الخسائر التي ألحقتها الانتفاضة بالاقتصاد (الإسرائيلي) (راجع أعلاه). والتي تستلزم طلب العون الأميركي. بل قل البديل لأن (إسرائيل) تحسن تسويق خدماتها في السوق الأميركية. بحيث حولت وضعية الانتفاضة إلى مجال للمساومة على المصالح الأميركية في المنطقة. ومن ثم طلب البديل بعد تنفيذ ما تتطلبه هذه المصالح.
- المعونات الأميركية لـ(إسرائيل):**

من الغفلة بمكان أن يظن البعض بإمكانية سماح الولايات المتحدة لـ(إسرائيل) بتأمين استقلاليتها الاقتصادية. وبالتالي خروجها من دائرة التبعية الأميركية. ومن التغفيل الظن أن (إسرائيل) مستعدة لاستفزاز الأميركيين بهذه الطريقة المعلنة للعقوق. إذ أن الثمن المباشر لهذا العقوق سيكون إنهاء الدور الوظيفي لـ(إسرائيل) بإيجاد بديل لها. وبالتالي الانسحاب الأميركي من تأمين حمايتها واستمراريتها.

بعضهم يقصر المعونات الأميركية لـ(إسرائيل) على الدعم المباشر المقدر بأربعة مليارات دولار سنوياً. وفي هذا القصر اختزال تبسيطي يلامس الجهل ويتخطى الغفلة. إذ تعتمد الولايات المتحدة مبدأ دعم الأصدقاء عبر ما تسميه بـ: "الدولة الأولى بالرعاية" (هذه الرعاية التي شكلت ولا تزال عنصر الجذب في التقارب الصيني الأميركي منذ أيام نيكسون ولغاية اليوم). وما من شك أن (إسرائيل) هي أولى أوائل الدول المشمولة بالرعاية الأميركية. حتى أن واحداً من أهم الإستراتيجيين والساسة (الإسرائيليين)، هو يوسي بيلين، يخصص كتابه "موت العم الأميركي" (1998) لطرح سؤال: ماذا يحدث لـ(إسرائيل) لو تخلى عنها العم الأميركي (يهود أميركا)؟ ويجب بيلين: إذا استمرت الحال على ما هي عليه فإن موت العم يعادل نهاية (إسرائيل). وهو ينطلق من هذا التحذير كمدخل لإقناع الجمهور باقتراحاته التجديدية. خصوصاً لجهة تعريف اليهودي وفق مبادئ علمانية بدلاً من المنطلقات الحاخامية السائدة الآن.

صحيح أن (إسرائيل) قد حققت قفزات اقتصادية هامة مكنتها من استبدال الحاجة للدعم المباشر بالدعم غير المباشر، وذلك بتشجيع ومباركة أميركيين. لأن الدعم غير المباشر أقل استفزازاً لدافع الضرائب الأميركي

وإحراجاً للحكومة. كما أنه يخفف الأعباء على الخزينة الأميركية. ولكن هل يعني هذا إلغاء صفة المعونات عن الاقتصاد (الإسرائيلي)؟

لقد حاول بنيامين نتنياهو تحدي هذه المعادلة بإلغاء هذه الصفة. فلجأ إلى تجاوز الحدود المرسومة أميركياً للتورط (الإسرائيلي) في العمليات السوداء. وكان من الطبيعي أن تقطع عليه الطريق بالمجيء بباراك الأقل حماسة للاستغناء عن الدعم الأميركي. فإذا ما اتفقنا على إجابة الولايات المتحدة حماية مصالحها أدركنا أنها لا تجد أي مبرر لاستمرارية (إسرائيل) بدون دورها الوظيفي الحامي لهذه المصالح. من هنا لا بد من الاستنتاج بوجود رعاية/ رقابة أميركية على الاقتصاد (الإسرائيلي) بما يحفظ التوازن للاقتصاد (الإسرائيلي). ولعله من الصعوبة بمكان تقديم رؤية متكاملة عن اقتصاد يلامس المئة مليار دولار في مقالة كهذه. عداك عن كون المداخل غير المنظورة هي عصب هذا الاقتصاد. وقبل إعطاء أية فكرة عن هذه المداخل لا بد من التذكير بمبدأ الكسب اليهودي القائل بتحصيل المكاسب باقتناص الفرص المتاحة. ويكفينا في هذا المجال التذكير بأن دخل السياحة (الإسرائيلية) للعام 1999 قد بلغ 3.4 مليار دولار. أي حوالي نصف موازنة الدولة اللبنانية. في حين بقيت الولايات المتحدة تمنع رعاياها من زيارة لبنان لمدة سنوات. وهو منع لا يقضي فقط على السياحة بل هو يمنع الاستثمارات ويدفعها للهرب. وإذا كنا بدأنا المقارنة مع لبنان فنذكر أن واحداً من أهم الشروط الأميركية لإنهاء الصراع الأهلي اللبناني كان التعهد بالقضاء على تجارة وزراعة المخدرات في لبنان. في المقابل نجد ضابط الموساد غوردن توماس يعترف في كتابه "جواسيس جدعون" بتورط (إسرائيلي)، على مستوى كبير، في تجارة المخدرات في المنطقة. كما نجد استجاباً مقديماً إلى الكنيست في آذار 2000 لتحقيق في تورط ضباط شرطة (إسرائيليين) كبار في زراعة المخدرات في الموشافات. وكذلك شراكتهم في زراعة المخدرات في الصحارى المصرية. ومن الصعوبة بمكان تحديد حجم هذه التجارة (يمكن تقديرها بالمقارنة مع الأرقام اللبنانية التي كانت تلامس الستة مليارات دولار سنوياً. والتي بقيت لسنوات بموافقة أميركية ضمنية) لذا نكتفي بالإشارة إلى التغاضي الأميركي عن هذا النشاط (الإسرائيلي). والذي نرجح كونه مقنناً بالاتفاق مع مكتب المخدرات الأميركي بحيث يغني الحكومة الأميركية عن تقديم مساعدات مباشرة لـ(إسرائيل). وهي سابقة حاصلة في أكثر من بلد وأكثر من مناسبة. بل إن كتاب العمليات السوداء للمخابرات الأميركية يتكلم عن شراكة السي. أي. أي. في تحارة المخدرات لتأمين مصروفات عملياتها غير المعلنة. وهذا ما حصل في حالة نورييغا مثلاً.

على أن الاستثناءات الأميركية لـ(إسرائيل) لا تجد لها مثيلاً في علاقة الولايات المتحدة بأية دولة أخرى. ومن أمثلة هذه الاستثناءات نذكر التالية (المعلنة لأن غير المعلنة أخطر كثيراً ولها تغطية التعاون الإستراتيجي). ونبدأ بـ:

1. الاستثناء من قانون تصدير الأسلحة (لا تشر بالمعونات أسلحة أميركية وتستخدمها في بناء المستوطنات).
2. السماح لـ(إسرائيل) بالحصول على الأسرار والمعلومات الدقيقة بما فيها المتعلقة بالدول العربية (بعد تحالفها مع تركيا باتت تتبادل المعلومات).

3. السماح للصناعة العسكرية (الإسرائيلية) بمنافسة مثيلتها الأميركية. لجهة تحديث وتطوير وتصدير الأسلحة. سواء إلى دول حلف الناتو أو إلى دول العالم الثالث. (تجني "إسرائيل" حالياً مرباح هامة من التزامها تطوير الأسلحة التركية. كما جنت مرباح غير محددة من مساعداتها التقنية العسكرية للصين).
 4. التزام مصانع الأسلحة الأميركية بشراء ما نسبته الربع (25%) من مشتريات (إسرائيل) من هذه الشركات.
 5. التعاقد مع (إسرائيل) للقيام بأبحاث حول حرب النجوم (الجدار الصاروخي تتمتها) بتمويل أميركي صرف.
 6. تمتع (إسرائيل) بوضعية الحليف الرئيسي لحلف الناتو بما تحمله هذه العضوية من أفضليات ومكاسب تدعمت بعد تعديلات الناتو الإستراتيجية العام 1999.
 7. شراء الولايات المتحدة لنسبة من الأسلحة (الإسرائيلية) وإدخالها للخدمة في الجيش الأميركي. وخاصة الطائرة (الإسرائيلية) بدون طيار والإلكترونيات ذات الاستخدام العسكري.
 8. تشجيع تصدير الأسلحة (الإسرائيلية) للدول التي تتلقى معونات أميركية. بالسماح لها بالانفاق على هذا الاستيراد. وبالسماح لـ(إسرائيل) بتصدير أسلحة تحتوي على قطع أميركية.
 9. تقديم معونات مالية لـ(إسرائيل) لتمويل مشاريع بحث مشتركة بين علمائها وعلماء العالم الثالث. وتجدر الإشارة هنا إلى الشكوك المبررة لاعتماد (إسرائيل) مؤسسات تمويل (ترتبط بها سراً) لتمويل بحوث عربية. تتمحور غالبيتها في التجسس الاجتماعي الهادف إلى تحديد نقاط التفجير الأكثر حساسية داخل هذه المجتمعات. ولسنا بحاجة للأمثلة (راجع كتاب سناء المصري علماء لكن جواسيس).
 10. الدعم الدبلوماسي الأميركي (عبر السفارات الأميركية) لتسهيل التغلغل الاقتصادي (الإسرائيلي) في الدول المعنية (الأفريقية خصوصاً).
 11. الدعم المالي الأميركي لموجات الهجرة اليهودية الجديدة إلى (إسرائيل) (على سبيل المثال صفقة الفالاشا من خلال السودان بضغط أميركي).
 12. قيام بنك التصدير والاستيراد الأميركي بتقديم القروض لـ(إسرائيل).
 13. الاستثمار المالي في الاقتصاد (الإسرائيلي) على الصعيد الحكومي وعلى صعيد الشركات (بلغ هذا الاستثمار حدوداً غير متخيلة بالنسبة لدولة بحجم إسرائيل).
 14. تسهيل حصول (إسرائيل) على قروض من المصارف الأميركية بضمانة حكومية غير مباشرة.
 15. مميزات اتفاقية التجارة الحرة بين البلدين الموقعة عام 1985. ويليهما التحضير لاتفاقية التعاون الإستراتيجي.
- بعد كل هذه المساعدات المباشرة وغير المباشرة كان من الطبيعي أن يتمكن الاقتصاد (الإسرائيلي) من تحقيق قفزات هائلة جعلت حجمه للعام 2000 يلامس المئة مليار دولار.
- وتبرز عبر هذا النمو صناعتان (إسرائيليتان) منافستان عالمياً هما الصناعة العسكرية والتكنولوجيا الحديثة. ولم تكن هاتان الصناعتان لتبرزوا لولا وجود خزان عقول يهودي في العالم قابل للاسترداد وإن بشروط. ومع ذلك فإن

اقتصاد (إسرائيل) يبقى اقتصاد معونات! وهي نقطة مثيرة للجدل. الذي يمكن حسمه بالمقارنة بين المعونات الأميركية المشار لها أعلاه وبين قوانين العقوبات الأميركية المطبقة على دول أخرى. فهل تستطيع (إسرائيل) الاستمرار في غياب هذه المعونات؟ وما بالك لو طبقت عليها واحداً من أنواع العقوبات؟!

الاقتصاد (الإسرائيلي) في ظل الانتفاضة:

بلغت معاناة الشعب الفلسطيني خلال الانتفاضة حدود الجوع وسوء التغذية. ليريز موقف أميركي واضح وحيد هو الإعلان عن الالتزام الأميركي بأمن (إسرائيل). وبالتالي باقتصادها. ومع ذلك فإن متابعة بسيطة لليوميات (الإسرائيلية) (غلونر ويديعوت أحرنونوت تحديداً) تبين بالأرقام هشاشة الاقتصاد (الإسرائيلي). إذ تراجع مدخول السياحة من 3.4 مليار دولار الى 1.2 مليار. وتراجع النمو المفترض من 4% إلى 2% ومن ثم إلى 1%. وفي مقابلات أجرتها هاتان اليوميتان نجد أن شيمي بيريز (ابن وزير الخارجية) يصرح أن شركته العاملة في التكنولوجيا الحديثة قد منيت بخسائر غير متوقعة وتمنى لو تمكن من الحفاظ على رأسماله الأساسي في هذه الأزمة. أما العاملون في مجال البناء الفخم فهم يصرخون لعدم وجود مشترين لأبنيتهم بما من شأنه إيصالهم إلى الإفلاس. وفي قطاع السياحة أغلقت عشرة فنادق أبوابها وقدر عدد العاطلين عن العمل في ميدان السياحة لوحده بسبعين ألف عاطل عن العمل. عداك عن الهروب اليهودي من (إسرائيل) إلى بلدان المنشأ... إلخ من الآثار الاقتصادية للانتفاضة. فهل تدل هذه العينة من الأرقام على اقتصاد متماسك واستقلالي؟

المسألة ببساطة هي أن الصناعة العسكرية الأميركية قد خصت (إسرائيل) بافتتاح فرع فيها. على غرار ما تفعله شركة جنرال موتورز بافتتاحها مصانع تابعة لها خارج الولايات المتحدة. أما الصناعة الإلكترونية فهي بدوية الطابع. إذ أن مصنعها هو العقل الفردي الذي يحمل حاسوبه النقال لينتقل إلى البلد الأكثر تقدراً لمعلوماته. وهذا الإصرار على وصف الاقتصاد (الإسرائيلي) بالتابع وبالاعتماد على المعونات لا يعني البتة التكرار لمهارة اليهود في اقتناص فرص الربح. وأولى علائقها الرخاء المادي للمواطن (الإسرائيلي). الذي يجذب فقراء اليهود أنحاء العالم. في حين يفضل أغنيائهم البقاء حيث هم. فإصرارنا يعني معاودتنا طرح أسئلة من نوع: كم يبقى من اليهود في أرض ميعادهم لو انخفض دخل الفرد فيها؟ وماذا بعد موت العم الأميركي؟ وماذا لو تراجعت الولايات المتحدة عن سياسة استعدادها للعرب؟ بل ماذا لو لم يعد بإمكانها التفرد في فرض العقوبات عليهم؟ وهذا السؤال الأخير يستوجب عرض أساليب الحصار الأميركية المعتمدة في ظل الأحادية القطبية. التي تسمح للولايات المتحدة بممارستها حتى على الأصدقاء.

أساليب الحصار الأميركية:

الحصار هو كلمة مخفية للحرب الاقتصادية التي باتت الولايات المتحدة تشنها في شتى الاتجاهات دون تخرج. وتتضمن هذه الحروب الاقتصادية تقنيات مختلفة تستخدم منها أميركا ما يلي (نعنذر لإيراد أمثلة محدودة لمجرد الدلالة):

1. الإنذار (الإنذارات الأميركية المتكررة بخفض سعر برميل النفط إلى 5 دولارات).

2. الحواجز الجمركية (الهادفة إلى إبقاء النفط سلعة الاعتماد الاقتصادي العربي).
 3. العقوبات الاقتصادية (تمارس على الدول المارقة وغالبية العرب مارقون).
 4. المقاطعة الاقتصادية (فرض عقوبات أميركية على المتعاملين مع العراق وإيران ..إلخ).
 5. القرصنة البحرية (مصادرة النفط المهرب مثلاً).
 6. الاندماجات (الهادفة لابتلاع الشركات الصغيرة ومحاولات النهوض).
 7. التجسس الاقتصادي.
 8. الاحتكار.
 9. حرب البورصات (أزمة النمر الآسيوية وانهارها بمشيئة أميركية).
 10. حروب النفط والماس واليورانيوم.
 11. حروب المخدرات.
 12. تزوير العملات وغسيل الأموال.
 13. سياسة الإغراق (بيع 30 مليون برميل نفط أميركي لمنع ارتفاع السعر فوق العتبة المقررة أميركياً).
- إن العلاقة الأميركية – (الإسرائيلية) لم تستوجب بعد تخطي حدود التعامل مع ولاية تابعة (الولاية الـ 51 الأميركية). ولهذا السبب وحده يبقى الاقتصاد (الإسرائيلي) قوياً وتابعاً. وهو اقتصاد معونات تأكيداً وعوداً على تأكيد.

الساحرة العجوز تتجمل:

(إسرائيل) تسعى لتحسين صورتها لدى الرأي العام العالمي

لاحظ (الإسرائيليون) تراجع ملامح الصورة النمطية لـ(إسرائيل) المتحضرة لصالح ملامح إجرامية ناتجة عن العنف (الإسرائيلي) في قمع الانتفاضة. وذلك بالرغم من سيطرتهم على وسائل الإعلام المؤثرة والمحركة للرأي العام العالمي. لذلك لجأت (إسرائيل) لطلب استشارة اثنتين من المؤسسات العالمية المشهورة في ميدان العلاقات العامة الدولية، وهما: 1. شركة روبينشتاين كوميونيكيشن و 2. شركة موريس كويك اند غوما. حيث أوصى الخبراء في هاتين الشركتين وبعد خمسة أشهر من الدراسة بمجموعة خطوات لتجميل الصورة الإعلامية لـ(إسرائيل). وتسرب من هذه التوصيات اثنتان لا نشك بكون تسريبهما مقصوداً ودعائياً لجهة امتصاص آثارهما السلبية على الرأي العام العالمي.

أولى هذه التوصيات تقول بضرورة حجب الحراس الشخصيين لشارون عن التصوير الصحفي. نظراً لضخامة أجسامهم التي تخلف انطباعاً مرعباً لدى المشاهدين.

وثاني التوصيات تقول بضرورة قيام الجيش (الإسرائيلي) بتلوين بنادقه بأحد اللونين البنفسجي أو الأصفر. للدلالة على أنها بنادق عيارات مطاطية.

وإذا كان صحيحاً أننا لا نزال بعيدين عن الاهتمام بصورتنا العربية في الإعلام العالمي لكن ذلك لا يمنع بحال محاولتنا الكشف عن الحيل الكامنة وراء هذا التسريب الإعلامي. خصوصاً أنه يسيء استخدام سيكولوجية الاتصال ويوظفها لمصلحة طرف على حساب آخر. وبالنسبة لنا فإنها توظف في خدمة عدونا أثناء ممارسته لأبشع صنوف العدوان المترافق بتهديدات تفوح منها روائح الإجرام والعنصرية. واستخدام هذه التعبيرات ليس من قبيل الصوت واللفظ. فهي تعابير مستعارة من وسائل إعلام أجنبية.

مهما يكن فإننا نبغي مشاركة القارئ في التقنيات المستخدمة في هاتين النصيحتين. ونبدأ بـ:

1. العناصر النفسية:

إن المبدأ الرئيسي في علم نفس الاتصال هو محاولة الحصول على أكبر قدر ممكن من المعلومات. فكل معلومة مهما بدت سطحية وتافهة لا بد لها من مساعدة المتصل على تحسين أدائه. وفي حالة السعي لتجميل الصورة فإن البداية تكمن في إرباك المستقبل للمعلومات عن طريق تشكيكه بالمعلومات المترابطة لديه. مثال ذلك تسريب هاتين النصيحتين. الذي يبدو بريئاً وعادياً. ليحمل في طياته إيجاباً للمستقبل على مراجعة معلوماته السابقة. فهل كانت الأسلحة (الإسرائيلية) الموجهة إلى الأطفال الفلسطينيين حية أم مطاطية؟ واحتمال كونها مطاطية يجعل وصف مستعمليها بالوحشيين متسرعاً. وماذا عن محمد الدرة والرضيعة إيمان حجو وغيرهم من الأطفال القتلى؟ هل تراهم ماتوا برصاص حي يعكس تبييت نية القتل؟ أم هم أصيبوا بعيارات مطاطية؟... إلخ. ويتردد هذا الشك والتردد مع كل ذكرى لمشهد عدواني (إسرائيلي) ليتحول إلى إرباك يدفع بالفرد إلى مراجعة أحكامه السابقة على الصور العدوانية. ليمتد الأمر إلى المناظر الجديدة واللاحقة حيث سيجد المشاهد نفسه مرتبكاً متسائلاً ومترددًا في الحكم على المناظر المعروضة أمامه. وتتعلم إساءة استخدام الاختصاص من خلال انتقاء الألوان. إذ يرمز اللون الأصفر إلى سمات نفسية محددة هي بحسب اختبار لوشر النفسي التالية: البديهة والرغبة في الأمان والحذر وفرح الحياة. أما اللون البنفسجي فسماته التالية: عدم التحديد والحذر وعدم النضج وروح النقد (للتعمق راجع كتابنا الاتصال الإنساني وعلم النفس). وعليه فإن انتقاء هذه الألوان إنما يهدف إلى التأثير الإيجابي النفسي على المشاهدين في العالم. حتى يبدو موت الأطفال الفلسطينيين وكأنه من أفلام الصور المتحركة وليس نهاية حياة بشرية بريئة لم تؤذ (الإسرائيلي) سوى بانتمائها. وهو أذى توصي التعاليم اليهودية بعقابه!

وننتقل إلى منظر الحرس الشاروني الموصى بحجبهم عن التصوير التلفزيوني. وهو إحياء يستجلب مشاعر الذنب لدى المشاهد الأجنبي. إذ يجعله يحس بأنه يمارس التفرقة. فما ذنب الشخص المولود ضخم الجثة؟ وهو سؤال يحجب حقيقة انتقاء شارون لضخام الجثث. وإعجابه الشديد بالمتطرفين من اتباعه، وتشجيعه لهم على التطرف.

2. العناصر السياسية:

أن يسعى شارون وحكومته إلى مخاطبة الرأي العام والاهتمام به. وأن يعلن عن ذلك في شتى الوسائل المتوافرة (على طريقة خبر صغير وسريع) فإن ذلك يخلف الانطباع بأن الرجل ليس سفاحاً بل هو دبلوماسي ساع للحوار

ولعرض قضيته ولمخاطبة الآخر وتحكيمه وقبول أحكامه. والجمهور بطبيعته حساس على الاهتمام الذي توجهه له أطراف النزاع. بل إنه ميل للحكم لصالح الطرف الأكثر حماساً لعرض قضيته عليه. إذ يفسر الجمهور هذه الحساسية على أنها بحث عن عدالة مفقودة. وهذا تحديداً ما قصرنا فيه نحن العرب. وتكرر لفت أنظارنا إلى ضرورته وتأثيره من جهات متعددة. نذكر منها كنوع من العرفان دعوات كل من إدوار سعيد وبول فندلي للعرب كي يبذلوا جهداً لعرض قضاياهم على الرأي العام الأميركي. وهؤلاء يعرفون مدى تأثر المواطن الأميركي بالإعلام والدعاية ومدى خضوعه لإيحاتهما. وهذا تحديداً ما تحاول (إسرائيل) استثماره في صفقة تلوين البنادق وغيرها من صفقات التلوين السابقة. إلا أن المهمة اليوم أصعب وأعقد مما كانت عليه في السابق. إذ تدخلت جملة عناصر سياسية لتسجل تغييراً جذرياً في صورة العربي لدى الرأي العام العالمي، والأميركي خاصة، بحيث لم تعد الدعاية (الإسرائيلية) قادرة على اعتماد مبدأ تسويق صورة (الإسرائيلي) على أنها النقيض لصورة العربي. فقد تمكنت الجهود العربية المتواضعة، ولكن المتحمسة والمندفعة، إلى تبييد الإيحاءات السلبية التي أقحمتها (إسرائيل) لتثويه صورة العربي.

ومع ما ينطوي عليه الاختصار من احتمالات سوء التأويل والفهم الخاطئ نختصر هذه الجهود بالنقاط التالية:

1. تمكنت الحكومات العربية من اتخاذ القرار غير الشعبي باعتماد السلام كخيار عربي إستراتيجي. والرأي العام العالمي يعرف مقدار عدم شعبية مثل هذا القرار لمعرفته بالظلم الذي يتعرض له المواطنون العرب في ظل التفضيل الأميركي لـ(إسرائيل) على حساب مصالحهم وجهاز قيمهم.
2. تقتضي الديمقراطية، وفق مفهومها الغربي، أن يرفق القرار غير الشعبي (السابق) بإعطاء حرية المعارضة الشعبية له، على غرار المعارضة الداخلية الأميركية لحرب فيتنام وغيرها.
3. في العرف القانوني، ووفق منطق الأمور، فإن وجود الضحية يستتبع البحث عن الجاني. كما عن ظروف الفعل الجنائي وملابساته. ووجود الضحايا العرب بكميات هائلة في فلسطين ولبنان والعراق وليبيا والسودان وغيرها من الدول العربية يستتبع البحث عن الجناة. وهو بحث بدأ بالتبدي أمام الرأي العام بصور مختلفة. من أمثلتها كتب من نوع: "العمليات السوداء للمخابرات الأميركية" وكتابات بول فندلي المتعددة ... إلخ.
4. الجهود الحديثة التي يبذلها بعض المثقفين العرب بحركة نضالية، قد تكون أكثر فعالية من القتال نفسه، هادفة لتوضيح الحقائق أمام الرأي العام العالمي. ومنها الجهود الطليعية لإدوار سعيد والدور البالغ الحساسية الذي لعبته حنان عشراوي منذ اندلاع الانتفاضة. عداك عن المواقف المميزة إعلامياً، والمتسببة بإخراج بالغ (للإسرائيليين)، للمرحوم فيصل الحسيني. وغيرها من الجهود المبذولة في المجال. حيث من الغبن تجاهل أي جهد في هذا السبيل.
5. انتقال اللوبي العربي في أميركا للفعل بمناسبة المنافسة الحادة في الانتخابات الأميركية الأخيرة. بما أعطى دفعاً وشعوراً بالقدرة على الفعل لدى العرب الأميركيين. بدلاً من إحباطهم وشعورهم السابق باللاجدوى.

6. العمليات الاستشهادية، التي بدأت على ضوء المواقف السابقة، تطرح الأسئلة حول مدى اليأس والإحباط الذي يشعر به الاستشهاديون كي يقدموا على هذه العمليات.

7. التحدي الذي مثله ترشيح يهودي أصولي لمنصب نائب الرئيس الأميركي. فالديمقراطية الأميركية تقف عند حدود الدستور بصفته "الانجيل الجديد". حيث يفترض ان يكون رعاته من البروتستانت فقط. لقد استفز هذا الترشيح قطاعات واسعة من التركيبة الأميركية الهجينة. وانعكس ذلك جلياً في توزيع الأصوات الانتخابية. هذه المتغيرات وعديدة غيرها تجعل صورة (الإسرائيلي)، بل اليهودي عموماً، موضع تراجع في الإعلام العالمي. لكن اليهود يملكون اللقاحات الكافية ضدها عبر سيطرتهم الإعلامية. كما عبر إجادتهم لعبة اختراق الإعلام لتسخيره من أجل التحايل لإثبات وجهات نظر غير حقيقية. بما يتضمنه ذلك من تلاعب في آراء الناس. وهو تلاعب يحرمه القانون الأميركي ويتقن اليهود اختراق هذا التحريم، ولكن إلى متى!؟

الصراعات (الإسرائيلية) الداخلية:

كان انتخاب شارون بحد ذاته إشارة إلى رغبة الجمهور (الإسرائيلي) بالقضاء على الانتفاضة بالوسائل العسكرية القمعية. وهي رغبة متعارضة مع حركات (إسرائيلية) وعالمية عديدة لا تزال تضع شارون في دائرة الشك لجهة مسؤوليته في مذابح صبرا وشاتيلا. عداك عن كونه شخصية غير قابلة للتسويق في الفترة التي كادت فيها المنطقة تتحول إلى السلام. حتى أمكن القول إن الجمهور (الإسرائيلي) قد أعرب عن رفضه التام للسلام بعد الأغلبية التي أعطاهها لشارون في الانتخابات الأخيرة.

وكانت الصحافة الفرنسية مثلاً قد استقبلت شارون بالسؤال عن سبب وجود مجرم محترف في مخزن بارود وفي جيبه علبة كبريت؟ ورأت أن الجواب على ذلك يجعلنا نفهم ما كان يفعله شارون في زيارته للأقصى. وتتعدد الأمثلة في الصحافة الأجنبية. بما يدفع للسؤال عن الدوافع الكامنة التي جعلت (الإسرائيليين) يرتكبون مثل هذا الخطأ؟

الجواب في غاية التعقيد إذ تعود (الإسرائيليون) على وجود تغطية إعلامية لعدوانهم بما حولهم نحو الاسترخاء وتجاهل الحسابات والتوقعات السلبية. وهم ارتكبوا أخطاءهم الإستراتيجية الأساسية تحت وطأة عقدة الاضطهاد لديهم. فهم يلجأون للعدوان كمصدر وحيد يطمئنهم في وجه الشعور بالتهديد. وفي هذه الحالة يكون عدوانهم انفعالياً وفاقداً لسمة التلوين البنفسجي وهو التخطيط الصهيوني البارح. ومشاعر التهديد هذه المرة لم تكن محصورة بالانتفاضة وتهديداتها بل أضيفت إليها جملة عوامل صراعية/ داخلية. يمكن تلخيصها كما يلي:

1. الإلحاح الأميركي للتخلص من باراك ومن مشاريعه الكلينتونية. وهذا الإلحاح شجع تفجير حزب العمل من الداخل. ونشوء ثلاثة تيارات انشقاقية رئيسية فيه. هي تيارات باراك وبيريز (المدعوم أميركياً للفترة المقبلة) ويوسي بيلين.

2. تقدم شارون على سائر الزعماء الليكوديين بسبب ماضيه الهوسي ووعده بإنهاء الانتفاضة خلال مئة يوم!؟ وهو بذلك لم يعد ليكودياً بقدر كونه متطرفاً. من هنا عطف المتطرفين عليه ودعمهم له.

3. التغيب المتعمد لنتنياهو باستغلال وضعيته كمستقبل لا يحق له الترشيح. وهو استغلال ساهم في انشقاقات ليكودية أقل وضوحاً من تلك الظاهرة في العمل.

4. الصعود التدريجي للعلمانيين بحركاتهم الجديدة (مؤرخون جدد ودعاة علمنة الهوية اليهودية ودعاة السلام على الطريقة الإسرائيلية... إلخ).

وبالانتقال إلى ما بعد المئة يوم على الانتفاضة نجد الصراع يمتد إلى داخل حكومة قمع الانتفاضة. حيث يبدو بيريز وكأنه يستعد لإسقاط شارون والحلول مكانه وبتشجيع أميركي. فحملة التلويين الأخيرة هي من مسؤولية وزير الخارجية بيريز. الذي أعقبها بتصريحات (آخرها لقناة الجزيرة في 2001/7/18) يظهر فيها المرونة ويعد بوقف المستوطنات والعودة إلى المفاوضات وغيرها من محاولات انتزاع شهادات النضج والبراءة. التي تستفز شارون وتياره المتطرف. كما تشهد المرحلة الملونة الراهنة صعود نجم بيلين الداعي إلى السلام من أجل بقاء (إسرائيل) ومستقبلها. والمعارض لقمع الانتفاضة على هذا الأساس. وهو يكرس هذا الصعود بلقاءات مستمرة مع الفلسطينيين أثناء الانتفاضة.

هنا تتخذ خدعة التلويين اليهودي طابعها الأكثر استفزازاً حيث التلويين لإيطال فقط البنادق ولكن السياسيين أيضاً. فها هو بيلين بنفسجياً ويوسي ساريد أصفر وبيريز أخضر وشارون أسود ونتنياهو بنياً غامقاً. لهذا كله ننصح الإعلام العربي ومعه العرب المهتمون بالإعلام العالمي أن يبدأوا بنشر اختبار لوشر للألوان وتدريب الرأي العام عليه لتحسينه من خدع التلويين اليهودية.

* * *

النهاية